

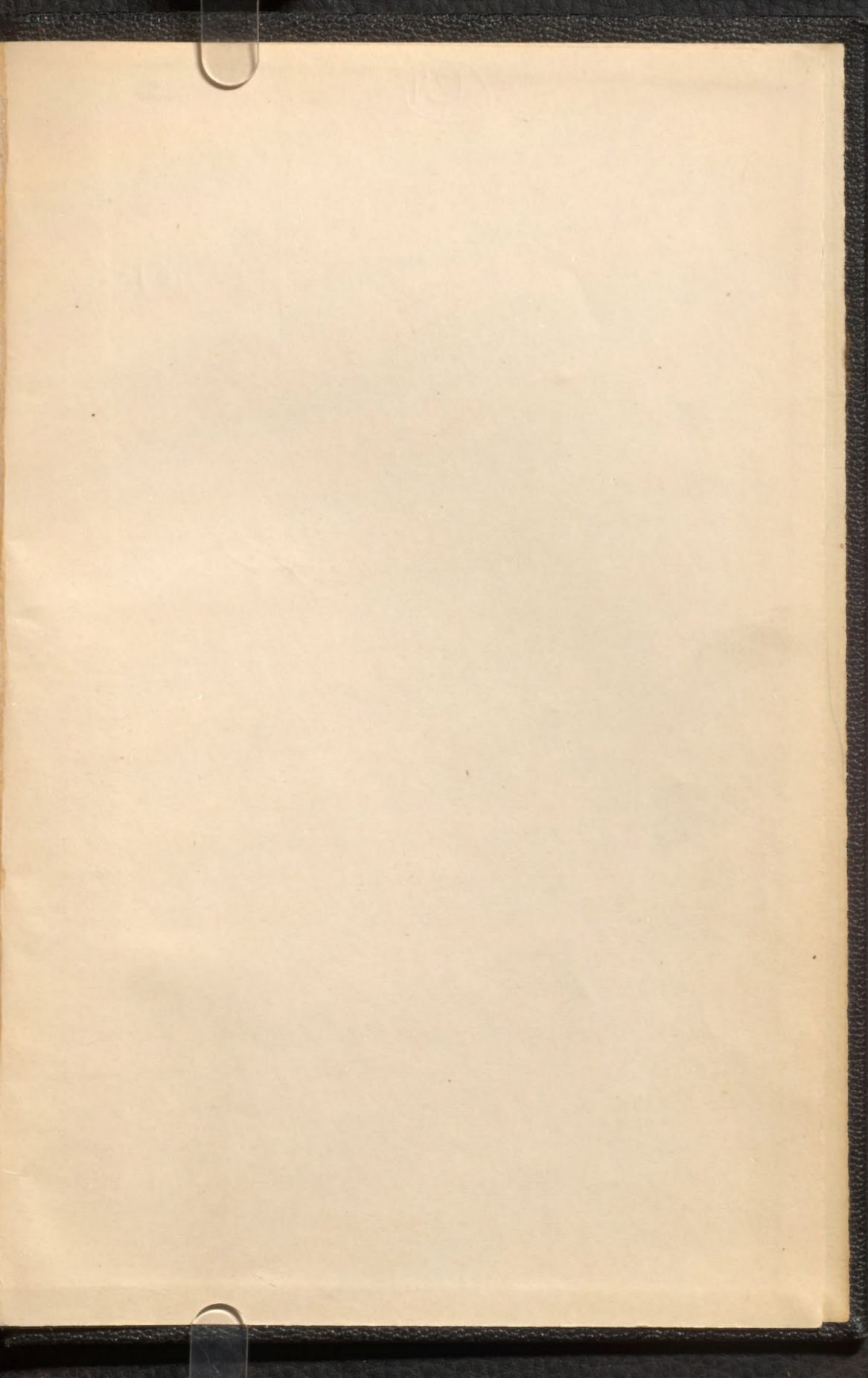


\* ISLAM-OCTAVO 158

4067069  
MCGILL LIBRARY

134







# امير لبنان

## الفصل الاول

### النصح بالاخلاص

هضاب لبنان آكام يعلو بعضها بعضاً من ساحل بحر الروم الى قنن صنين مرتفعة على طول البلاد من طرابلس الشام الى ساحل صيدا . رصعتها القرى والساكن ووشتها حراج الصنوبر والبلوط وتحلتها اودية وفجوات تنساب فيها الجداول والغدران وقد قامت على جوانبها الحدائق والبساتين من التوت والزيتون والتين والمان . ودُيبت ارضها بطرائق الديباج من النرجس والخزام والافحوان . بلاد المروّة والضيافة والشهامة والعفاف . مضى على سكانها دهور طوال وهم يغرسون كرومهم ويحنون ثمارهم ويذودون عن ذمارهم بالبيض الصفاح . جانبهم عزيز وحزهم حريز . يرثيهم الغزاة من مصر وبابل واليونان والرومان كالطيور القواطع تلتهم ما تراه وتغادر البلاد واهلها فيعودون الى زرعهم وضرعهم يغرسون البساتين ويزرعون الحقول ويسومون القطعان وينون البيوت ويشيدون القصور امنين ناعمي البال الى ان ينتابهم غاز آخر كما تنتاب الاوثة البلدان فيظاهرونه او يشاغبونهُ حسب مقتضى الحال لما كثر مرور الغزاة في بلاد الساحل بين بيروت ولبنان انحدر الامراء آل ارسلان من الشوف الى الغرب ونزلوا قرى تطل على طريقهم لاستكشافها فسميت الشويفات وبنوا فيها دورهم حيث ضافهم سلطان دمشق الملك المؤيد الحمودي الخاصكي منذ خمس مئة عام ونزل على الامير سيف الدين ثلاثة ايام

في دار من هذه الدور وقف الامير احمد صباح يوم من اواخر عام ١٨٥٩ وقف في رواق يطل على بحر الروم وغابة الزيتون المعروفة بصخراء الشويفات . وكانت سفن الصيادين قد خرجت من بيروت للصيد ونشرت شراعها لتسيم الصبا وقد هب صباحاً من البر الى البحر قبل اشتداد الهجير فجازت خلدة وشقت صدر الماء فارغى وازبد . ونشرت الغزاة اشعثها



على الرمال بين الصحراء والبحر فعصفتها وعبثت بما تجمع على اوراق الزيتون من ندى الليل  
فطار ضباباً لطيفاً كانفاس المحبين

وقف الامير هنيئة يقلب طرفه في ما يراه من جمال الطبيعة ويستنشق نسيم الصباح  
و يصغي الى تغريد الطيور وهم بالخروج للصيد ثم عاد الى التفكير في كتاب ورد عليه في الليل  
الفائت من الكولونل روز قنصل انكلترا في بيروت وقال في نفسه لامر دعائي القنصل اليه  
ولا بد من تلبية دعوته . ولم يستغرب دعوة القنصل له وتخصيصه اياه دون ابناء عمه لانه  
كان يعتمد عليه بعد ابيه والكتاب ليس من القنصل نفسه بل من ترجمانه . ثم دخل غرفته  
وافتقد الكتاب وقرأه ثانية فاذا هو يقول فيه

”الجناب الاكرم والملاذ الاغنى الامير احمد ارسلان المحترم دام بقاءه

بعد اداء واجب الخية والاكرام اعرض ان سعادة القنصل امرني لكي اكتب اليكم  
ادعوكم الى دار القنصلية غدأ صباحاً للذاكرة في بعض الشؤون الهامة والمرجو تشریفكم في الوقت  
المعین وادام الله بقاءكم“

فقال في نفسه ما هذه الامور الهامة يا ترى ولماذا لم يكتب القنصل نفسه الي بالفرنسوية  
او يظن اني اكون آلة في يده كما كان المرحوم والذي تلك ايام مضت ولن تعود . نعم ان  
انكلترا وفرنسا ساعدتا دولتنا على الروس في حرب القرم ولكن تلك المساعدة لا تقضي علينا  
بالاستعباد وليس من صواب الرأي ان نجاري خورشيد باشا في ما طلبه ولكن لا يليق بنا  
ان نستमित الى هذا الحد

ثم نظر الى ساعته ونادى مسروراً عبده وامره ان يشد على جواده ولبس ثيابه بذلة  
من الجوخ الكحلي وطباقاً مزركشاً بالقصب وثقله سيفه وهو لجهده الاعلى الامير جمال الدين  
قلده به السلطان سليم الفاتح في مدينة دمشق يوم دخلها ظافراً . وتكّب قرينة صنعت لايه  
في بيت شباب صنعها له اولاد تفاع من فضلات نعال الخيل المطرقة فجاءت مجوهره  
كالسيوف الدمشقية يطلق بها عشرين حواشة معاً فتنتطلق منها كالدفع الرشاش ولا يستطيع  
اطلاقها الا من كان ساعده من الحديد مثل ساعده . والتي على كتفيه برنسا ايض من نسج  
دمشق ثم اعلى صهوة جواده ووضع فردين صغيرين في قروصه وهما هدية لايه من ابراهيم  
باشا اهداهما اليه قبل واقعة اللجاة . وسار وامامه عبده مسرور وسالم وهما بالعدة الكاملة  
مع كل منهما يطقان وزوج طبنجات وبندقية نظامية ابرهيمية من البنادق التي القتها جنود  
ابراهيم باشا وهي عائدة الى مصر . فر في طريق متعرج بين البيوت والحوانيت وكانت نساء



القرية ذاهبات يستقين وجرارهن على اكتافهن او رؤوسهن والبراقع مسدولة على وجوههن لا يبين منها الا عين واحدة يكشفنها لينظرون طريقهن . فلما دنا منهم وقفن كاسرات الطرف هيبة ووقارا وكذلك كان الرجال يقفون في حوانيتهم ويضعون اكفهم على صدورهم ويحيونهم وسار من تحت كفرشما والحدث الى الشياح والناس ينظرون اليه شزرا لان قلوبهم كانت موعرة بالاحقاد . ومر في حراج يبزوت وكان الهجير قد اشتد وعلا صوت الصراصير فوقف هنيهة في ظل صنوبرية كبيرة مما بقي من الصنوبر الذي غرسه الامير نحر الدين المعني وهي منتصبة بين الاشجار التي غرسها ابراهيم باشا كالجبار بين الاطفال حتى اذا كثر رفس الجواد من كثرة الذباب استأنف السير ومر في طريق الميدان فالباشورة . وعرف اصحاب الحوانيت انه من امراء الجبل من قيافته وعدته لكنهم لم ينهضوا للسلام عليه لا اعتقادهم ان اهالي لبنان فلاحون كلهم حتى امراؤهم ولو كانوا من نسل الملوك . ولا هو بادأهم بالسلام اتقه وعنوا . ودار من عند السور ( عصور ) وصعد في طريق المصيطبة الى بيت الكولونل روز قنصل الانكليز الجنرال فبادر اليه قواسان كانا واقفين عند الباب وامسكا بركاب جواده فنزل عنه ونفج كلا منهما بريال ودخل غرفة كبيرة كواها تطل على حديقة غناء نسقت فيها اشجار البرنقال والتفاح والمان وانواع الورد والياسمين وكانت الغرفة مفروشة بالبسط الفارسية وفيها مقاعد مكسوة بالحرير المطرز من نسج دير القمر ومكتب كبير من خشب الجوز مطعم بعرق اللؤلؤ من عمل دمشق وكرامي انكليزية كبيرة مكسوة بالجلد البني امامها موائد صغيرة . فلاقاه القنصل الى الباب ورحب به ثم اتي بالقهوة ودار الحديث بينهما على شؤون الجبل وثورة الخواطر فيه فشكا الامير من ان نصارى المتن والعرقوب وزحلة ودير القمر قد اكثروا من ابتياع الاسلحة ولا عمل لهم الا سبك الرصاص ولف الفسك فلا عجب اذا فعل دروز الشوفين فعلهم . قال وبلغني ان كسروان كلها متحفزة للثورة وان يوسف بك كرم قابل قنصل فرنسا فشد القنصل ازره واكد له ان فرنسا لا تخطي عن الموارنة بوجه من الوجوه . فقال القنصل ولكن بلغني ان خورشيد باشا قال لكم مثل ما قال قنصل فرنسا ليوسف بك . فقال الامير اما انا فلم اقابل خورشيد باشا . فقال القنصل نعم لم تقابله انت ولكن قابله جماعة من بيت عماد وبيت نكد ومضى اثنان منهم الى خلوات البياضة لهذا الغرض وقد استدعيتك الآن لكي احذرك من عواقب الثورة فانه اذا استفحل الخطب فلا يبعد ان تحتل بلادكم دولة اجنبية وهذا لا نرضاه لكم ولا للدولة العثمانية وامس كان عندي سعيد بك فاخبرته بما اخبرتك به الآن وليس الخوف من عقاكم بل الخوف من جهالكم وانا اعلم



شدة طاعتهم للعقال ولكن ما كل وقت يكون العقال على يقظة من امرهم  
وطالت المذاكرة نحو ساعتين حتى اذا حان وقت الغداء دعا القنصل الامير للغداء معه  
وتغدى معها شاب انكليزي اسمه السر هنري بدمونت في غرفة مجاورة لغرفة الاستقبال وجلسوا  
بعد الغداء يدخنون التبغ ويشربون القهوة ويتكلمون في مصالح الجبل وتاريخ امرائه وسبب  
الخلاف بين اليزبكية والجانبلاطية وبين النصاري والدروز الى غير ذلك مما يهتم به قناصل  
الانكليز خاصة وكان كلامهم بالفرنسوية . وقد سر السر هنري بمحديث الامير احمد وطلب  
اليه ان يسمح له بزيارته في داره بالشويقات فقال حياء وكرامة وان سمحت فاني آتي بنفسي  
واذهب بك . فقال السر هنري اني لا اكلفك الى ذلك وسازورك بعد غد مع احد قواسم  
القنصلية . ثم استأذن الامير احمد في الانصراف فودعه الكولونل روز والسر هنري بدمونت  
الى باب القنصلية

ومر وهو راجع في طريقه ببيت رجل اسمه الشيخ درويش ويكنى بابي نغر . وكان هذا  
الرجل قد رآه ذاهباً الى دار القنصل فجلس في رواق بيته ينتظر عودته حتى اذا مر به قام  
للقائه ودعاه لينزل ويشرب القهوة . واعذر الامير عن النزول بفوات الوقت فقال له انزلت  
فان المرحوم والدك كان يشرفنا كلما نزل الى بيروت وبيتنا مستعد لقبول الزوار وامس شرفنا  
الوالي والسرعسكر . وما زال به حتى ترجل وصعد معه الى رواق كبير يطل على الطريق  
فلما جلس قال له الشيخ درويش يا سبحان الله انك جلست على الكرسي الذي كان يجلس  
عليه المرحوم والدك وهو الكرسي الذي يجلس عليه دولة الوالي كلما زارنا هات اخبرني اين  
كنت ولا تخف عني شيئاً فان المرحوم والدك كان يطلعي على كل اخباره واسراره وقد كان  
ابي صديقاً له واوصاني لا كون صديقاً لك قل لي اين كنت . فقال الامير كنت في بيت  
الكولونل روز لشغل خصوصي

فقال الشيخ اي نعم لشغل خصوصي اسمع يا ابني ولا تملك الا جانب منك ولا تحد عن  
خطة ابيك رحمه الله ولماذا لم تذهب الى بيت الوالي مثل سائر مناصب الجبل  
فقال الامير اني ذاهب اليه

فقال الشيخ احسنت احسنت وتفضل خذ القهوة . انظر ما اجل هذه الفناجين فانها من  
الصيني الحر اشتراها المرحوم والدي من دمشق الشام كل فنجان بعشرة فندقيات اذا رميته  
على الارض لا ينكسر والظروف من صياغة اسطنبول فضة روباخ وذهب بندي والمرجان  
من اعلى طبقة . الظروف اشتريتها انا من اسطنبول اخذتها من الدلال بثمن بخس بالنسبة



الى ثمنها الاصلي كانت لازميرلي باشا الصدر السابق وييعت مع بعض التحف بعد ما قتل .  
ما اكثر ثقلبات الدهر يقال انها كانت للسلطان مصطفى . نعم كانت للسلطان مصطفى فاهداها  
الى ازميرلي باشا اما انا فاشتريتها بمالي . كل ما عندي اشتريته بمالي لاني اكره المهاداة  
فان الهدية بلية على ما يقال فانت الآن تشرب القهوة في فجان من الصين وظرف كان يشرب  
منه السلطان مصطفى غفر الله له

وكان الامير احمد يعرف هذا الرجل وجبه للفخر والمباهاة ولذلك لقب ابا نخر فلم يسؤه  
كلامه لكنه ودّ تقصير الزيارة على قدر الامكان فلم يكذب يشرب القهوة حتى نهض وقال  
تعذر في الآن يا ابا نخر لان لا بدّ لي من رؤية دولة الوالي

فقال احسنت وان اردت فانا اذهب معك اليه ولكن قد حانت صلاة العصر ولا بدّ لي  
من الذهاب الى الجامع لاني لا اترك الصلاة مطلقاً فلي الطائر الميمون

فودعه الامير بعد ان طلب اليه ان يشرفه الى الشويقات وركب جواده وسار الى دار  
الولاية واقام مع الوالي نصف ساعة دار فيها الحديث على شؤون الجبل وكان الوالي  
يتودّد اليه على خلاف عادته وقال له انتم سيف الدولة ولا غني لنا عنكم ولا غرض لنا الا  
استتباب الامن في البلاد وكف يد الاجانب عنها ولا بدّ للدولة من ذلك مهما كلفها  
ونصيحي لك ان تكون في خاطرها مثل ابناء عمك

فقال الامير نحن لا نخرج عن خاطر الدولة لان طاعتها فرض علينا ولكن يا حبذا لو  
فضّت هذه المشاكل من غير حرب اهلية

فقال الوالي هذا الذي نوده ولكن اذا كان لا بدّ من الحرب الاهلية فالدولة لا تتغاضى  
عنكم لانها لا تترك الحزب القوي ليفتك بالضعيف وقد ابنت رأيي بالاسهاب لشيوخ العقل  
ولا بدّ من ان يجمعكم ويسطه لكم ولا اخفي عليك ان ترددك على القنصل لا يرضينا  
فقال الامير كيف ذلك والذي اعلمه ان دولة الانكليز من اشد الدول صداقة لدولتنا العلية  
فقال الوالي نعم هي كذلك ولكن ليس كل رجالها على رأي واحد

قال ذلك وصمت فعرف الامير ان مدة الزيارة انقضت فقام وودع فوقف له الوالي  
وشيعه الى باب الغرفة التي استقبله فيها على خلاف عادته . وكان هذا الحديث باللغة  
التركية لان الامير احمد تعلمها لما كان في الاستانة مع ابيه وهو يحسن التكلم بها كما يحسن  
التكلم بالفرنسوية وكان العصر قد اذن فركب جواده وعبداه معه وسار راجعاً الى الشويقات  
في الطريق الذي جاء فيه . وكان يفكر في كلام القنصل المسهب وكلام الوالي الموجز



واحوال الجبل وما يمكن ان تأول اليه اذا نسبت فيه حرب اهلية تسفك فيها الدماء وتحرق البيوت . وراجع ما كان من نتائج الحروب الاهلية السابقة وكلها ضعف على ضعف وذل على ذل فقال لا بد لي من اتباع نصيحة القنصل وحمل ابناء عمي على اتباعها . ووصل الى نهر الغدير وهو تائه في فيافي الافكار وحانت منه التفاتة فرأى نسوة جالسات وراء مطخنة تخفق فؤاده وعض ظرفه وظل سائرا

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب وانتشر ذهب الاصيل على ربي لبنان والبس الافق طرازا مملئا من البرفير والارجوان

### الفصل الثاني

#### بارقة الامل

في احوال الناس سرٌ غامض لا ينطبق على قاعدة معلومة وهو الاتفاقات الكثيرة التي تقع على غير انتظار . يخطر على بالك رجل لم تره منذ سنين كثيرة وفي الساعة التي يخطر على بالك فيها تراه آتيا لزيارتك كأن قوة روحية تقدمته ووصلت اليك فأعلمتك بقدمه وتفتش عن عبارة قرأتها في كتاب فتقع عينك عليها حالما تفتج الكتاب وقد تفتش عنها مرة أخرى فلا تجدها إلا بعد العناء الطويل فكيف اتفق ان عثرت عليها في المرة الاولى وينشغل بالك بامر هام وترتبك فيه ولا ترى وجهاً لجله ثم تقابل احد اصدقائك اتفاقاً او رجلاً لا تعرفه ولم تره قبلاً فتجد عنده حل للمشكل والخبر اليقين كأنه سخر لخدمتك وقت حاجتك اليه

على هذا النمط كان الامير احمد في نظر السرهنري بدمونت فلم يكذب يخرج من دار القنصلية حتى دخل السرهنري مكتبه وعاد الى اتمام الكتاب الذي شرع في كتابته الى امه ذاكراً فيه خلاصة ما جرى له يوماً بعد يوم من حين وصوله الى بيروت . وكان قد اخبر امه عن كل ما رآه وسمعه من حين قدومه وعن درسه جغرافية البلاد من بيروت الى صيدا وتعيينه مكان الواقعة التي جرح فيها جدّه الاعلى كونت بدمونت لما اوفده ملك الانكليز الملقب بقلب الاسد لفتح بيروت فقد عين مكان الواقعة بالندقيق وكانت تقاليد عائلته تجعلها قرب نهر الدامور المعروف عند الاقدمين باسم تاميراس او داموراس حيث حدثت المعركة الدموية المشهورة بين انطيوخس ملك سورية ونيقولاوس قائد الجيوش المصرية فدارت الدائرة



على الجنود المصرية وقتل منها الف رجل وأخذ الف أسير وعادت فلوطا الى صيدا وذلك قبل التاريخ المسيحي بنحو ٢١٨ سنة . لكنه وجد ان شكل الارض هناك لا ينطبق على الوصف الذي وصفها به ولف خادم جده بل ينطبق على جهات خلدة حيث تكثر نواويس الحجر التي ذكرها ولف في وصفه ولا عبرة بما جاء في دليل اورشليم من ان خلدة على اثني عشر ميلاً رومانياً عن بيروت لان الاسم القديم وهو هلدوى ينطبق على الاسم الجديد فالواقعة حدثت قرب خلدة وجدته لجأ الى كهف من الكهوف التي قرب الشويفات ولا بد من ان تكون رفاته هناك حتى الآن لان خادمة ولف سد باب الكهف الداخلي عليه بعد ان لفه بردائه ولما قابل السر هنري الامير احمد وعرف انه من اصراء الشويفات شعر كأن بارقة من الامل بدت امام عينيه ثم لما علم انه من طائفة الدروز اصحاب الطريقة السرية الخاصة بهم كادت نفسه تطير جواراً وجعل يسترق اللحظ ويتفرس في وجهه . وكان الكولونل روز يعلم انه مغرم بالمباحث التاريخية والآثرية فاشار الى عائلة الامير وقال للسر هنري لا يبعد ان يكون جدك كونت بدمونت قد التقى بجد الامير منذ سبع مئة سنة في ضواحي هذه المدينة وقد يكون بينكما ثارات واخاف ان تنقاضيها الآن

فتبسم السر هنري وقال اما الآن فاننا في جوار الامير والعرب يرعون الجوار ويحمون الجار . فقال الامير بل انا في حماكم وضيف عليكم

فقال الكولونل ان السر هنري جاء هذه البلاد للتفتيش عن رفات جده لانه توفي فيها على قول خادمة بعد ان قتل اكثر رجاله واسر من بقي منهم حياً وارجو ان تبذل جهدك لكي ينال بغيته

فقال الامير حباً وكرامة اني من الساعة في خدمته باذل جهدي في تحقيق بغيته فشكره السر هنري على مروءته وكرم اخلاقه واتفق معه على ان يزوره بعد يومين ليريه ما حول الشويفات من الكهوف القديمة

وذكر السر هنري هذه الامور كلها لامي وهو يعجب من هذا الاتفاق الغريب ويقول اني موثق باذن الله الى ان قال لها : — فاذا عدت ومعني الوثيقة وختم قلب الاسد عليها فلا يبقى لي منازع في كونتية بدمونت ولا يبقى اعتراض لافلين ولا لامها . او اه يا اماء لو تعلمين كم اقامسي من هذا البعاد وقد آليت على نفسي ان لا اكتب الى اقلين حتى اجد الوثيقة . قال ولف انها من الفضة وعليها ختم قلب الاسد وانه وضعها على صدر سيده لما لفه بردائه هذا هو اخبر المسلسل في تاريخ العائلة وان باب المغارة الى جهة الشمال الغربي وقد سدها من



الداخل على اسلوب يظهر منه ان نهايتها هناك لا بد وان اهتمدي اليها ان شاء الله . وهذا الامير شاب في نحو الرابعة والعشرين تلوح على وجهه لوائح الشهامة وعزة النفس وهو يحسن الفرنسية ولا بد من انه يحسن لغته العربية والكتولون روز يكرمه كثيراً وقال لي ان اباه كان من اخلص الناس لنا لكنه يخشى ان لا يكون مثل ابيه لان الذين علموه اللغة الفرنسية اثروا في ذهنه فضلاً عن ان اللغة وادابها تكفي لهذا التأثير . ولا ادري لماذا لا يسعى رجالنا في نشر اللغة الانكليزية وتعليمها لابناء الامراء والعظماء كما يسعى الفرنسيون في نشر لغتهم فاننا اذا فعلنا استفدنا تجارة وسياسة . وقد رأيت كثيرين هنا يتكلمون الفرنسية والاطالية ولم ار احداً يتكلم الانكليزية من ابناء البلاد غير اثنين او ثلاثة ولا احد يهتم بتعليم اللغة الانكليزية غير بعض المرسلين الاميركيين . وسأزور الامير بعد غد واكتب اليك عن زيارتي له بالتفصيل . ثم فصل لها كيفية سفره من الاستانة العلية الى بيروت لكنه لم يذكر لها شيئاً عن المهمة السياسية التي جاء لاجلها

وكانت الباخرة الفرنسية على اية السفر فطوى الكتاب وارسله مع مكاتيب القنصلية وركب هو والقنصل جوادين وخرجا للنزهة على رمل بيروت الى ان بلغا البحر ورأيا غروب الشمس وقد امتدت اصابع الشفق حتى بلغت الافق الشرقي وهو منظر بدیع قرأ عنه في الكتب ولكنه لم يره قبل الآن فقال ما اجمل هذا المنظر وما ابدعه للتصوير اين مصورو الطبيعة يأتون هذه البلاد فيرون فيها كل يوم منظرًا بدیعاً تعجز الوانهم عن تصويره

فقال القنصل نعم هي كما تقول وفوق ما تقول ومتى جاء فصل الربيع نتمتعها تعشقاً وما هضاب اسكتلندا وجبال سويسرا شيئاً مذكوراً في جنب جبال لبنان وهضابها ولكن النظر كيف صار افرع اجرد من توالي المحن وهذه المدينة التي كانت من اعظم المدائن الرومانية تكاد اعلامها تدرس ولولا الاصلاح القليل الذي نالها في زمن الدولة المصرية لصارت اثراً بعد عين . اين ارز لبنان وبلوط باشان اين المعافل والمصانع لا ترى مكانها غير اديرة الرهبان ومزارع الفلاحين . اما دور الامراء والمشايخ فلا تذكر في جنب ما كانت عليه قصور الامراء في سالف الزمن . اين المدارس والمشاهد التي كانت بيروت غاصة بها في عهد الرومان لم يبق منها غير بعض الاعمدة الكبيرة مبشوة بين الخرائب والانتقاض دالة على عظمة السالفة

فقال السرهري أو تبقى الحال على هذا المتوال

فقال القنصل كلاً لان دوام الحال من المحال فان لم تفلح مساعيها احلت فرنسا البلاد كما تعلم وان افلحت فلا بد لنا من وضع حد لسوء الادارة



## الفصل الثالث

## الغداء على الغدير

الى الشمال الشرقي من الشويفات قرية كبيرة تفضلها في غزارة مائها وكثرة بسايتها ولو قلت عنها في عدد سكانها ونخامة مبانيها وهي قرية كفرشيا او قرية الفضة . نزها الامراء الشهابيون من قديم الزمان كما نزل الارسلانيون الشويفات . وبنى الشهابيون الدور الكبيرة واعنوا بغرس الجنائن والبساتين فيها وفي ما جاورها من رياض الغدير وهو نهر شتوي يفيض في الشتاء حتى يعلم على الرى ويجف في الصيف حتى لا تبقى فيه نقطة ماء

في دار من دور كفرشيا امير من آل شهاب اسمه الامير عباس لم ينتصر مع اخوته وابناء عمه بل بقي على الاسلام مثل اقاربه في حاصبيا ووادي التيم وكان عنده خطيب يصلي وراءه لكنه كان سمحاً لا يجادل اخوانه الا بالتي هي احسن ولا منع زوجته واولاده من التنصر بل كانت زوجته شديدة التمسك بالنصرانية والاكرام لقسوسها . وكثيراً ما قصده مطران بيروت وتجادلا طويلاً ثم انتهى الجدل بينهما بقوله لكم دينكم ولي ديني فترك ان الجدل ويعودان الى وصف الدخان الجيلي والشقيفي فان المطران كان مولعاً بالاول والامير بالثاني وكانا كلاهما مغرمين بالسعوط ومع المطران حقة مرصعة بالماس اهدتها اليه الامبراطورة اوجيني زوجة الامبراطور نپوليون الثالث لما زارها في فرنسا فلم يكن يسعه الا استنشاق السعوط منها من وقت الى آخر وتقديمها الى الامير حتى يرى حجارة الماس على غطاها والامير يقدم له حقة سوداء سادجة من صنع الصين لكن حلة شبق كانت من الكبرياء وتحتمها حلقات من الجزع والعقيق مرصعة بالذهب . والشبق نفسه قضيب طويل من الورد الاخضر يقطعه ويثقبه يده وقد غرس ورداً كثيراً في حديقة داره لهذه الغاية فلا تلبث القصة في يده يومين حتى يبدلها بغيرها قبلما تجف

وكان للامير عباس ابنان وابنة اسمها سلى وفي اليوم الذي مضى فيه الامير احمد ارسلان الى بيروت لمقابلة الكولونل روز قامت الاميرة سلى وطالبت امها بوعدها وهو النزول الى الغدير للتنزه وتناول الغداء هناك لان مطرا الخريف كان قد كسا الارض بساطاً سندسياً وظهر زهر العصفور فندبجه بطراز معلّم . فنادت امها جارية اسمها زهرة وقالت لها قولي لمرجان اننا نازلان الى الغدير وقولي للغزندان ان يرسل غداًنا الى هناك ويدعوا يوسف لتوافينا اليه . وارسلت سلى الى صفا ابنة عمها تدعوها الى التنزه معها . ثم ركبت



الاميرة هند وابنتها وابنة سلفها خيولاً عربية مطهمة لتتأدى بما عليها من الحلى وزنان الى الغدير ونزل معهنّ مرجان ويدهم نارجيله جوزتها من الباور المطرّش وقلبها من الفضة والذهب وقد علّق على جنبه كيس التبنك من الخمل الاحمر المزركش بالقصب ونزلت زهرة ومعها طاس من الفضة وجارية اخرى بطاس آخر وخادم يحمل سجادتين وساروا الهويّنا وقد تكبدت الشمس السماء فلم يصلوا الى الغدير الا قبيل الظهر . ثم تبعهم بعض الخدم والحشم ومعهم ما طهاه الطهارة من فاخر الطعام وسلتان من العنب والليمون . فشدوا سباطاً للاميرات ووقفت الجواري في خدمتهنّ حتى اذا اكتفين من الطعام واكفن الحلوى والفاكهة اتكأن يتطارحن الحديث . وكانت ام يوسف من افكه نساء القرية حديثاً واوسعن رواية فلا يطيب للشهايات عيش بدونها فيدعونها من بيت الى بيت ولا يخرجنّ للنزهة الا وهي معهنّ تطرفنّ بالا حادّث الخلفه بعضها صحيح وبعضها مخنلق او مزوّق فحدثنّ تلك الساعة عن اعمال السحر والتعزيم التي كان يعملها الشيخ بشير تلحوق وكان من اعلم اهل زمانه وامهرهم وادهاهم . وما قصته عنه انه كان يضع ابريقاً بين رجلين ويثلو عليه بعض الآيات من القرآن والزبور فيدور الابريق من جهة الى اخرى من تلقاء نفسه بقوة السحر وانه كان يوقف عصاه فتقف ثم يأمرها فتدور امام الجلوس من امام واحد الى امام آخر من غير ان يلمسها احد . ويضع ابريقين في زاويتين من زوايا الغرفة واحداً ملائناً والاخر فارغاً ثم يثلو بعض الآيات فينتقل الابريق الفارغ من مكانه ويسير الى مكان الابريق الملائن ويسير الابريق الملائن من مكانه الى مكان الابريق الفارغ هذا والناس ينظرون ولعجبون ولا يشكّون انه يفعل ذلك بقوة سحرية . ويضع بيضة في اناء ويسلقها فتنب من الماء الغالي من نفسها وتبعد عنه . واعجب من ذلك قدرته على شفاء المجانين من جنونهم لكنه لا يستطيع ذلك ما لم يقفل باب غرفته عليه ويبقى فيها عشرة ايام او اكثر صائماً جاهداً واخيراً يأتيه ملك الجن ويقول له اطلب ما تريد فيقول الشيخ ان فلاناً اصيب بالجنون واطلب منك ان تساعدني على شفائه فيقول له ملك الجن لبيك وسعديك قد اجيب طلبك . ولما تورّمت امرأة الشيخ احمد تلحوق حتى ظنّ انها حامل وطال الزمن عليها ولم تلد ولا شفيت من الورم امرّ الشيخ بشير يده عليها فشفيت للحال وزال الورم كله واُتي اليه بالشيخ يوسف تلحوق وهو مجنون جنوناً مطبقاً فابقاه عنده يومين ثم ارجعه الى بيته صحيح الجسم والعقل

وكانت كلما اوردت قصة من هذه القصص تستشهد علي صحتها باسماء كثيرين من الرجال المعروفين في البلاد حتى لم تبق شبهة في نفس الاميرة هند وابنة سلفها ان كل ما كان الشيخ



بشير يفعله هو من قبيل السحر الحقيقي اما الاميرة سلى فقالت ان كان الشيخ بشير ماهراً الى هذا الحد فلماذا لا يستعمل سحره في ما ينفعه وينفع ابناء عمه وانا لو كنت مكانه اقدر ان استخدم الجن لجعلتهم يملكونني الدنيا

فصَلَّتْ امها على وجهها وقالت اسكتي ولا تتكلمي بهذا الكلام من منا يشكر الجن لم يستخضرم عمك مرة ولما رآهم ملاً وا المكان الذي كان فيه وضاق بهم ذرعاً وهم يرقصون حوله لم ير سبيلاً لصرفهم عنه الا بان امرهم ليذهبوا وينقبوا له الارض التي فوق نهر بيروت فذهبوا ونقبوها كلها في ساعتين من الزمان ولكنهم جعلوا جلالها ممتدة عرضاً من اعلى الى اسفل فلا تصلح للزرع ولا لشيء ثم عادوا اليه يطلبون عملاً يعملونه له فخار في امره واخيراً التفت الى ما حوله فرأى بلاساً اسود فقال لم خذوه واغسلوه لي حتى يصير ابيض فوضوا به يغسلونه وحتى الآن لم يعودوا ولولا هذه الحيلة لخطفوا روحه

فصادقت ام يوسف على كلامها وقصّت عليهن قصة القديسة هندية التي كان ملك الجان يأتيها ليلاً في شكل تيس من المعزى فتركب عليه وتذهب به الى بلاد الصين وتعود منها بالحرير تدفعه الى الخواجه جاماتي وتذهب وترجع في ليلة واحدة من غير ان يشعر بها احد. قالت وقد اغنني الخواجه جاماتي من الحرير الذي جلبته له من بلاد الصين وها داره امامنا على قمة سبنيه ولولا ذلك ما استطاع رجل فلاح ان يبني داراً مثل دور الامراء فقالت الاميرة سلى سمعت ابي يقول ان الجاماتي كان يدين الامراء ويستد الحرير منهم بثن بخس ثم يبيعه لتجار الافرنج بثن غال وهذا سبب غناه

فقالت لما امها من اين عرف ابوك ذلك والجاماتي نفسه يقول ان الحرير يأتيه من الصين فقالت الاميرة صفا الحق مع سلى وانا سمعت ان ميخائيل طوييا صار اغني من قارون من مشواره الحرير من الامراء والفلاحين بثن بخس ويبيعه لتجار الافرنج في مرسيليا

فقالت ام يوسف انا لم اسمع ان ميخائيل طوييا استخدم الجن مثل الجاماتي ولكن لا احد ينكر السحر واستخدام اللعين خزاه الله. ثم قصت قصة رجل اراد آخر ان يقتله غيلة فاتي احد السحرة وكتب له كتابة سحرية على قطعة من الشحم ومضى وعلقها في مغارة عميقة فجعلت الكتابة السحرية تذيب الشحم رويداً رويداً وكلما ذاب منه شيء نخل جسم الرجل حتى كاد يموت سلاً وعجز الاطباء عن شفائه واخيراً استشاروا له احد السحرة فعرف بسحر امر الشحمة ففتشوا عنها حتى وجدوها ونزعوا الكتابة عنها فلمل الرجل من الموت ثم شفي ولولا ذلك لمات لا محالة



فقلت سلمي اذا كان الامر كذلك فلماذا لا يستعين الولاة بالسحر على التخلص من اعدائهم بدل المخاطرة بانفسهم ورجالهم . انا لا اصدق شيئاً من ذلك

فقلت ام يوسف هالك قصة جرت للمرحوم ابي يوسف بالقرب من المكان الذي نحن فيه الآن . كان ذات ليلة راجعاً من بيروت وكان القمر بدرًا فلما وصل الى الوروار سمع غناء وزغردة فظن ان على الطريق اناساً آتين بعروس ثم لما قرب من المحطة علا الصوت كثيراً وانه أربعة اولاد وهم يصقون ويغنون ويقولون يا ابا يوسف يا ابا يوسف تعال انظر العروس فار معهم رغماً عنه حتى اذا وصل الى قرب الماء رأى عروساً مجاورةً وحولها جمهور غفير من الرجال والنساء وهم بالحلي والحلل فقبضوا عليه وقالوا له هلم نكتب الكتاب فصأب يده على وجهه فانشققت الارض وابتلعت العروس وكل الذين كانوا معها . ولما قالت ام يوسف ذلك ارتجفت مفاصل الاميرة هند والاميرة صفا واما سلمي فقلت ان معلمي قصّ عليّ قصة من هذا القبيل وهي انه كان سائرًا مرة في طريق لم يسرف فيه من قبل فوصل الى بئر سمع صوتاً خارجاً منها فاطلّ واذا في قعر البئر نساء يستقين ماء فلم يشكّ انهنّ من الجن فاسرع العدو ولما اتمّ غرضه من المكان الذي كان ذاهباً اليه خاف ان يعود في الطريق الذي ذهب فيه فعاد في طريق آخر يمرّ من تحت البئر وكان هناك درج يوصل الى اسفل البئر والنساء ينزلن به ويستقين من الماء فلم يمرّ في ذلك الطريق لاعنقد انه رأى نساء الجن في البئر

فقلت لها امها لا يمكننا الا التصديق بوجود الجن وابولكر يصدق بوجودهم والمطران ايضاً وكل احد يصدق بوجودهم وهم الذين رجوا بيت خالك بالحجارة فقد فتشنا عن الراجمين كل مكان ولم نر احداً . وقالت الاميرة صفا دعونا من هذا الحديث فقد صرت اخاف من خيالي ولا يمكنني ان انام وحدي الليلة

وقصّت ام يوسف عليهنّ قصصاً اخرى مضحكة فاطربتهنّ بعد ان خوّفتهنّ بقصص السحر والجن ففضي النهار ومالت الشمس الى المغيب وهن لا يشعرن . ولما مرّ الامير احمد والتفت اليهنّ ثم غضّ طرفه نظرت ام يوسف الى الاميرة صفا ثم نظرت كلتاها الى الاميرة سلمي فرأتاها قد احمرت واطرقت الى الارض فتغامزتا ولم تقولوا شيئاً . وكان العبيد قد اتوهنّ بالخليل فركبن وعدن الى بيوتهنّ

ودخلت الاميرة هند غرفة ابنتها في المساء وقالت لها اين كان احمد يا تري الظاهر انه لم ينظرنا ألم تغيري فكرك من جهته نقول خالك ان عمه واولاد عمه يحسونه رئيس العائلة وركنها



فقلت سلى نعم ولكنه درزي وفوق ذلك فانا لا اميل اليه مهما كان  
فقلت امها وابوك لا يرضى بمجيد لانه شاب خليع  
فقلت سلى ومن قال اني اريده . انا لا اريد احداً ولا اريد ان افارك وافارق ابني

### الفصل الرابع

#### ما وراء الستار

في دار نخيعة من دور الاستانة العلية التي تطل على البسفور اجتمع جماعة من وكلاء  
الدولة وكبار العلماء . اتوها خفية الواحد بعد الآخر واوصدوا الابواب وجلسوا ينظرون في  
احوال السلطنة وما آلت اليه من الضعف وجعل كل منهم يقص القصص المختلفة عن  
احوال البلاد التي له فيها اصدقاء يكاتبونه منها او التي كان مأموراً فيها . وبعد ان نظروا  
في الداء ملياً في قلة موارد الخزينة وفي ما آلت اليه حال الجيش بعد عودته من حرب  
القرم وفي الاعنداء على الحدود اخذوا ينظرون في الدواء فاشار واحد منهم ان يعيدوا قراءة  
الفاتحة وقسم اليهم الملاحظة بان لا يبوح احد منهم بكلمة مما قيل ويقال في ذلك الاجتماع  
فقرأوها واقسموا كلهم على الكتمان واتباع الخطة التي يقع الاجماع عليها . ولا يعلم حتى الان  
ما هي الاقوال التي قالوها والآراء التي ارتأوها ولكن يعلم انهم اجمعوا اخيراً على ان يعملوا  
عملاً يغيظ الدول الاوربية ويجعلها تساعد على تغيير الحالة . وكان بعض المأمورين في  
سورية من حزبهم فبعثوا اليهم من اطلعهم على القرار الذي اجمعوا عليه . واهالي سورية  
غافلون وسكان لبنان منهم لا ينبذون ضغائنهم واحقادهم التي اضعفتهم واذلتهم فتبعث بهم  
الاهواء وينقادون صاغرين الى كل من يدعي زعامتهم وكيف لا تكون الحال كذلك وقد  
تسلط عليهم الجور والظلم قروناً طويلاً ولسان حالهم يقول

احيا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء ابنا

فاتفقت الكلمة في ذلك الاجتماع على ايقاد نار الثورة وان يكون القصد منها التشكيل بالنصاري  
لا انتقاماً منهم بل لغرض سياسي . وهذا شأن رجال السياسة في كل زمان يبيعون النفوس  
بيع السماح لا غراض يقصدونها ولولا ذلك ما كان لنصف الحروب والثورات سبب معقول .  
وهم على هذا النمط من سالف عهدهم وانما يخلفون في الاساليب التي يتبعونها وقل من  
يستطيع ان يجاهر بالشكوى منهم او يقول كما قال ذاك الاعرابي لعمر بن عبد العزيز



ان الدين بعثت في اقطارنا      نبذوا كتابك واستحلّ المحرم  
 طلس الثياب على مناير ارضا      كلّ يجور وكلهم يتظلم  
 وارتد ان يلي الامانة منهم      عفّ وهيئات الامين المسلم  
 او من يقول ما قاله المنصور قبلما ولي الخلافة

حتى متى لا نرى عدلاً نسرى به      ولا نرى لولاة الحق اعوانا  
 مستسكين يحق قائمين به      اذا تلون اهل الجور الوانا  
 يا للرجال لدا لا دواء له      وقائد ذي عمى يقتاد عميانا

ولا تحسبنّ العمران الغربي مزبلاً لهذه الشكوى وشافياً من هذا الداء كلاً بل ان  
 مطامع اهل الغرب تفوق مطامع اهل الشرق ودهاتهم من رجال المال ورجال السياسة  
 يتذرّعون الى نيل مآربهم بكل وسيلة ويستحلون كل عمل فيدخل روادهم بلاداً بعيدة  
 ويخاتلون صاحبها حتى يعاهدوهم معاهدة لا بدّ له من الاذلال بها ثم يتعبدونه الى ان  
 يستولوا على بلادهم او على خيراتها بحجة مخالفتهم لذلك الهدى ولا بدّ من ذلك ما دام هذا  
 التنازع للبقاء سنة للكون

في غرفة من غرف الدار الكبيرة التي يسكنها الامير احمد ارسلان وقد سكنها ابوه  
 وجده من قبل جماعة من الامراء والمشايخ والعقّال اجتمعوا على اترعودة الامير احمد من عند  
 الكولونل روز وتداولوا في احوال الجبل فقصّ عليهم الامير ما قاله له الكولونل وما قاله الوالي  
 وجعل كل يبدى رأيه ويعيد تاريخ الجبل ويذكر اسباب الاحقاد القديمة من عهد آل  
 تنوخ وآل معن وتعرض الدول الاوربية لابرهم باشا وكيف استتبّت السلطة للباب العالي  
 على البلاد بمساعدة دولة انكلترا ولولاها ما استطاعت الدولة العلية ان تخرج ابرهم باشا من  
 بلاد الشام بل كان نصف رجال الدروز الآن منتظمين في سلك الجنود المصرية وبعد كلام  
 طويل في هذا الشأن تناول الحديث شيخ اشيب من التلاحقة وقصّ عليهم ما فعله السنيور  
 ود فحصل الانكليز في دمشق الشام منذ ثمانى عشرة سنة لما هرب الامير امين ارسلان والامير  
 اسعد شهاب ونحو الفين من الدروز الى حوران فراراً من عمر باشا الذي اعتقل امراء الدروز  
 ومشايخها وكاد يوقع بكل عظيم منهم فان والى الشام اوجس منهم شرّاً لاسيما وانه يعلم  
 ما فعل الدروز بعساكر ابرهم باشا في تلك البلاد الوعرة فجمع اعوانه واستشارهم في الامر  
 فاشاروا عليه ان يلجأ الى السنيور ود لكي ينقذ الدروز بالعودة الى الطاعة والرجوع الى



اوطانهم . والظاهر ان السنيور ود سرّاً بذلك لانه كان يود ان يتوسط امر الدروز من نفسه ويخشى ان لا تقبل وساطته على حد قولهم كل معروض مرفوض فقبل الوساطة على شرطين الاول ان يطلب العفو لاولئك الرجال من الباب العالي . والثاني ان يؤمنوا على ارواحهم الى ان يأتهم العفو . فقال له الوالي احمد باشا اني اسمح لهؤلاء العصاة ان يقيموا في دار القنصلية الى ان يصل فرمان العفو من الباب العالي وأطلق كل اقاربهم الذين قبض عليهم وادعهم يقيمون معهم في دار القنصلية

فبعث السنيور ود ترجمانه الى حوران ومعه امر الوالي بالمهادنة الى حين وصول العفو من الاستانة وكتب معه الى الامراء والمشايع ضامناً لهم سلامتهم بناءً على ضمانه الوالي له وناصحاً لهم لكي يسلموا وينزلوا الى دمشق . وبعد ايام قليلة عاد الترجمان ومعه الامير اسعد شهاب ( وكان قد انضم الى الدروز لانهم وعدوه بالولاية على الجبل ) والشيخ يوسف عبد الملك وغيرهما من مشايخ الدروز وسبعائة من اتباعهم . ومضى السنيور ود الى الوالي بمشايع الدروز فرحب الوالي بهم واعطى كلّا منهم شالاً من الكشمير علامة العفو والرضا . ثم وصل بقية الدروز فضاقت بهم دار القنصلية ورأى السنيور ود انه يستحيل عليه ان ينزلهم كلهم في داره الى ان يرد العفو من الاستانة فسمح لهم الوالي بالعودة الى بلادهم ما عدا سبعين من رؤسائهم بقوا في دمشق منتظرين فرمان العفو . وبعد شهرين جاء فرمان المنتظر وفيه امر صريح بالقبض على اولئك المشايخ وقتلهم وارسل رؤوسهم الى الاستانة وكان احمد باشا قد عزل من ولاية دمشق وولي علي باشا بدلاً منه فجاء كلخيته الى دار القنصلية قبلما اشتهر ما في فرمان وقال لمشايع الدروز على ما انتظمت عن التردد على دولة الوالي ففضلوا واشربوا فنجان قهوة فانخدع الشيخ يوسف عبد الملك بهذا الكلام وسار معه الى دار الولاية فقبض عليه حاملاً وصلها وبلغ السنيور ود ذلك فهرع الى دار الولاية واني ان يجلس الا ويطلق سبيل الشيخ فاخبره الوالي بمضمون فرمان ثم قرأه له فالتفت الى احمد باشا وكان جالساً مع علي باشا وقال له كيف كان الاتفاق بيني وبينك ألم يكن على كذا وكذا وقصص على علي باشا واقعة الحال ثم قال لا احمد باشا انك لو ذكرت للباب العالي واقعة الحال كما وقعت تماماً لجاء فرمان بالعفو حتماً . فاجاب احمد باشا انني ذكرت لهم كل ما حدث بالتدقيق فكانت النتيجة كما ترى . وقال علي باشا لا بد لنا من العمل بالامر العالي

فقال السنيور ود ان استطعتم ان تفعلوا ذلك فافعلوا ولكن اعلموا ان انكاثرا لا تحفر ذمة قنصل من قناصلها



ثم احندم الجدال بينه وبينهما ثلاث ساعات على غير طائل واخيراً قال له انك ان لم تسلمنا كل الرجال الذين عندك برضاك اضطررنا ان نرسل قوة عسكرية ونستلمهم عنوة

فاطرق برهة يفكر في امره ثم قال لعلي باشا نحن اصدقاء منذ عهد طويل ولي عليك جميل لا تنكره فاذا كان لا بد لك من العمل حسب امر الدولة فارجو من فضلك ان تنذري قبل ارسال القوة العسكرية بنصف ساعة حتى اخرج النساء والاطفال من دار القنصلية فقال له علي باشا وهل مرادك ان تقاومنا بالقوة

فقال القنصل حتماً ولا بد لي من الدفاع عن شرف القنصلية ولا يمكن ان تمسوا احداً من كل الذين في حمانا ما دمت في قيد الحياة وانت تعلم ما يفعل اناس مسلحون مثلنا اذا وقفنا في اليأس ولا يخفى عليك ان الدولة الانكليزية لا تدع نقطة من دمنا تذهب هدرًا فاذا شئت ان تلقي دولتك في المشاكل فافعل ما تشاء

ثم نهض وهم بالخروج فطلب اليه علي باشا ان يتمهل واخذ يفكر في امره ثم قال له اني اعرف الانكليز واعرف مقدرتهم ولا اريد ان اكون سبباً للخلاف بينهم وبين دولتنا العلية فأخذ العهدة على نفسي واوقف الامر العالي وغاية ما يصيبني الزل او الابعاد وهما اهون من حرب دولية

ثم امر بان يطلق سبيل الشيخ يوسف عبد الملك فعاد الى دار القنصاية بين ستة من القواسمة واجتمع اهالي دمشق يرون مقدرة قنصل الانكليز ويعجبون بها

قال المتكلم وبقينا في دار القنصلية سبعة اشهر لاني كنت في جملة من لجأ اليها الى ان جاء العفو من الاسنانة وقد بلغنا ان العفو صدر منها بواسطة سفير الانكليز فاذا كان قنصل الانكليز وسفراؤهم يحموننا ويدافعون عنا اينما كنا فكيف لا نسمع مشورتهم ولا نعمل حسب ارادتهم

وكان المتكلم شيخاً جليلاً مسموع الكلمة وكانت هذه الحادثة معروفة عند بعض الحضور فشهدوا بصحتها وكاد ينفض الاجتماع على ان لا يحركوا ساكنًا ولا يأتوا عملاً من شأنه اثاره حرب اهلية في البلاد ولكن قال واحد منهم قبل انقضاء المجلس هب ان خصومنا اعتدوا علينا وتكرر اعتداؤهم فهل نصبر على الضيم فأجاب اكثر الحضور كلاماً كلاً . ثم اتفقوا على ان يرسلوا خبر ما قرء عليه قرارهم الى الخلوات كلها في الجبل ووادي التيم وحروران

ستأتي البقية



## الفصل الخامس

## سورية في البارلمنت الانكليزي

غطى الضباب مدينة لندن ووقفت المركبات عن السير والناس عن المشي ولم تعد المصاييح تُرى في الشوارع فلم يصل الأعضاء الى دار البارلمنت الا بشق الانفس . ولما انتظم عقدم وجلس كل في مكانه حسب درجته دارت المجادلات على نتائج الحرب بين النمسا ومردينيا ومعاهدة زورك وتنازل امبراطور النمسا عن لمبرديا للامبراطور نبوليون الثالث الذي اعطاها لسردينيا وعلى ماجريات الحرب الاميركية الاهلية والقبض على جون بروث الذي غنم الترسانة الاميركية بعد ان قُتل نصف رجاله . وعلى ما جرى لسفراء انكلترا وفرنسا واميركا في بلاد الصين وهم ذاهبون الى بكين فصدوا عن دخولها . وطال البحث في هذه المسائل الى ما بعد نصف الليل

وكان العضو النائب عن لنكشير قد طلب من مجلس النواب ان ينظر في ما شاع عن قرب نشوب الحرب في سورية وعما يقال عن دسائس بعض الدول الاوربية رغبة في احتلال تلك البلاد واقفال ابوابها دون التجارة الانكليزية . فلما حانت الفرصة للمناقشة في هذا الموضوع نهض وقال ان لنا في سورية تجارة واسعة فترسل الى مدينة بيروت في السنة ما ثمنه اكثر من ستماية الف جنيه فاذا نشبت حرب اهلية هناك بارت تجارتنا واذا استولت عليها دولة اوربية فقولوا على تجارتنا السلام . وانا اسأل الرئيس عما عنده من الاخبار في هذا الصدد وعن التحوطات التي اتخذتها الحكومة لمنع هذا الضرر عن التجارة الانكليزية فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذا الامر تمام الاهتمام وقد عقدت لجنة للبحث فيه ومتى علمت الخبر اليقين لا تضن باطلاع المجلس عليه

فقال العضو اتنا لا نكتفي باطلاعنا على الاخبار لان عملاءنا في تلك البلاد يكتبون لنا باخبارها كل اسبوع ونحن نعلمها كما تعلمها الوزارة وانما يهمنا ان نلخذ الحكومة التدابير اللازمة لمنع الحرب الاهلية وان نذكر الحكومة الطامعة باحتلال سورية وتكلف يدها عن ذلك فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذه المسائل كلها وهي ترجو ان تطرح على المجلس نتيجة اعمالها بعد وقت غير بعيد . ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان الوزارة تهتم بكل امر له علاقة بنا ولكنها لا تكفل النجاح في كل امر لان زمام الدنيا ليس في يدينا ونهض المستر غلادستون حينئذ وكان ناظراً للمالية وقال ان مالية البلاد لا تمكن الوزارة



من عمل كل ما نتمناه ولكن الوزارة لا تضن بانفاق المال اذا كان انفاقه واجباً لتعزيز قوة البلاد وحفظ متاجرها . ثم قال ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان جيوشنا تحارب الآن في بلاد الصين مع جيوش الدولة التي اشار اليها ولنا كآيتنا مصلحة واحدة فلا نتنظر منها ان تسعى في عمل يكون من ورائه الاضرار بنا

فهم الاعضاء مع كلامه تهديداً خفياً ولكنه لطيف لا يواخذ به وفي اليوم التالي اجتمعت اللجنة برئاسة لورد رسل وزير الخارجية ونظرت في ما كتبه سفير انكلترا في الاساتنة عن ثورة الافكار التي يراد بها خلع السلطان عبد المجيد بآية واسطة كانت ولو بالتنكيل بالمسيحيين حتى تنهض دول اوربا وتنصرهم . وفي ما كتبه قنصلها في بيروت عن سعي فرنسا المتواصل في تحريض موارنة الجبل على مقاومة القوة بالقوة . ثم نظرت في تقرير غرفة التجارة عمّا تستورده سورية من منسوجات انكلترا وما تصدره اليها من الصوف وعرق السوس . وبعد بحث طويل في هذا الموضوع قرأها على ما تكتب به الى سفيرها في الاساتنة والى سفيرها في باريس وخلاصته السعي في منع الحرب الاهلية بكل واسطة ممكنة وحمل الدروز على الاخلاص الى السكينة وعدم الاعتراض بهواعيد الولاة الذين يعدونهم بالمساعدة

وفي تلك الليلة اجتمع جماعة من المالين عند واحد منهم ودار البحث على القرض الاخير الذي عقدته فرنسا والقرض الثاني الذي طلبه فكتور عمانوئيل ملك مبردينيا ليستعين به على ضم ممالك ايطاليا بعضها الى بعض

فقال احد الحضور واسمه ابن حاييم ان القرض الاول مكّن فكتور عمانوئيل من التغلب على النمسا فاذا تمسّر له بهذا القرض الثاني ان يضمّ ممالك ايطاليا بعضها الى بعض ويصير ملكاً عليها كلها نكون قد خدمنا امرة ساقوى خدمة لا مثيل لها جزاء دفاعها عنا

وقال آخر ليس من غرضنا ان نخدمه او لا نخدمه بل ان نستثمر اموالنا في بلاد نأمن عليها فيها . اما فرنسا فماليتها ثابتة وشعبها مجتهد مقتصد ولا خوف عليها مهما زاد دينها واما ايطاليا فبلاد فقيرة وأكثر خيراتنا تذهب الى خدمة الدين فيها . ولو علمنا ان حياة كاثور تطول عشرين سنة اخرى لوثقنا انه يصلح البلاد ويبني مالية الحكومة على اساس وطيء اما واحوال ايطاليا لا تزال مرتبكة والسلطة الدينية قوية فيها فلا يحسن المجازفة في تدبير المال لها وبعد اخذ وعطاء في هذا الموضوع اتفقوا على ان لا يكتبوا باكثر من مئة مليون فرنك ثم قال ابن حاييم كتب اليها الخواجه بخور من دمشق ان الاحوال فيها وفي بيروت



ليست علي ما يرام وان دروز الجبل يستعدون للحرب الاهلية وقد استدان رؤسائهم منه نحو خمسين الف جنيه بربا عشرين في المئة وطلبوا مئة الف جنيه اخرى وهو لا يرى مانعاً يمنع اعطاءهم اياها لانهم وعدوه برهن ضياعهم في البقاع وهي تساوي اضعاف ذلك . والدروز داخلون في ذمة انكلترا فلا يحسرون ان يهضموا لنا حقاً عندهم

وقال آخر انني التقيت منذ ساعة بالورد فلان فاخبرني ان الوزارة باذلة جهدها في منع الحرب الاهلية من سورية وقد ارسلت الاوامر المشددة الى سفيرها في باريس وسفيرها في الاستانة لبيدلا جهدهما في ما يمنع اثاره الحرب

فقال ابن حاييم ان تم ذلك فهو اصلح لنا وان لم يتم ونشبت الحرب فلا بد من ان تلجأ الدولة العثمانية الى التعويض علي المنكوبين وخزائنها فارغة فينتفخ امامنا سبيل آخر للكسب

## الفصل السادس

### التفتيش الاول

لما حان الوقت الموعود لذهاب السر هنري بدمونت الى الشويفات لزيارة الامير احمد والتفتيش عن المغارة التي فيها رفات جدو كونت بدمونت خاطب الكولونل روز في ذلك وطلب منه ان يسمح له بذهاب الترجمان معه لئلا يجد الامير احمد غائباً فيتعذر عليه التكلم مع احد لانه لا يعرف كلمة من العربية . وقام في الصباح وركب جواده وركب معه الترجمان ايضاً وقواس من قواسة القنصلات وساروا نحو الشويفات فوصلوها بعد ساعتين من الزمان ولقوا الامير احمد في انتظارهم عند نهر الغدير ومعه جماعة من الامراء ابناؤه عمه واخلامه والحشم فرحبوا بالسر هنري وساروا امامه وكان الامراء بالخيول المطهمة وقد غطوا سروجها بصفايح الذهب الوهاج فوق لبد الشعر الاسود وقلدوا اعناقها برصائف من الذهب لوسواسها نفم شجي تسمعه الا صائل وتطرب به فيزيد اعجابها وتهادها فتظنها ترقص رقصاً وهي تسير زميلاً . حتى اذا بلغوا دار الامير احمد استأذنوا السر هنري في نصب الميدان اكراماً له وانقسموا قسمين وجعلوا يكررون ويفرون ويتراشقون بالجر يد فطرب لذلك طرباً شديداً . وكانت الشمس قد تكبدت السماء واشتد الهجير فشكروهم علي ما ابدوه له وقال انه طالما تمنى ان يرى ميداناً مثل هذا يلعب فيه امراء البلاد علي صهوات الصافنات الجياد . ثم ترجل ورجلوا ودخلوا ديواناً جلسوا فيه واستراحوا هنيئة وقدمت لهم الشرابات والشبقات ومد السماط وعليه فاخر الطعام وأتي بعده بالخوازيات وكانوا ثمانية الامير احمد وخمسة من ابناؤه اعمامه



والسر هنري والترجمان . واكل السر هنري من كل الالوان واستطابها على دسمها وكان يكلم  
الامير احمد بالفرنسية وهو يترجم لانياء عمه

واستراحوا بعد الطعام ساعة زمانية ثم التفت السر هنري الى الامير احمد وقال له لا بد  
لي من العودة الى بيروت الليلة وارجو من فضلك ان ترسل معي واحداً من اتباعك يريني  
ما حول بلدكم من المغاير . فقال الامير احمد انا اذهب في خدمتك فهل تريد ان نذهب راكبين  
او ماشيين . فقال السر هنري بل افضل ان نذهب ماشيين الا اذا وجدت في ذلك مشقة  
او كان المكان بعيداً جداً

ففتحك الامير احمد وقال اني اجري النهار كله وراء الصيد واحب ما علي ان امشي معك  
لا سيما واننا مضطرون ان نصعد وننزل في اماكن لا تسير الخيل فيها . ثم قاما وودعا الحضور وسارا  
وحدهما قاصدين المغاير التي كان الامير احمد يمر بها وهو يجري وراء الصيد فتزلا اولاً الى غربي  
القرية ودارا الى جنوبها وشرقيها وهبطا في جهة كفرشيا ومشى معهما ثلاثة من خدم  
الامير وكانا كلما وصلا الى باب مغارة يراجع السر هنري ما قاله ولف خادم جده عن  
وصف المغارة والجهة التي تطل عليها ويدخل الخدم المغارة ويخبرون عما رأوه فيها واستمروا على  
هذه الحال نحو ثلاث ساعات الى ان اجهدهم التعب ومالت الشمس الى المغيب ولم ير السر  
هنري مكاناً ينطبق على الوصف الذي عنده

وبينا كان السر هنري والامير احمد يجوبان الشعاب والهضاب يفتشان عن المغارة التي  
دفن فيها الكونت بدمونت كانت الاميرة هند خالة الامير احمد قد ذهبت هي وابنتها وابنة  
سلفها الى نبع ماء في مكان بين كفرشيا والشويفات وتغدين هناك ثم تبعتهن ام يوسف  
واقي معها رجل قزم كثير الهزل والمزاح يسمى عنتر وهو من افكه الناس حديثاً واسرعهم  
خاطراً يقيم في دور الامراء للهزل والتهريج فلما وصل قال للاميرات خافت ام يوسف ان  
تخطفها الجن اذا انت وحدها فات بي معها مع اني اكدت لها ان الجن تخاف منها ولو لم يكن  
ابو يوسف اعشى القلب ما وقع هذه الواقعة ولكن لا فولة مسوسة الا ولها كيال اعشى  
فانتهرته ام يوسف وقالت اسكت ياخيث وخلصنا من لسانك ولا تذكر مسألة الجن فان  
الست سلمي لا تصدق بالجن ولا بالعفاريت

فقات الاميرة صفا دعونا من سير الجن والعفاريت فاني خفت في المرة الماضية ولم اتم  
طول الليل

فقال القزم الحق في يد الست صفا وانا اخاف من الجن لئلا تخطفني . وعلى فيقه



ياست هند اتاكم ضيوف من اولاد عمكم ملاً والدار  
فقلت فبحك الله على هذه البشارة فبحن نهرب من الناس والناس تلحقنا  
فقال اذا اردت ان تخلصي منهم فلا اسهل من ذلك ديني الفقير منهم فلا تعودى  
ترين وجهه واطلبي من الغني ان يدبلك فلا يعود يرى وجهك

فقلت اصبت وان كان فراق البدوي بعيا فلا كان البدوي ولا كانت العبا  
وقبل ان نتم كلامها وصل الامير احمد والسر هنري والرجال الثلاثة الذين معهم .  
فاضطربت الاميرات لما راين رجلاً بشباب افرنجية ولكن لم يطل اضطرابهن لان الامير  
احمد كان قد اخبرهن انه لقي في بيروت عند القنصل شاباً انكليزياً من عائلة شريفة وانه  
وعده بزيارة الشويقات بعد ايام قليلة فلما رآينه ادركن حالاً انه هو الشاب الذي اخبرهن  
عنه . ونقدم الامير احمد وعرفن به

فنظرت اليه الاميرات معجبات من جمال طلعتيه واعندال قامتيه ونظر هو اليهن فرأى  
الجمال الشرقي الذي قرأ عنه في حكاية الف ليلة وليلة وكتب الروايات والرحلات وكان  
يظن انه من قبيل الشعر والمبالغات

ودعنها الاميرة هند للجلوس معهن وشرب القهوة وقدمت لها السكاير وسالت السر  
هنري عن كيف رأى البلاد وعمما اذا كان معه احد من اهله وطلبت اليه ان يزورهم  
ويضيفهم تلك الليلة . وكان الامير احمد يترجم بينها وبينه فاجابها السر هنري انه آسف  
لانه ثقل عليهن بجيئه اليهن في تلك الساعة ولكنه سر جداً بروؤية الاميرات الشهائيات  
وانه كان يحسب انهن يتجبن مثل سائر نساء الجبل فاذا هن مثل الاميرات في بلادهم  
لا يحرمن مخالقات الله من نظارهن كما لا تحرم الشمس النبات من باهر اشعتها

فسرت الاميرة هند بهذا التشبيه ونظرت صفا وسلمى اليه باسنتين ثم اطرقنا حياء اما  
القرم فكان يتأخر الى الوراء رويداً رويداً وهو يزور بعينيه ويقلب شفتيه . والتفت اليه  
الامير احمد وقال له مالي اراك تهرب منا يا عنتر

فقال متى حضرت الملائكة هربت الشياطين . فقال الامير اذا كان يجب ان تهرب  
قبل مجيئنا

فقال عنتر كنت عازماً على الهرب ولكن ام يوسف مسكتني لانه لا يطيب لها عيش  
في البعد عني

فقلت ام يوسف اسكت يا لعين وخلصنا من شرك فانت في كل عرس لك قرص



والتفت السرهري الى الامير احمد كأنه يستفهم منه عما يقوله القزم فترجمه له فضحك وهو يقول في نفسه هذا مجلس من مجالس الامراء حقيقة وهذا من الافزام الذين لا يخلو منهم مجلس انس من مجالس الملوك

وكان الخدم قد غلوا القهوة وارادوا تقديمها للسرهري قبل غيره فأبى إلا ان تقدم الى الاميرات أولاً . فقالت له الاميرة هند اذا العادة عندكم مثل العادة عندنا تقديم الاميرات على الامراء . وترجم له الامير احمد ذلك وقال له ان هذه هي العادة عندنا ايضاً ولكنها خاصة بالاميرات واما سائر الناس فرجالهم مقدمون على النساء في كل شيء . فعجب السرهري من ذلك وقال اذا لم يفضل اميرات الشرق إلا لان حقن في التفضيل اثبت من ان ينكر وكان مجلسه مواجهاً لمجلس الاميرة سلى فلم يسمه إلا النظر اليها مرة بعد اخرى فصبغ الحياه وجنتها وزادها جمالاً على جمال . ولحظ خرج موقفها وشعر من نفسه انه في موقف تدوب فيه المبح فنهض واستأذن في الانصراف فنهض السيدات اجلاً له فودعهن مصاحبة وعاد ادراجه هو والامير احمد وهو مببل الافكار وخاف ان يظهر امره فجعل يحاول جمع افكاره المشتتة وهو ينظر الى ما حوله فبرى صوراً تمر امام عينيه ولا يفقه لها معنى الى ان وقعت عينه على نبات صغير الورق له ثمر احمر كحبوب المرجان فوقف وقال للامير احمد انظر هذا نبات القوة الذي يستعمل في الصباغة وهذه اول مرة رأيته نابتاً

وكان عارفاً بعلم النبات مغرمًا بجمع الحشائش فاخذ يصف بعض ما يراه منها لكي يخفي ما به من تبليل الافكار

ولم عليه الامير احمد لكي يبيت عنده تلك الليلة وارسلت امه تلج ايضاً فاعتذر بانه لا بد من عودته حالاً لكي يكتب مكاتيبه لقيام سفينة البريد في الصباح لكنه وعد بالعودة في الاسبوع التالي لاستئناف البحث عن المغارة

### الفصل السابع

#### مطارح النظر

التنازع سنة الكون به ارتقت انواع الحيوان والنبات واليه مرجع التفاضل بين الشعوب والامم . وهو شامل لاعمق عواطف النفس كما انه عام لما في الكون من العوالم كان السرهري بدموت مغرمًا بابتنة خاله اقلين برادن يراها عين الكمال وجميع الجمال وهي تدل عليه ولا ترى في قلبها ما يجذبها اليه لانها رأت منه سيراً على غير الطريق السوي مثل



أكثر الشبان الذين يربون في نعمة وينغمسون في الملاهي . فان أمه أرسلته الى مدرسة أكسفرود وقطعت له مئة جنيه في الشهر فكان ينفقها وينفق فوقها وهذا شأن أكثر الشبان في تلك المدرسة . وكان قليل الدرس ولكنه ذكي الفؤاد فحصل ما يكفي لنيل الشهادة وخرج من المدرسة ولا مطمع له في الدنيا الا ابنة خاله فلا يرى غيرها ولما رأى منها الدل والصدود رهن نفسه لمشيئتها وانقطع عن الملاهي وعكف على الدرس وطلب المعالي ولا غاية له الا رضاها حتى حسدها عليه انرابها . اما هي فبقي الدلال شأنها والفتح ديدنها . وحدث ذات يوم ان ذكرت القاب الشرف وانساب الشرفاء فقال ان جدّه كان مع الملك ركارد ملك الانكليز الملعب بقلب الاسد وأنه كان فارساً مغواراً وانعم عليه الملك بلقب كونت قبل وفاته فتبسمت اقلين قائلة اراك تصدّق هذه الاقاصيص الموضوعة كأنها حقائق راهنة فقال لها هذا ليس من الاقاصيص الموضوعة بل هو خبر ثابت بالسند المتصل وانا اصدّق ولف كما اصدّق اصدق الناس . والفارس الباسل لا يكذب ولا يخنلق الاخبار . وقد ذكر ولف في الخبر الذي نقل عنه أنه وضع وثيقة لقب جدي على صدره لما دفنه وهذا كلام من رأى بعينه ولس يبدو . نعم ان منعه هذا اللقب غير مذكور في سجل الالقاب ولكن اي سجل يحفظ بالتدقيق والناس في دار الحرب . ولم تصف الايام لقلب الاسد بعد رجوعه وخلاصه من الاسر حتى تطالبه عائلتنا بأثبات ذلك في سجلات الحكومة فبقيت اقلين على ريبها وقالت له ان انت وجدت الوثيقة اثبت الكونتية لك لانك الوارث الوحيد له الآن

فقال نعم وسأفعل ذلك وابذل دونه كل مرتخص وغال ان كان يرضيك وكانت نتكلم معه على سبيل المزاح اما هو فاخذ الامر بالجد وجعل يفتش في كتب الانساب والتواريخ وعقد النية على الذهاب الى سورية ليفتش عن الوثيقة فيها . وكان قد انتظم في وزارة الخارجية فطلب ان ينقل الى بلاد الشام فنقل اولاً الى الاستانة ثم الى مدينة بيروت وآماله معلقة باكتشاف الوثيقة وارضاء ابنة خاله وهو لا يرى غيرها امام عينيه . اما الآن فعاد من الشويقات على غير ما ذهب فقد ذهب اليها وفي قلبه شخص واحد وامام عينيه مطلب لا يرى سواه وهو ان يعود بالوثيقة فترضى ابنة خاله عنه وترفع منزلته في عينها وعاد وقلبه يتنازع شخص آخر شخص الجمال والدلال فتاة لم ير اجمال منها في بلادهم ولا في غيرها فتاة من نسل الامراء الذين حاربوا فرسان الصليب ودحروهم في بلاد الشام . ولقد ربي مع ابنة خاله وشب معها واحبها كما يحب الاخ اخنه ولكنه كان يشعر دائماً انها بعيدة عنه



وازداد البعد بتقدمهما في السن فظن انه لم يملاً عينيا لسيرو في طرق لا ترضيها فغير اسلوب معيشته وبذل جهده في مرضاتها . وكذا ظن انه بلغ المراد رأى انه لم يزل حيث كان بالنسبة اليها لا هي تفصيه ولا هي تدنيه لكنه لم يفشل ولا قطع الامل وقد تحمل مشقة السفر الى بلاد الشام قرية منها وزلني

والآن شعر كأن آماله كلها كانت امانى واقلين لا تحبب الا كما تحب الاخوات اخاها تهتم بامرهم وترجوه الخبير والفلاح تحزن لحزنه وتفرح لفرحه . نشألم اذا اصابه مكروه وتفخر اذا فعل فعال الكرام وتفندي بنفسها اذا وقع في شدة ولكنها لا تلقي اعتمادها عليه ولا تحسب انه الرجل الذي يكفلها في السراء والضراء

ثم قال في نفسه ولكن من هذه الاميرة ومن هم قومها وما هي اخلاقهم واطوارهم ومن اي مذهب هم وكيف ينظرون اليّ وقد لا اراها بعد الآن وقد تكون مخطوبة او متزوجة وقد يكون اهلها ارفع مني حسبا ونسبا فلا يتنازلون لمصاهرة اناس مثلنا . كنت استطيع ان اسأل الترجمان عنها ولكنه يعد ذلك فضولا مني . ولا يبعد ان تكون خطيبة للامير احمد وهي ابنة خالته ولعلها احمرّت لما رآته . لم تشكلم على مسمعي غير كلمة واحدة حينما عرفها بي فقد قالت بالفرنسوية انها تسر بعرفتي . ما امهر هؤلاء الفرنسويين في تعليم لغتهم ونشرها في الآفاق . هذا كله فعل الرهبنات . يطردونهم من بلادهم وينفقون عليهم في سائر البلدان لينشروا فيها لغتهم . لا بد من ايضاح ذلك لنظارة الخارجية حتى تهتم حكومتنا بنشر لغتنا اهتمام الفرنسويين بنشر لغتهم

ساكتب لامي عن هذه الفتاة وهي تقرأ كتابي لاقولين فتشور الغيرة في قلبها ذلك القلب الطاهر . قتل الرجال ما اقل وفاءهم . لا لا لا انساك يا اقلين ابدا . ان افكارى بهذه الاميرة السورية من قبيل الجنون الوقتي الذي يعتري الشاب . دقائق جديدة تكونت في دماغي كما يقول العلماء ارتسمت فيها اول صورة وقعت عليها لكنها تزول سريعا كما ارتسمت سريعا

خطرت هذه الخواطر على بال السر هنري وناجى نفسه بها وهو ماسك القلم وعازم على الكتابة لامي ونظر الى ساعة امامه وقال حسبي من احلام الصبا وانقض رأسه مسرعا كأنه يجزر ذبابا حط عليه وغرضه نزع هذه الافكار من باله وشرع في الكتابة فلا صفحات كثيرة وصف فيها كل ما لقيه في ذهابه الى الشويفات ورجوعه منها



## الفصل الثامن

## الاجتماع الثاني

عاد وكلاء الدولة والعلماء الى الاجتماع في دار رشيد افندي وكلهم منشوف الى الاطلاع على ما فعلته اللجنة التنفيذية التي شُكِّلت لاجراء ما افروا عليه في اجتماعهم السابق وعلى ما ورد عليها من اشياهم في سورية فقرأ كتاب وارد من دمشق مؤداه ان سكانها على اتم الوفاق والوئام وانه يتغذر ايقاظ الفتنة فيها لا سيما وان اميراً من تولاها لا يستحل خفر ذمة احد بوجه من الوجوه ولا يصدق ان ما طُلب منه يعود بالنفع على احد . واعوانه اشده يفعلون كل ما يأمرهم فيستطيع ان يحمي بهم المدينة كلها

ولما قُرئ هذا الكتاب ضحك احد المأمورين وقال ان كانت كل الكتب التي وردتنا على هذا النسق فلا فائدة من قراءتها غير التضييل فاب الامير هو الذي اشار على فرنسا باحتلال سورية وارشدها الى السبيل المؤدي الى ذلك فوعده بجعله اميراً عليها

فناقضه مأمور آخر وكثر الحجاج والحجاج بين الطرفين الى ان تصدى لها احد الحضور واطلعهما على كتابة معه من سفارة باريس فنظروا فيها ثم نظر بعضهم الى بعض وسمتوا وقرأ كتاب وارد من بيروت وكله امل وتأكيد وتناول بنيل المراد . فقال احد العلماء اوصوم ان لا يسرفوا . ثم قرأ كتاب وارد من لبنان يشكو كاتبة فيه من احد المأمورين ويقول انا نظنه جاسوساً وطلب ابعاده فكلف احد الحضور بالسعي في نقله الى ولاية اخرى ودار الكلام على الخطة التي يراد اتباعها في كل انحاء الولاية بناء على الكتاب المسمب المرسل من سفارة لندن . ومدار هذه الخطة اثاره الرأي العام الاوربي باعمال تستفز الاوربيين الى "التداخل" ولا خوف من فوز المعتدى عليهم لان دولة عظيمة ستمنعهم من ان يعضدوا بعضهم بعضاً ولا يتسع لها مجال التداخل لان الدولة المناظرة لها توقفها عند حدها وتجنب مساعيها وتمنعها من ازدراد القمة التي اختطفها فتحصل الغاية المطلوبة من غير ضرر كبير وكان بين الحضور رجل اشيب تدل ملامح وجهه على انه عرك الدهر وذاق ما فيه من خل وخمر وكان صامتاً لا يتكلم ولكن وجهه يدل على انه كان يتبع المتكلمين ويزن كل كلمة فلما رأى انهم فرغوا من الكلام التفت الى رئيس المجلس وقال لقد علمتنا التجارب ان العامة لا تقف عند حد محدود اذا اطلق لها العنان والذي اخشاه هو ان النتيجة لا تكون حسب التقدير فلو نلنا بغيثنا واقتديناها برجل او رجلين او عشرة او مئة لمان الامر وقلنا ويل اهون



من ويلين ولكنني اخاف ان نطلق النان للغرغاء فيسرفوا في القتل والتنكيل فتفقد البلاد جانباً كبيراً من سكانها الذين عليهم اعتمادها في الصناعة والتجارة ويتسع المجال للتدخل الاوربي فوق ما نريد . فهما بالغنا في التحذير لكي لا يسرفوا لا نوفي الامر حقاً ولا بدءاً لنا من انتداب اناس يعول عليهم لكي يديروا هذه الحركة ضمن حدودها المعقولة فوافقوه على رأيه وانتدبوا ثلاثة ارسالهم الى بلاد الشام لهذه الغاية

في الليلة التي اجتمع فيها وكلاء الدولة في الاستانة للنظر في امر يمكنهم من ابدال الحالة الحاضرة باصلح منها اجتمع ثلاثة من المرابين في بيت الخواجه بخور بدمشق والبيت في حي اليهود يوصل اليه بزقاق ضيق لا يسع الا اثنين يمشيان معاً وكذلك باب البيت ضيق واطى يضطره الداخل منه ان ينجي رأسه حين دخوله ولكن البيت واسع رحب في داره فسقية كبيرة يتدفق الماء منها والارض حولها مرصوفة بالرخام المجزّع وفيها دوائر غرست فيها اشجار الليمون والريحان وامامها ديوان عضائده من الرخام الناصع البياض وابواب الغرف التي حوله يحيط بها قوائم من الرخام المنقوش نقشاً بديعاً يمثل بمغص شرفات لها اساطين وحنابا مفرغة

ويدخل من هذه الابواب الى غرف كبيرة مفروشة بالسط العجمية على جوانبها مقاعد من الخمل المعرق او الحرير المحجّر تنار بمصابيح مدلاة من السقف زجاجها ملوّنة . وفيها منصات عليها مصابيح اخرى من نوع الطلبا يوقد فيها زيت الزيتون . وفي وسط الغرفة كانون كبير من النحاس الاصفر اوقدت فيه نار الفحم لتدفئتها . فدخل الثلاثة غرفة من هذه الغرف وتداولوا في الانتقال الى بيروت لان اصدقاءهم في اوربا ولا سيما في باريس ولندن كتبوا اليهم انه يخشى من حرب اهلية في بلاد الشام وهم لا ناصر لهم فاية فتة غلبت تطمع باموالهم وتسلبها اما بيروت فلا يخلو مرفأها من سفينة اجنبية بلجأون اليها اذا دعت الضرورة وقال واحد منهم اني لا ارى ما يخشى منه فبالامس استدان امير من امراء لبنان عشرين الف غرش من محلنا في بيروت لتزويج ابنته فما دام الناس يهتمون بالانفاق على افراسهم فهم غير مشغولي البال بامر مهم مثل الحروب الاهلية

فقال آخر وانا جاءني من ابن خالي في دير القمر ان الناس هناك لاشغل لهم الا صب الرصاص وعمل الفسك ( الخرطوش ) وقد اخبروه صريحاً انهم ينتظرون ثورة عامة فقال الخواجه بخور وهذا هو الصواب فان عملاءنا في كل مكان يقولون ان الفتنة كامنة الآن كالنار تحت الرماد ولا بدءاً من ايقاظها قريباً ورأى ان نستشير الامير المغربي في امر انتقالنا فاني اعتقد فيه الاخلاص . فاجمعوا على ان يستشيروه ويفعلوا حسب مشورته



## الفصل التاسع

## العرس والميدان

خُصَّت بلاد الشام باقليم لا عدل منه على وجه البسيطة ساحلها من المنطقة الحارّة بنبت فيه النخيل والصبر والبرنقال ويقتني سكانه الابل لحمل اثقالهم . وجبالها يكلها الثلج أكثر فصل الشتاء والربيع وبنبت فيها الارز والبرريس ونقيم فيها الدباب والارانب . والبلاد بين بين الاعندال بعينه لا ينبت نبات في المنطقة المعتدلة الا ويجود فيها - التين والزيتون والكرم والتوت واللوز والجوز والمشمش والتفاح والليتون والمان والصنوبر والسنديان والدلب والشرين والورد والياممين . كل شجر مثمر وغير مثمر وكل نبت مزهر وغير مزهر . فصول اربعة تتوالى في مواعيتها كأنها جارية على قواعد الحساب . الخريف بوسميه يعد الارض للزرع والشتاء بمزجه يخرق طبقاتها ويروي جذور اشجارها ويمد مياه ينابيعها ويفعم غدرانها وانهارها ويأتي الربيع بشأبيه فيروي نباتها حتى يزهر ويثمر ثمسك السماء عن المطر ستة اشهر متوالية بين الاعندالين من اواسط الربيع الى اواسط الصيف فتتضج الاثمار وتيسر الاعمال واذا ترفه المرء واراد الابتعاد عن الساحل فلا أكثر من ان يسير ساعتين فيصل مكاناً هواؤه عليل وماؤه عذير كأنه انتقل من وادي النيل الى جبال الالب

ولكن مهما أكثر الخير والمير في بلاد صغيرة كبلاد الشام لا تستوفي اسباب الحضارة ما لم يكن لاهلها بضاعة يتجرون بها حتى يشتروا بثمنها ما لا يجدونه في بلادهم من الحاجيات والكماليات فاذا أكثر عندهم الحديد فقد ينقصهم النحاس واذا أكثر الحرير فقد ينقصهم الكتان واذا أكثر الفضة فقد ينقصهم الذهب . ولقد كان السوريون اهل تجارة من قديم الزمان بل هم اول من ركب السفن وخاض البحار وضرب بالقوافل شرقاً وغرباً وامتدت تجارتهم من الهند الى اسبانيا على طول نصف الكرة الشرقي وساروا بسفن سليمان الى جنوبي افريقية وما ذلك الا لانهم وجدوا في بلادهم من البضائع ما تروج سوة في سائر البلدان . ونقلت الدول وكرت القرون بغيرها واهالي الشام يسعدون ويشقون ولكنهم لم ينفكوا عن التجارة برّاً وبحراً ومرت بهم سنون تشيب الولدان وابتلوا بولاية كلهم زبانية الحميم ولكنهم لم يفقدوا خصب ارضهم وكبر هممتهم

الزمن الذي حدثت فيه حوادث هذه الرواية سبق بقرون كلها ظلم جور وارهاق تلتها فترة صغيرة ساد فيها الامن . الفترة التي استتب فيها الامر للامير بشير الشهابي المعروف



بالكبير ثم لابرهم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر. في هذه الفترة عاد الناس الى زراعتهم وتجارهم فنقبوا اراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دود الحرير وبعثوا به الى فرنسا فتدفقت عليهم ميازيب النصار . رجل واحد من اهالي عشميت لا من الامراء ولا من المشايخ كسب من تجارة الحرير ما استطاع ان يوفي به الاموال الاميرية عن بلاد البترون وبلاد جبيل وبلاد الفتوح دفعة واحدة . هذا الرجل واسمه ميخائيل طوبيا اقام في عشميت قريته وجعل يشتري الحرير من اهالي البلاد المجاورة ويرسله الى مرسيليا وبلغ من علو همته انه كان يبي على خمسة من الكتاب في وقت واحد كانه نبوليون الاول . ولا يستطيع الانسان ان يدير الاعمال الكبيرة الا اذا كان كبير المهمة

واقنتى غيره قوافل من الجمال او البغال لنقل بضائع المشرق الاقصى من العراق الى دمشق ومنها الى ساحل بيروت وحمل بضائع اوربا الى داخلية البلاد لنقلها الى المشرق الاقصى . فلا تمر بك ليلة الا وتسمع غناء المكارين يمدون لجلالم واجراس بغالم تحيي ظلة الليل وتطرب آذان النيام فتندفق بنايع النصار على جانب كبير من السكان . خلة جرى عليها اهالي الشام من عهد الفينيقيين واستمروا عليها اكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون اخرى والدهر في الناس قلب

وكان امراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زرع التوت وتربية دون الحرير فصارت مزارعهم في البقاع تاتيهم بما يحتاجون اليه من الحبوب وحراجههم في الجبل تسوم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربي فيها الدود ويمصر منها الزيت فتمتعوا برفاه العيش وظهر ذلك في اعراسهم ومانهم

وكانت الاميرة صفا مخطوبة للامير قاسم من امراء الحدث وجاء الوقت المعين للاحتفال بزفافها اليه فجاءها التجار والصاغة من بيروت بالاطالس والمقصبات الحليّة والحلى المختلفة من عقود وقلائد وخواتم واساور واقراط وضمائر مرصعة باللؤلؤ والماس والياقوت واهدى العريس اليها هدايا فاخرة من انسجة دمشق ودير القمر ومصوغات بيروت وصيداء . وجاء اليوم الموعود للخروج بموكب العروس من كفر شيا الى الحدث وهو يوم احد قبل الصوم الكبير وكانت الاميرة جلنار ام الامير قاسم تخاف ان يكون يوم العرس يوماً مطيراً فنذرت لمار انطونيوس انه اذا كان اليوم صحوّا تصنع له اكليلاً من الذهب وتعلق امامه قنديلاً من الفضة . وعلم المطران بنذرهما فلما اغبس المطر من اول الاسبوع وغابت الشمس يوم السبت تحيط بها غيوم حمراء خاف ان ياتي الامر على غير ما بودّ ولكن اصبح الصباح يوم الاحد ولا غيم في السماء



ولا ضباب في الجو وفاضت اشعة الغزالة على ربي لبنان وانتشرت على ساحل بيروت  
 وفاخر بحر الروم لون سمائه وسارت جواريه عليها المطارف  
 وسالت على الكشبان غدران عسجده من الشمس فيها الظل غرثان وارف  
 وساحل بيروت الخصب ونهرها وتلك الروابي والقرى والصفاف  
 بساط وسيف والنهود ولؤلؤ نضيد على صدر الربى مترافف  
 وكان الامراء آل شهاب وآل ابي الملع قد وفدوا الى الحدث من جهات مختلفة اتى كل  
 منهم بموكبه من الخدم والحشم فلم تعد تسمع الا صهيل الخيل واطلاق البنادق واصوات  
 الطبول والدفوف والزمور وكما وصل وفد منهم قوبل بالاغاني والزغاريد وقام العطر ومجامر  
 البخور واجتمع اولاد القرية ووقفوا عن كسب مبهوتين مدهوشين والسعيد منهم من اعطي  
 فرسا ليحشي به اما آباؤهم فقاموا على خدمة الضيوف والاتباع كأنهم كلهم من خدم الامير  
 وقام الامراء في الصباح واعتلوا صهوات خيولهم فتألف من ذلك موكب كبير يأخذ  
 الطرف مهابة وجلالا سارت في مقدمته الاميرة جلنار ام الامير قاسم على جواد اشهب يتهادى  
 بما عليه من الحلى والى جانبها اثنان من خواص اهل القرية ماسكان بركابها ووراءها سائر  
 الامراء وامامهم وخلفهم خلق كثير فيه المغنون والمطبلون والمزمررون . وسار هذا الموكب  
 الهويناء وكما مر بيت قابله نساؤه بالزغاريد وقام ماء الورد الى ان خرجوا من بين البيوت  
 وساروا في الارض البراح بين الحدث وكفرشيا وكان الماء قليلا في نهر الغدير فقطعوه  
 ولقوا هناك وفدا من كفرشيا آتيا لاستقبالهم والترحيب بهم فتصافحوا وهم على ظهور الجياد  
 واكثر رجالهم من اطلاق البنادق ثم نصب الميدان في سهل فسيح على ضفة الغدير فانقسم  
 الامراء فريقين وجعلوا يترامون بالجريد بهجم الفارس منهم والجريدة في يده ويرمي بها  
 خصمه فتخرج كالشهاب الثاقب لان زخم الفرس يضاف الى قوة الساعد وبراهم الخصم مقبلة  
 اليه فيخمد من طريقها او يفتس تحت بطن جواده او يستلقها بيده او يدفعها عنه بجريدة  
 اخرى . والفتيان من القريتين يجولون في الميدان وكما وقعت جريدة التقطوها واعطوها  
 لفارس من الفرسان . وظل اولئك الامراء في كروفر وهجوم ودفاع الى ان نصبت جباههم  
 عرقا وسبحت جيادهم في عرقها واذا بفتى يصرخ ويقول اخ يا عيني يا امي . كان هذا الشاب  
 يلتقط الجريد فاصابته جريدة ذهب بعينه فالتفت عليه غيره من الفتيان واتوا به الى الامير  
 الذي ضرب وقالوا له انظر يا سيدي عبدك فلان طارت عينه . فقال اربطوها له ثم نادى  
 وكيله وقال له ارسل الى هذا المسكين كيس غلة وخمسة غرش فتقدم ابو الفتي وقبل



يد الامير ودعاه بطول العمر . ومن يهن يسهل الهوان عليه  
 وكان الامير احمد ارسلان في جملة المدعويين الى هذا العرس وذكره للسرهري  
 بدمونت في احدى خطراته الى بيروت فود السرهري ان يكون حاضراً ليشهد الميدان  
 ولعب الجريد . فدعاه الامير احمد الى الحضور وكان يعلم ان الميدان سينصب على ضفة القدير  
 فوافاه السرهري الى كفرشيا وسارا مع امرائها الذين لاقوا امراء الحدث ووقفنا يربان  
 الفرسان تكثر ونفر ولم يشركا معهم وحاول كثيرون اغراء الامير احمد بالنزول الى الميدان  
 فلم ينزل معذراً بوجود السرهري معه . وهو في الباطن يخشى حدوث ما لا يرضاه لان  
 الاحقاد الكامنة بين النصارى والدروز كانت قد اخذت في الظهور . وتطاول احد الفتيان  
 عليه ووجهه جريدة اليه وهو يقول خذها يا امير احمد ولا نقل اني غدرتك فاستلقى الامير احمد  
 الجريدة بمحجن كان في يده ولم يخذله بها . وكان ابنا الامير عباس اخوا الاميرة سلى هناك  
 فبادرا الى الذي رمى الجريدة وتكلما معه لان امهما اوجست شراً من حضور ابن اختها  
 فاوصت ابنها ان لا يفارقه وقالت لهما ان العيون محمرة فلا تدع ابن خالتكما وحده

ولما انتهى الميدان واصيب الفتى بجريدة فقأت عينه . قال بعض الحضور ان هذا  
 الامير الافرنجي لا بد وان يكون عارقاً بالطب فاتوا بالفتى اليه فنظروا اذا العين قد فقئت  
 قائماً فقال الامير احمد لا ارى ان رد النظر اليها في الامكان ولكن يجب ان تعالج لكي لا  
 تلتهم ويمتد الالتهاب الى اختها ثم نزع ورقة من جيبه وكتب له سطرين الى طيب سيف  
 بيروت ليذهب اليه بها فاخذها الفتى وقبل يده

ثم سار الموكب في طريقه كأن عين ذلك الفتى ذبابة كانت على رأسه فاطارتها الجريدة  
 عنها حتى اذا بلغ الموكب دار العروس في كفرشيا علت الزغاريد وطلقات البنادق واصوات  
 الطبول والزمور وبادر رجال القرية الى استلام الخيول والمشي بها . وتصاغ الامراء ودخلت  
 ام العريس واعتنقت كنتها . ثم قدمت القهوة والشبات ومدت اسمطة الطعام من الخرفان  
 المحمرة والديوك القمرية والرز المفلفل والالبان والامماك وانواع الحلوى . ولما فرغ الامراء من  
 الطعام جلس الاهالي والاتباع افواجا افواجا حتى اذا امتلأت الخواصر وفرغت الجفان  
 انتظم الموكب ثانية وقامت العروس فودعتها الاميرة سلى وكاد يغمى عليها واعتنقتها الاميرة  
 هند وهي تبكي لانها ربتها بعد وفاة امها فكانت مثل ام لها وودعها ابوها وزوجته لانه كان  
 قد تزوج بعد وفاة امها . فحنقت المبرات الاميرة صفا لا سيما وانها تذكرت امها وشعرت  
 حينئذ باليتم شعوراً اليماً لم يخامر قلبها من قبل . ثم اركبوها وساروا بها الهويناء وهم يشدون



الاناشيد ويطبلون ويمزرون الى ان وصلوا الى دار العريس فقام المطران ولفيف الكهنة بصلاة الاكليل ووزعت الهدايا من اكياس القصب ومناديل الحرير ومدت اسمطة الطعام وزينت الدار وما حولها تلك الليلة واطلقت فيها السهام النارية

وبينما الناس في لهو وطرب يخنون ويمزرون ويطلقون السهام فتشق عنان السماء علت الجلبة والضوضاء وهجم القوم بعضهم على بعض حتى اختلط الحابل بالنابل . فان شاباً كان يطلق سهماً فاصاب فتى من اولاد الامراء في راسه فوق صريعاً وظن ابوه ان السهم ارداه فاستل سيفه وضرب الشاب به فانتصر له رفاقه وهجموا على الامير وهجم اعوانه عليهم وعلا الصياح حتى اختلط الجمع كله اختلاطاً وخرج العريس ومن معه وخرج النساء ايضاً وترك العروس في حجلتها . وكان الظلام حالكا خارج البيت الا حيث توقد المشاعل فتركها الرجال الموكلون بها واختلطوا بالغوغاء ومضت ساعتان من الزمان وذلك الجمع كالبحر الزاخر ثم خمد الميجان رويداً رويداً فانجلي عن كثيرين من الجرحى والعريس في حجلتهم فانه اصيب بعضي شذخت رأسه فعادوا به الى داخل الدار ولكنهم فتشوا عن العروس فلم يجدوها . وتناقل النساء هذا الخبر وبلغ الرجال فجعلوا يفتشون في جوانب البيت وغرفه وعادت الضوضاء ومضت ساعتان في التفتيش على غير جدوى

وتضاربت الاقوال حينئذ فمن قائل ان الجن خطفت العروس بحلها ومن قائل ان اميراً آخر يجلبها وتجهه ولكن اباهما ابى تزويجها منه فارسل اتباعه اخطفوها وهم الذين صوبوا السهم الى ذلك الفتى لكي يلققوا الجمع فيلجوا عندهم . ومن قائل انها كانت تريد ان تهرب ولكن اباهما منعها من ذلك وابى الا تزويجها فبعث الراهبات من اخطفها . لكن الاكثرين كذبوا هذا القول الاخير اجلاً للراهبات عن هذا الفعل المنكر . وكيفما كانت الحال فان التفتيش استمر الى الصباح ولم توجد العروس ولا وجد اثرها وقام في نفوس الاكثرين ان الجن اخطفوها

وجلست الاميرة هند مع ابنتها تلك الليلة وقالت لها لا ادري لماذا اشعر بضيق في صدري على فراق صفاء مع ان حمايتها تحبها كما تحب الام ابنتها وقاسم من نخبة الشبان نعم انه لا يقاس باحمد ولكنه افضل من كل اولاد عمه . هل رأيت احمد بين الحضور هو والامير الانكليزي . يظهر لي ان احمد تغير كثيراً في هذين الشهرين فصار قليل الكلام كثير التفكير فقالت الاميرة سلى الم سمعي ما قال ابني انهم يطبخون لنا طبخة ويدبرون مهلكاً



فقلت امها ان احمد اعقل من ان يغتر بنفسه فان بلاد كسران كلها قائمة قاعدة وفرنسا معنا والانكليز لا يساعدونهم ولو تظاهروا بمساعدتهم . ان كل احد يقول الآن ان هذا الامير الانكليزي جاء مع احمد لانه حليف له مع انه جاء لكي يشاهد العرس والميدان لا غير كما قال لي احمد نفسه وقد اوصيت اخويك ان لا يفارقهما خوفاً من امر يحدث . ان احمد من اعقل الشبان وهو يحبك جداً وقد قال لي بالامس انك ما عدت تلتفتين اليه فصمتت الاميرة سلمي ولم نقل شيئاً وانتهى الحديث على هذه الصورة . ولكن لما خلعت ثيابها لتنام فكرت طويلاً في امر يشغل بالها وذرفت دموعين مخينتين ثم ألقت رأسها على وسادتها وسلمت نفسها لسلطان الكري وهي لا تعلم شيئاً مما جرى لابنة عمها

وعاد السر هنري الى بيروت تلك الليلة وجلس بعد العشاء يكتب لامه فوصف لها ما رآه في يومه . وصف الميدان ولعب الجريد وتهادي الجياد العربية بما عليها من الحلى . وملابس الامراء المقصبة . وأشار الى الفتى الذي فقئت عينه وعجب من رضوخ الناس للذل واعتقادهم القضاء والقدر . ثم وصف ما رآه في بيت العروس وامسح بيده في وصف المآكل وجلس الامراء حول السباط على المساند وانتقل الى وصف الاميرات وملابسهن وحلاهن . وكان قد رأى الاميرة سلمي واقفة الى جانب ابنة عمها الاميرة صفا كأنهما بدران او لؤلؤتان فلما شرع يصف وصفهما ارتجف القلم في يده وأرتج عليه فكتب يقول اخاف ان اصف لك جمال هاتين الاميرتين فتطلع اقلين على كتابي ونقول اني نسيتهما حتى صرت ارى غيرها جميلاً مثلها . الجبال الشريفة غير الجمال الغربي . الجمال الشرقي مسلح والجمال الغربي اعزل . تنظر الفتاة الشرقية اليك بعينها فتشعرين كأنها راشت سهامها ورشقتك بها اما الفتاة الغربية فترين في زرقة عينها كاساً سائغة تودين ارتسافها . ثم قال

لم اهتمد حتى الآن الى المغارة ولكن بلغني اليوم انهم عثروا على مغارة قرب الشويفات فيها اسلحة قديمة وسامضي الى هناك في هذين اليومين . اذا وجدت رفات جدي والوثيقة فسأستقي نفسي امير لبنان وآتي باقلين الى هنا فتكون اميرة لبنان . هذه احلام اهدس بها احياناً ولكن قلبي يحذثني ان اقلين نسيته انساها اياي اللورد كارو الذي كتبت لي عنه . اخبريني عن كل ما قاله لها بالفصيل وعن مقام هذا اللورد بين قومه فاني لا اعرفه ثم ذكر لها اموراً اخرى عن احوال الجبل وثورة الافكار فيه وختم الكتاب وهو يود الرجوع الى وصف الاميرة سلمي وقلة لا يطاوعه كأنه يرى حرماً حفر عليه الدنو منه



## الفصل العاشر

## المجمع البطريركي

شمالى لبنان مقر المردة ومعقل رجال الدين . عمى قياصرة الروم ولم يخضع خلفاء المسلمين بل كان ينازعهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرأته السيادة المطلقة من اورشليم الى انطاكية يحاربون بني امية كما يحارب الاكفاه بعضهم بعضاً . واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين اراخنة القسطنطينية فعاون الروم العرب عليهم وتوالت السنون وهم لا يزيدون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً فضعف شأنهم رويداً رويداً الى ان انقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لانهم يتجددون بالانتخاب فبنوا اديرتهم على كل معقل واستأثروا بجانب كبير من املاك البلاد

في دير من هذه الاديعة فوق زوق ميكائيل شمالى الطريق الى بزمار دير بكركي لرهينة انشأتها فتاة حليية اسمها هندية جاءت كسروان واشترت اولاً دير ما عبدا الشمر وانشأت فيه الراهنة ثم استحسن موقع بكركي وطلبت من رهبانه المياضية فاعطتهم ديرها واخذت ديرهم وبنت فيه بناء كبيراً اتفقت عليه اربعين الف ريال وكانت عازمة ان تزيده نغامة واتساعاً فجاءته بثلاثين الف حجر مفتوح وباعمدة عظيمة من الرخام . ولكن قام عليها مبعضوها وشانتوها ونسبوا اليها السحر والضلال فاضطر البطريرك يوسف التيان الى الاستغناء لانه كان من ناصرها وحرمتها الكنيسة وحرمت اعمالها وحلت رهبنتها وبات الدير فقراً لا يأوي اليه غير اليوم ويقال ان احد المطارنة احرق الثلاثين الف حجراً كلاً زاعماً ان الحرم تناولها وكان بطاركة الموارنة يقيمون في دير قنوبين في شمالى ليه ان فاخثاروا الاقامة في كسروان في الايام الاخيرة لانها مقر وجهاء الموارنة فكانوا ينزلون في الدير الذي يخارونه الى ان تنصب البطريرك يوسف اسطفان فمقد المطارنة مجمعا في دير مار يوسف الحصن في غسطة حضره القاصد الرسولي وقرروا في جملة ما قرروه ان يكون الكرسي البطريركي في بكركي ثم تكرر هذا القرار في مجمع آخر ولكن لم يعمل به . فلما تنصب البطريرك يوسف جيش عمل به واقام في بكركي وخلفه البطريرك يوسف الخازن فراد البناء . وامام الدير ميدان صغير في آخره شجرة ميسى قديمة العهد وكثيراً ما يمشي البطريرك والمطارنة فيه يتلون فروض الصلاة وفي تاريخ الدويهي ان بكركي كانت بلدة كبيرة في اوائل القرن الخامس عشر والمنظر منها جميل جداً يطل على كل بلاد الساحل من جبيل الى بيروت وما وراءها جنوباً



ان حوادث الجبل المشار اليها في الفصول السابقة جعلت بطريك الموارنة يدعو المطارنة ووجوه الطائفة للاجتماع والمذاكرة في ما يجب عمله اذا قام الدروز لحاربة النصارى . فاجتمع لديه جماعة منتقاة لا تتجاوز اثني عشر نفساً وهم مطران بيروت ومطران صور وصيداء ومطران عكا ومطران قبرص ومطران الشام والخورى . نعمة الله الدحداح كاتب السر والخورى يوحنا الحاج قاضي النصارى . ومن الوجوه الامير امين منصور ابو اللع وبوسف بك كرم والشيخ كنعان الخازن والشيخ صالح الخازن وترجمان فصلا توفرنسا في بيروت المجلس رهيب البطريك في صدره والمطارنة على جانبيه واكثرهم شيوخ عركوا الدهر وبعضهم درس في رومية واطلع على اخبار الامم الغابرة والحاضرة وعرف تاريخ لبنان وما تعاقب عليه من ايام النعم والبؤس . فدارت المذاكرة على احوال الجبل من حين تولاه عمر باشا النمسي فانه تولى امارته واتخذ بتدبير داراً للولاية واتخذ له مديرين الشيخ خطار العماد والشيخ منصور الدحداح الاول درزي والثاني ماروني وولى الشيخ فرنسيس ابا نادر الخازن على كسروان والشيخ ظاهر منصور الدحداح على النطوح . وولى على بلاد جبيل والبترون والكورة ثلاثة من المشايخ الحمادية فنفرت الخوازنة من انضمام ولاياتهم الثلاث الى واحد منهم ونفرت نصارى جبيل والبترون والكورة لان الحمادية مرفوعة ولا يتهم عنهم منذ نحو ستين سنة . نعم ان عمر باشا اتخذ النصارى احلافه ليرضوا بولاية الدولة وجند منهم الجنود وجعل الشنتيري وابا سمرا قائدين عليهم وكتب مصطفى باشا والي بيروت الى البطريك بشي على غيرته في خدمة الدولة وارسل اليه هدية نفيسة ظرف فنجان مجوهرات ولكن الافعال التي فعلها منيب باشا بالدحادحة والفسائس التي دس للدروز لينتقضوا على عمر باشا ويحاربوه ثم قسمة البلاد الى قائمقاميتين متناظرتين ثم الى ولايتين وتجدد الفتن واستمرارها — كل ذلك مكن الضغائن والاحقاد في قلوب النصارى والدروز

هذا من حيث اهالي لبنان ونسبتهم بعضهم الى بعض وكأنت الحروب الاهلية التي استمرت مئات من السنين لم تكف لزعزعة اركان الجبل والتشكيل باهله فتسلط عليه عاملان آخران يرميان بسهم واحد الى غرضين مختلفين الواحد يريد التشكيل بالنصارى لكي يتعزب لهم اهل ملتهم من الدول الاوربية ويسعوا في تغيير الحالة الحاضرة والثاني يريد التشكيل بهم لكي يجد سبيلاً لحماية بلاد

وكان مدار الكلام في المجمع البطريكي على شؤون الجبل وما يجب عمله في تلك الاحوال وكان كثيرون من الحضور غير عارفين الغاية المقصودة فلما شرحت لهم بهتوا



وخاف بعضهم عواقبها وكثر الجدل بينهم ولا سيما بين مطران بيروت ومطران عكا وأخيراً تكلم مطران دمشق وكان مسموع الكلمة لنقواه وقال ان نحن جرينا على الخطة التي فصلها لنا حضرة الترجمان فقد لا يكون الضرر جسيماً في نواحي لبنان ولكن المدب البعيدة كدمشق لا تسلم من الافراط ونحن هناك شرذمة صغيرة فلا تبقى منا بقية وما فائدتنا من اصطلاح الاحوال بعد ان نسمي من الغابرين. فقال له الترجمان لقد اوصينا بكم اميراً مقدماً عنكم وهو تكفل بمنع كل افراط ولا نفلن انه يصاب اكثر من اثنين او ثلاثة وقد لا يصاب احد بل يكتفي بنهب بعض البيوت وان كانت حادثة البادري توما اقامت اوربا واقصبتها والقائل مجهول فكيف اذا حدثت ثورة عامة وبدا اعتداء مقصود

وبعد جدال طويل واخذ وعطاء اجمعوا على ارسال جانب من الرجال المسلحين الى ساحل بيروت وجانب آخر الى جهات زحلة ثم يعود الفريقان من حيث اتيا

### الفصل الحادي عشر

#### المشكل الجديد

ركب الامير احمد وركب معه ثلاثة من رجاله وهم بالسلاح الكامل لان النزول الى بيروت لم يعد مأمون العاقبة تماماً. ولما وصلوا الى الغدير اضطروا ان يصعدوا الى مخاضته لان الماء كان غزيراً فيع على اثر الامطار الكثيرة التي وقعت في الشهر الماضي. ووصلوا الى بيت الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحاً. ودخل الامير احمد الى مكتب الكولونل واما رجاله فدخلوا غرفة في الدار الخارجية وكان الكولونل في انتظاره ومعه السر هنري بدمونت فرحباً به وكان البرد شديداً مع ان الجو كان صافياً والشمس مشرقة وقد اوقد الكولونل ناراً كبيرة في موقد حديدي دفنت بها الغرفة. ولما استقر المقام بالامير قال له الكولونل بلغني ان ابناء عمك وجمهور المشايخ عازمون على مقاومة القوة بالقوة وهم على تمام الاستعداد وان دروز وادي التيم متحفزون مثلكم وقد كاتبت دروز حوران وعربها وكلهم قلب واحد معكم فقال الامير لا يمكننا ان نخفي استعدادنا ولكن غرضنا محصور في الدفاع فاذا اعتدوا علينا اضطرننا ان ندافع عن انفسنا

الكولونل — ان كلمة الاعتداء كلمة مبهمه غير محدودة فعداً يتهارش كلبان او يتغاضم رجلان او يقتل زيات في احد الاطانات فتقوم القيامة ويدعي كل فريق انه اعندي عليه. وما دامت القلوب ملائنة فلا بد من افراغها وقد كنت اظن ان كلامي لك في السنة



الماضية اقمك بالعدول عن هذه الخطة وجعلك تقنع ابناء عمك بالعدول عنها فلا ارى حتى الآن الا تقام الشر والتخمس للقتال وتوالي الاجتماعات في كل خلوة والانصياع لمشورة الوالي فقل لابناء عمك ان مساعدتنا لم تصل الى حد محدود ودفاعنا عنهم لا يجدي نفعا الا اذا كان الحق في جانبهم فان الحق هو الذي يقوينا على الدفاع

الامير - كن على ثقة يا سعادة القنصل اننا لا نكون البادئين . وانا معكم في ان كلمة الاعتداء غير محدودة المعنى ولكنني اؤكد لسعادتك اننا غير عازمين ان نلجأ الى القوة الا اذا ظفح الكيل فاذا قتلوا منا واحداً هنا وواحداً هناك واعندوا علينا في جهات مختلفة فمهما توفي خاصتنا وبذلوا من الجهد في تسكين العامة فالعامة لا تستكن ولا تسكت ومحال على احد الفريقين ان يمنع الشر اذا اراده الفريق الآخر لان الفريق الذي يريد بتذرع اليه بكل وسيلة فلماذا لا يجمع القناصل كلهم ويوجبون على النصارى ان يكفوا عن الابتداء بالشر فتنهذ الكولونل ونظر الى صورة معلقة امامه على الحائط تمثل ملكة الانكليز والامبراطور نيوليون الثالث واقف امامها يقبل يدها فقال في نفسه ما ابعد الظواهر عن البواطن وكيف يركب اهل السياسة كل مركب خشن في سبيل الوصول الى مقاصدهم . وكان قد بلغه اجتماع المطارنة والمشايع في دار البطريرك فان قواس القنصلاتوسمع الترجمان يتكلم مع المطران وهما راجعان على الخطة التي قرر القرار عليها وكان قواس قنصلاتوانكثرا نسبياً له فاخبره بما سمع وهذا اخبر الترجمان واتصل الخبر بالقنصل فراه معقولا ومنطقاً على ما اتاه الخبر به من وزارة الخارجية بناء على ما وصلها من السفارة في باريس فاستدعى الامير احمد لكي يحذره وكان يعلم ان الوالي يحرّض الدروز . واذا سمعت كلام الفريقين لا تجد عليهما مسكاً ولا تقطع بان الشر ينتج عنه . واي لوم على من يقول لك كن على حذر واعلم اني لا اتركك اذا رايت عدوك اعندى عليك او يقول لك استعد لحضمك ولكنك اذا رايت اعندى عليك فلا تقابل القوة بالقوة فتضعف حجتك وتمنع صدقك من مساعدتك بل استمت لحضمك قليلاً فيأتي الصديق لمعونتك وتكون الغلبة اتم . القولان سياسيان محكمان واغراض اهل السياسة لا تنال باقل منها هذه الخواطر خطرت كلها على بال الكولونل في تلك اللحظة التي كانت ينظر فيها الى الصورة فان الافكار اسرع من الكهربائية في حركتها وهي مثل صورة كبيرة تمثل معركة من معارك القتال او حادثة من حوادث التاريخ تلجها لمحة واحدة فتنبئ لك تلك الواقعة او الحادثة بملاساتها الكثيرة في لحظة من الزمان

ثم التفت الى الامير وقال له ان الذي اراه وتدل الدلائل كلها عليه هو انكم اذا



تهياتم للحرب فالحرب حادثة لا محالة واذا لم نهبأوا لها لم تحدث واذا حدثت فلا بد ما تدور الدائرة على النصارى وحينئذ تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم وربما لا تمضي بضعة اشهر حتى تروا بوارجها في مرفأ بيروت وجنودها على ربي لبنان وانتم ادرى بما تصير حالكم اليه حينئذ وقد نقول لي كيف يمكن ان نصل الى هذه النتيجة والوالي بحر ضنا على القتال فاقول لك ان الوالي قصير النظر في العواقب وهو واضرابه في القسطنطينية يرمون الى غرض آخر وربما نحقق امنيتهم ولكنهم لا يعاؤون بكم لان السلطنة واسعة فلا يحسبون حساب بقعة صغيرة مثل لبنان ولكن لو علموا ان العاقبة تكون كما نقدر الدول الاوربية لعدلوا عن هذا التجريض

فادرك الامير غرض الكولونل تماماً ولكنه كان يرى يده مغולה عن العمل لا سيما وان امراً آخر شغل باله منذ شهرين من الزمان فان امه كانت تحبب اليه الاقتران بالاميرة سلى ابنة خالته وهذا كان غرض خالته ايضاً وكانت الاميرة سلى تنظر اليه كما تنظر الى اخويها واذا كلمتها خالته في ذلك تليحاً غيرت الموضوع ولم تبد الرضا التام فلما دنا زفاف الاميرة صفا طلبت منها خالته جواباً صريحاً فاجابتها انت ترين اضطراب الاحوال يا خالتي والشهايون عن بكرة ابيهم لا يهتمون ذكر الارسلانيين فما هذا وقت النظر في هذه الامور فعادت خالته واخبرت ابنها بذلك فزاد الشغل باله وكان قد رأى اضطراب الاميرة سلى واحمرار وجهها لما شاهدت السر هنري بدمونت فاجس شراً حتى لم يعد يدعوهُ الى الشويقات وكان وهو يكلم الكولونل روز في هذه النوبة ينظر الى السر هنري من وقت الى آخر وهو يحسب انه يرى امامه خصماً عنيداً حتى اذا فرغ من الحديث السياسي التفت اليه السر هنري باسمماً وقال له عسى ان تظمن القلوب فنعود الى التفتيش عن المفارة

فلم يسهه الا العود الى المجاملة فقال له لا ارى الآن ما يمنعنا من التفتيش ففعال شرفنا وقتنا تريد فشكره السر هنري ووعده بان يزوره بعد ايام قليلة ثم قال له ولكن ما هذا الخبر الذي سمعناه وهو ان العروس التي حضرنا عرسها خطفت من بيت عريسها

فقال الامير احمد نعم وقد اشاعوا ان الجن خطفتها خرافات العجائز والحقيقة مجهولة حتى الآن فمن قائل ان واحداً من الفلاحين اي من غير الامراء كانت تحبهُ وقد انفقت معه على الحرب ومن قائل انها كانت تريد ان تذهب فنعها ابوها من ذلك لكنها انفقت مع بعض الراهبات فخرجت الى بيت سيف جوار بيت عريسها ولبست هناك لبس الراهبات وهربت معهن ومن قائل غير ذلك وابوها غير مهم بها والفتاة التي لا ام لها ليس لها من مهم بامرها



فقال السر هنري بلغتنا هذه الاخبار ثم لم نعد نسمع عنها شيئاً فظننا انكم اهتديتم اليها  
فقال الامير كلاً وانا قلما اسمع شيئاً من اخبار الشهابيين الآن غير ما يتعلق بالقتال  
التي في الجبل ولو لم تكن خالتي امرأة عمها ما كنت سمعت عنها شيئاً

ثم قام وودّع القنصل والسر هنري وطلب القنصل منه ان يبقى عنده للغداء فاعذر  
بانه مدعو للغداء عند احد اقاربه . ومر في طريقه على بيت ابي نحر وهو لا يلتفت يمنة ولا  
يسرة مخافة ان يرى ذلك الرجل فيضطر ان يكلمه لكن ابا نحر كان جالساً امام الباب فلما رآه  
قادمًا قام لاستقباله ودعاه لينزل ويشرب فنجان قهوة فاعذر بقرب اذان الظهر وبان عمه  
في انتظاره فجادله ابو نحر وكانت السماء قد غامت وابدأ وقوع المطر فلم ير له بداً من  
التخلص منه باية واسطة كانت فودعه واعمل المهاز في شاكلة جواده وكان لعمه دار في  
بيروت يشقي فيها فسار اليه مع رجاله الثلاثة وهم يعدون عدواً وكان في الطريق صبية  
يلعبون تحت المطر فلما رأوا الخيل عادية قاموا ليهربوا من وجهها فهرب واحد منهم اليها  
فداسه فرس احد اتباع الامير وخرجت امه في تلك اللحظة لترى سبب عدو الخيل فראت  
ابنها يخنبط بين قوائم الفرس فجعلت تزعق وتصرخ واجتمع النساء على صياحها وعلت الضوضاء  
وترجل الامير ليرى ما حل بالولد فترجل رجاله معه وكان في قهوة مجاورة كثيرون من  
اهل العيلة فالتفتوا عليهم وكان الولد حياً ولكن كسرت ذراعه وشدخ رأسه ونزف الدم  
الكثير منه واتفق مرور ضابط في ذلك الطريق ومعه بعض الجند فزاد صياح النساء وعرف  
الضابط الامير فطلب منه ان يذهب معه الى الوالي وحمل الجند الولد لكي يمضوا به الى حيث  
يقيم طبيب العسكر واعطى الامير احمد ام الولد كل ما معه من النقود فرمته بها وهي تقول  
قتلت ابني وانت تبرطني بعرشين وحاولت ان تلحق به فردها العسكر عنه فجعلت تتناول  
الحجارة وترشق بها ووقع حجر منها على فرسه ففرس وجمع وكاد يثفام الخطب ويبناهم علي  
هذه الحال مر بهم الوالي ذاهباً الى الجامع لاجل صلاة الجمعة فترجل الامير ورجاله حالاً  
ودعاه الوالي للذهاب معه فوقع في حيرة لا هو يريد ان يخالف امر الوالي ولا هو يستطيع ان  
يحييه اليه وان اجابه فقد لا يسمع له بدخول الجامع . واذا جاءت المشاكل ضاقت حلقاتها حتى  
يضيق المرء بها ذرعاً مهما كان رحب الصدر واسع الحيلة . هنا ولد مضرج بالدماء وامه تصيح  
وتستغيث واهالي بيروت يستحقون باهالي الجبل كلهم ويعدونهم فلاحين ولو كانوا امراء ومن نسل  
الملوك . والوالي الذي يفضل الامير احمد ان يخسر اية خسارة كانت ولا يراه في ذلك الوقت  
امرّه بالذهاب معه والدخول الى الجامع والصلاة فيه وهذه مشكلة اخرى لم يكن ينتظرها نعم



ان بعض اعمامه تظاهروا بالاسلام ولكن ذلك لم يكن من مذهبه فوقع في حيرة ولا حيرة الضب

## الفصل الثاني عشر

### بواد الحب

بذلت الوسائل كلها في التفتيش عن الاميرة صفا لا من قبل اييها لانه كان قليل الاهتمام بها بل من قبل عريسها وذويه فانهم حسبوا اخفاءها عاراً لا يمحى وزادهم قلقاً تلبس الامر عليهم فبعثوا بالرسل الى كل ناحية وصوب بعد ان فتشوا بيوت القرية كلها فلم ينفوا لها على اثر وكان يأتهم كل يوم رجل بخبر جديد فيبحثون ويفتشون فلا يجدون خبرهم صحة وجاءهم رجل ذات يوم وقال انه كان ذاهباً الى جهة بسكنتنا فامسى عليه المساء وغامت السماء تخاف من المطر والليل حالك الظلام والطريق وعرا لا يسلك ولا سيما بعد ان مر في السيل وخرّبته فقصده ديراً من اديرة الراهبات قريباً من الطريق وطلب من البواب ان يسمح له بالنوم عنده فامتنع البواب اولاً عن اجابة طلبه ثم رأى اشتداد الريح تخاف ان يوت برداً اذا لم يسمح له بالمبيت عنده ونحو نصف الليل قرع الباب فقام البواب وفتح واذا امام الباب رجلان معهما امرأة في زي راهبة وهم راكبون خيولاً فدخلوا بها ووقف الثلاثة في الصحن الخارجي ودخل البواب وقرع الباب الداخلي فجاءت راهبة فتخذه وادخلت المرأة واقفلت الباب وعاد الرجلان من حيث اتيا

فلما سمع الامير ذلك قام في نفسه ان هذه المرأة هي عروسة نفسها لانه شاع وذاع انها كانت عازمة على التهرب فقام من ساعته ونزل الى بيروت واخبر المطران بما سمعه من هذا الرجل فاكد له المطران ان الخبر كاذب لان الراهبات لا يقبلن فتاة عندهن ما لم يأت بها اهله ولا سيما بعد ما حدث من القيل والقال في مسألة الراهبة هندية اما الامير فلم يكتف به هذا النبي بل طلب من المطران ان يرسل ويتحقق له الامر فقال ان هذا خاص بيدينا البطرك وسارسل الان اخبره بما وقع وانتظر اوامره وكان مع الامير كيس فيه عشرون ذهباً فقدمها الى المطران اجرة فداديس فامتنع المطران عن اخذها اولاً ثم اخذها وقال للامير كنت اظن انك تسمح لنا بنصف المطحنة كما سمحت امك بالنصف الآخر حتى تصير كلها للكرمي فعبس الامير لان ايجار المطحنة السنوي ثلاثة آلاف غرش ولو اراد ان يبيعها لبيعت بثلاثين ألفاً او اكثر ولكنه عاد فرأى حرج موقفه فقال للمطران الذي نقوله سيادتك يصير . وانفقا على ان يكتب له حجة بالنصف الثاني من المطحنة فتصير كلها للكرمي



وكانت الاميرة سلى اكثر الشهايات اهتماماً بفقد ابنة عمها لانها عشيرة صباها وقد ربينا معاً وحالما بلغها الخبر عرفت حقيقته ولكنها كانت تحسب ان ابنة عمها عدلت عن عزمها ورضيت بما قسم لها فان صفا كانت قد اخبرتها بما عزمته عليه منذ اكثر من نصف سنة ثم لما حج الامير قاسم في طلبها ولم تر لها مناصاً من قبوله ولا سيما بعد ما رأت من اضطهاد زوجة ابيها لها ورأت ان سلى لا تشجعها على عزمها وغاية ما في الامر انها طلبت منها ان تترك بيت ابيها وتأتي وتسكن معها - لما رأت منها ذلك تظاهرت بالقبول ولم تعد تبوح لها بشيء وكانت كبيرة النفس قليلة الكلام فديرت امرها على مهل وكانت تعلم خطر السبيل الذي سارت فيه ولكن لسان حالها كان يقول

اذا لم يكن الا الاسنة مركبٌ فلا يسمع المضطر الأركوبها

وكانت الاميرة هند كثيرة الوهام تصدق ما يقال عن الجن والعفاريت فقام في نفسها ان الجن خفطت ابنة سلفها لكنها رأت الامر فادحاً رهيباً حتى لم تجسر على التفكير فيه بل خافت ان تذكر ابنتها به ومرت الاميرة سلى باعتقاد امها ذلك لكي لا تضطر ان تكذب عليها اذا سألتها عما تعلمه من امر ابنة عمها لكنها بقيت مضطربة البال عليها ولم يعد بينها لها عيش ومرت الايام وهي لا تزيد الا قلقاً وكثيراً ما كان يخطر ببالها السر هنري بدمونت فنسره بالخطر وتجاريه او تنفيه من ذهنها وتسلى عنه بعمل عمله او كتاب نقرأه ثم كثير تردده في بالها ولم يعد يفارقها بسهولة فقلقت اولاً من جراء ذلك ثم رأت انها مدفوعة الى محبته رضية او كرهت فلم تعد تحاول المحال بمحو صورته من ذهنها وصارت تود ان تراه او ترى منه اقل علامة تدلها على ان في قلبه مثل ما في قلبها. ولما مضت ايام كثيرة ولم تره ولا سمعت عنه شيئاً صارت تقيم في رواق يشرف على طريق الشويفات وكما رأت فارصاً احدثت بنظرها اليه - ولم تنقطع عن لوم نفسها وكثيراً ما قامت الحرب بين عقلها وقلبها - يقول عقلها هذا شاب اجنبي رأيت مرتين لا غير والمرجح بل المؤكد انه نسيك الان ولم تعودى تخطرين بباله فما هذا الغرور بل هذا الجنون فيحييه قلبها لو لم يكن في قلبه عاطفة الي ما كان في هذه العاطفة اليه والا فما معنى قولهم ان القلوب شواهد والحب متبادل ناهيك عن انه في المرتين اللتين رأيتيه فيهما نظر اليه نظراً غير عادي وفي المرتين كان الحياء يصنع جبينه وكان يسترق اللعظ واذا نظرت اليه غص طرفه ولم ار شيئاً مثل ذلك في كل الشبان الذين عرفتهم ولا في احمد - ثم يخفق فوادها وتشعر كأن حجراً ثقيلاً وضع على صدرها وهي تحاول كتمان ما بها عن كل احد



## الفصل الثالث عشر

## حل مشكلة

وقف الامير احمد امام باب الجامع وهو يضرب اخماساً لاسداس فضاقت في وجهه المذاهب وتصبَّب جبينه عرقاً بارداً ورأى الوالي حيرته فتظاهر بأنه لم ير شيئاً ووقف معه يكلمه في الصحن والجماعة تصلي وراء الامام ثم دار معه ومشيا الى جهة الميضة وكان يحسن التركية والوالي يسرُّ بحديثه وقد علم انه آت من دارقنصل الانكليز لكنه لم يشر الى ذلك بل حصر الكلام في تغلب النصارى على الدروز في حادثة بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي وكيف انهم اثنوا فيهم وحرقوا قراهم . قال وانت تعلم غيرتي عليكم وحسابي اياكم سيف الدولة ولكن الصدر الاعظم لم يكن يهتم بشكاوي حينئذ الاهتمام الواجب لانشغال الدولة بامور اخرى اهم من مسائل لبنان فلما تمهدت تلك الامور اتجه الالتفات العالي الى الجبل وفي النية قصاص الذين سبوا هذه الفتنة . وها عمك وجميع المناصب والمشايخ موافقون على ذلك ويقيني انك انت معهم ايضا

فقال الامير انا ابن الدولة وعندها المطيع . وكان كلام الكولنل روز لا يزال يتردد في ذهنه وهوانه اذا دارت الدائرة على النصارى تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم . وصمت قليلاً ثم قال ولكن هل تأذنون دولتكم لي في الكلام بحرية وصراحة . فقال الوالي قل ما تشاء فقال هب ان الحرب الاهلية نشبت وانا انتصرنا على خصومنا بمعونة الله وبتأييد دولتكم لنا افلا تكون النتيجة ان دول اوربا ترسل مراكبها الحربية وتحمل البلاد حالاً فتبسم الوالي وقلب شفثيه وقال كن مطمئن البال من هذا القبيل فان دول اوربا متخاضمة متناظرة ولا يمكن لدولة منها ان تسمح لآخرى باحتلال هذه البلاد . واحب ما علينا ان تقع المنافسة بينهم حتى نخالص من شرهم

الامير احمد . حلك يا افندينا فانا قرأت في التاريخ ان دولة واحدة منهم تحسب حامية المسيحيين في الشرق والدول الباقيات يسلمن لها بهذا الحق

فقطب الوالي وجهه لكنه قال ان هذا الكلام حبر على ورق فدولة فرنسا تدعيه ودولة المسكوب تنازعها فيه . والحق للقوة ألا ترى ان الفرنسيين ساعدوا محمد علي والانكليز قاوموهم وغلبوهم وانا واثق ان الانكليز معنا في هذه النوبة ايضا ولذلك لا الوملك لاجل ترددك على قنصلهم ألا ترى انه معنا



والثفت الامير احمد حينئذ الى الجامع فرأى الناس قد اخذوا في الخروج فقال في نفسه اني اخلص من مشكل واقع في آخر لكنه كان قوي البداعة فاجاب الوالي قائلاً نعم اني ارى منه كل تشجيع لنا وغيره على دولتنا ويظهر لي من كلامه ان الانكليز لا يزالون مخاصمين للفرنسيين ولا يهون عليهم ان تحتل فرنسا هذه البلاد

وكانت الجماعة قد خرجت من الجامع كما تقدم فصار الوالي والامير احمد معه وخرجا من الباب الخارجي كأنهما صليبا مع الجماعة وخرجا معها وهو امر عادي للولاة والحكام يدخلون المعابد ويقفون في صحنها يتحدثون مع خواصهم في شؤون مختلفة وهم يحسبون انهم اتوا وعبدوا مثل غيرهم كأن الكبراء معنون من القيام بشعائر الدين . ومُري عن الامير احمد لانه كان يكره الرياء ولكنه لم يكذب في الشارع مع الوالي حتى رأى المرأة التي ديس ولدها واقفة له في المرصاد وهي تصيح وتخب فسأل الوالي عن قصتها فقبل له ان جواداً من خيل الامير داس ابنها . فوقف وادار رأسه الى الامير وشمخ بانفه كأن لسان حاله يقول له مسكتك وكيف تنجو من يدي . فقال الامير نعم ان ابنها وقع في الطريق فرسه فرس رجل من اتباعي ولكن المسألة عرضية

فقال الوالي ألم يدسه فرسك . فقال الامير كلاً بل فرس رجل من اتباعي وهو له ليس لي ومع ذلك فالمسألة عرضية وقد نقل الى المستشفى فاسف الوالي على ما بدر منه واراد ان يحو تأثير كلامه من ذهن الامير احمد فدعاه لزيارته حينما ينزل ثانية الى بيروت وقال لرئيس الضابطة وكان سائراً وراءه خذ هذه المرأة من هنا ولا تدعني ارى وجهها . ثم ودع الامير احمد وسار في طريقه فوقف الامير الى ان ابعد عنه ثم ركب جواده واسرع الى بيت عمه وهو لا يصدق بالنجاة من هذه المشاكل المتوالية

فلما وصل الى بيت عمه وجد عمه والبعض من مشايخ البلاد في انتظاره فهناؤه بالسلامة لان احد اتباعه كان قد سبقه الى هناك واخبرهم عن اللقاء الوالي به واخذوه معه الى الجامع بعد ما جرى للولد ما جرى وكانوا يخافون ان يمنع من دخول الجامع مع الوالي او يأخذه الوالي بحجرة الرجل الذي داس فرسه الولد فتفضي الحال الى ما لا تحمد عقباه فلما وصل قص عليهم ما جرى له مع الوالي في صحن الجامع وكلام الوالي له وكانوا كلهم من رأي الوالي ويظنون ان انكثرا تساعدهم نكابة في فرنسا أما هو فأكدهم ان انكثرا لا تساعدهم بل تطلب منهم ان يلزموا السكينة ولو اعثدي عليهم . فقالوا له اذن تكون العاقبة



وخيمة علينا ولا نعود نستطيع السكن في البلاد بل نضطر ان نرحل منها واروه مكاتب واردة اليهم من دروز حوران ووادي النيم فقرأوا وتمعن فيها ملياً وجاراهم في الحديث . ثم جلسوا للطعام وغيروا موضوع الكلام امام الخدم وجلسوا بعد ذلك ينظرون في تدبير المال اللازم لما يقصد من الاعمال لان الوالي وعد بكل مساعدة حتى بالرجال والسلاح ولكن خزنته افرغ من جراب ام موسى . وكان الخواجه بخور قد انتقل الى بيروت بعد ما وقف على رأي الامير المغربي فزاره عم الامير احمد وطلب منه ان يقرضه الف كيس اي خمس مئة الف غرش وهو يرهن له ما يملكه من الزيتون في صحراء الشويفات واختلفا على المدة ومعدل الربا فالامير طلب ان تكون المدة اربع سنوات ويكون الربا اثني عشر في المئة والخواجه بخور طلب ان تكون المدة سنتين فقط ويكون الربا عشرين في المئة وان الامير احمد يضمن الدين مع عمه ولذلك لم يتفقا

وجاء الخواجه بخور حينئذ لرد الزيارة ومشاهدة الامير احمد لانه كان يعرف اباه وكان بينهما صداقة قديمة . ولم تطل اقامته حتى اتصل الكلام الى مسألة الدين . فقال الخواجه بخور لقد بلغت الديون التي استدانها منا جمهور المشايخ والبكوات حتى الآن اكثر من ثلاثين الف كيس وكلها بفائدة عشرين في المئة فلا يخلصنا ان نعطيكم باقل من هذه الفائدة لان النقود صارت عزيزة في هذه الايام ولا سيما بعد ما عقدت فرنسا قرضاً وعقدت سردينيا قرضاً آخر استغرقا كل الاموال التي في ايدينا وانتم تعلمون مقدار القلاقل المنتشرة في البلاد كلها ولولا علي ان الفوز يكون لكم اخيراً لان الدولة معكم ما كنت اخطر بفرش واحد ولكن مع ذلك من يدري ماذا تكون العاقبة

فجعل الامير احمد يتوسل اليه ليتساهل مع عمه ويجعل الربا خمسة عشر في المئة ويعفيه من الضمان لان عمه يستعيب ذلك . ومما قاله له ان الاملاك التي سيرهنها عمي لك تساوي خمسة آلاف كيس على الاقل افلا ترهنها على الف كيس لقد زدتموها يا خواجه بخور وهذا ليس من العدل ولا من الانصاف ونحن اصدقاء من زمان طويل

فقال الخواجه بخور ليس في اليد حيلة يا امير احمد وانت تعلم اني لست وحدي وان اولاد عمي لا يتنازلون عن غرش واحد

فاخبره الامير احمد انه استدان من بيت طراد ولم يدفع سوى ١٢ في المئة نعم ان المبلغ الذي استدانته زهيد ولكنه لو طلب منهم الف كيس بهذه الفائدة لا عطوه فاجابه الخواجه بخور ان هذا يكاد يكون ضرباً من الحال في هذه الايام وانه لو طلب



منهم اليوم ودفع لهم عشرين في المئة لرأى انهم يعتذرون عن اعطائه مئة كيس بهذه الفائدة ولكن كلام الامير احمد عن بيت طراد حل عزائم الخواجه بخور فقال في نفسه يجب ان نجتمع كل اصحاب البنوك الذين يدينون ونتفق على معدل واحد حتى لا يضر بعضنا بعضاً وبعد جدال طويل اتفقوا على ان يكون معدل الربا ثمانية عشر في المئة وان تكون المدة ثلاث سنوات ويكتفي الخواجه بخور بالرهن ولا يطلب ضمان الامير احمد ثم التفت الخواجه بخور الى الامير احمد وسأله عما اذا كانت الاملاك تساوي خمسة آلاف كيس حقيقة فقال نعم وهذا لا يقبل الغلط فانها خمس مئة قنطار من اغراس الزيتون والقنطار يساوي خمسة آلاف غرش على الاقل فقال الخواجه بخور اذاً يمكنه ان يستدين عليها الف كيس أخرى فنحن تحت امرك وامر عمك

وعاد الخواجه بخور الى مكتبه فوجد انه اتاه تحويل على خزينة بيروت بثلاثة آلاف كيس لان شركاه في لندن وثينا كانوا يدفعون الاموال في الاستانة ويأخذون بها تحويل على خزائن الولايات فأسقط في بدو لان اليوم كان الجمعة والخزينة مقفلة واليوم التالي السبت لا يستطيع ان يعمل فيه عملاً فيضيع عليه ربا يومين فجعل يشتم ربا السفينة التي لم توصل التحويل يوم الخميس وعد ذلك من جملة الخجوس التي توات عليه تلك السنة وعاد الى بيته منغص العيش كأنه خسر خسارة كبيرة لا تعوض

### الفصل الرابع عشر

#### الاميرة صفا

مضى شهران على اخفاء الاميرة صفا ولم يعلم احد مقرها لكن زادت الاشاعات بانها ترهبت في احد الاديرة وكتب المطران الى البطريرك ويحث البطريرك في الدبر الذي اشار اليه الامير قاسم فلم يجدها فيه ولا وجد ان راهبات الدبر يعمن شيئاً من امرها . وكان ابوها يظن انها هربت مع شاب من الفلاحين فحُرمت ميراثها من امها لان الشاب غني جداً وكان يحبها ويود الاقتران بها ولكن الشهابيين لا يزوجون الفلاحين ولو صاروا من اقر الناس وصار الفلاحون من اغنام . وقد قال هذا الشاب لابيها انه يتنازل له عن ميراثها من امها وكان وافراً جداً فان امها من نسل الامير بشير الكبير وقد ورثت منها جنائن وبساتين في الحداث والشياح ووطا نهر الكلب وضياعاً ومزارع في بلاد جبيل وسهل البقاع قال ابوها الى



تزوجها بها ولكن اخوته وابناء عمه منعه من ذلك وهي لم تكن تميل الى ذلك الشاب . واتفق  
انه كان غائباً وقت زواجها فاتهموه باخطافها ولكنه عاد من غيبته وانضح انه لم يكن عارفاً  
بما يجري لها لانه لما رأى اصرار اهلها على تزويجها بالامير قاسم سافر الى مصر لكي يسألها .  
فلما رأى ابوها ذلك انشغل بالله وخاف ان يتحقق امر ترهبها فيطلب منه ان يسلم كل ميراثها  
من امها وكان كذلك فانه بينما كان ذات يوم يفكر في هذا الامر جاءه رسول من دير  
الغازية في بيروت ومعه كتاب من ابنته له فلما قرأه اظلم الضياء في عينيه وقام من  
ساعته وجاء الى بيت اخيه الامير عباس ابني الاميرة سلى لانه كان اكبر منه سنّاً واوسع  
خبرة واره الكتاب فارغى هذا وازيد وشم ولعن وقال لـ اخيه قلت لك لا تدع هؤلاء الراهبات  
يدخلن بيتك وليس طمعن بصفا بل بالجنائن والبساتين والضياع والمزارع . ما دمت لا صقين  
بهذه الخفمة صبروك على الارض . هذا قاسم الحمار وهب الخفنة كلها للطران لكي يفتش له عن  
صفا وانا احلق لحيتي ان كان الطران لا يعلم انها ذهبت مع الراهبات وان ذلك بعلمه وبدسيسته .  
هذا امر لا نخشاه ولا نطيقه لم يقع مثله لبيت شهاب من اول مجيئهم الى هذه البلاد الى  
الآن . اسمع ماذا نقول لك في مكتوبها نقول انها فرحة جداً لانها تستطيع الآن ان تصلي  
لاجل خلاص نفسك واهتداء عمها . من كان يمنعها عن الصلاة وهي هنا الا يسمع الله في  
لبنان كما يسمع في ايطاليا ولكن ليس العبرة هنا بل العبرة في قولها انها نذرت لله ان تساعد  
الفقراء والمساكين بكل ما تملكه اي بكل ما ورثته تكفيراً عن تقصير امها لان نفسها لا  
تزال في المطهر . قم لعبوا عليك واخذوا ابنتك ومرادهم ان يأخذوا اموالك . ثم اسمع ماذا  
نقول انها مسبوطة جداً ولكن البرد شديد في تلك البلاد وهي مصابة بركام شديد . غداً يتحول  
معها الى سل في تلك البلاد الباردة وتموت . من يذهب من هنا الى ايطاليا في فصل الشتاء  
غير المجانين

فلم يقل الامير فارس شيئاً بل جلس يفكر في الامر ويمص المصّة بعد المصّة من الشبق  
الذي في يده ويطلق دخانها في الجو حتى صار حوله سحابة من الدخان وهو يقطب حاجبيه  
تارة ويرفعهما اخرى كأنه يفكر في مسألة ابنته . والامير عباس يعيد تلاوة المكتوب وينظر  
في معانيه . واخيراً قال الامير فارس ليس لنا الا قنصل فرنسا فهو محتاج الينا الآن فاذهب  
اليه انا وقاسم ونطلب منه ان يرجعها حالاً ولا نخرب طينته كلها

فقال الامير عباس وهذا لا يكفي بل يجب ان نتهددوا المطران بالرجوع الى الاسلام  
ان هو اصر على عدم اجابة طلبكم فاني اخاف ان قنصل فرنسا لا يستطيع ان يفعل شيئاً من



هذا القبيل لان الامبراطورة في بد الا كليوس لا تحالف لم امراً ولا تجمران تطلب منهم شيئاً والامبراطور في يدها . وعلى كل حال لا ضرر من الذهاب الى الاثنين الى القنصل والى المطران

وكتبت الاميرة صفا الى الاميرة سلى وارسلت الكتاب ضمن كتابها الى ابيا يسلمه اليها وهو باللغة الفرنسية ونقول فيه

اخوتي وشقيقة روجي

اطلب السماح منك يا حبيبي ومن والدتك الحنونة لانني فارقتكما على هذه الصورة وقد كنت اعلم لما ودعتك وودعتها انني قد لا اعود اراكما في حياتي فتصوري مقدار كآبتي حينما خرجت من بيت ابني ووقع نظري آخر مرة على الوجوه التي احبها وعلى المناظر التي قضيت فيها زهرة عمري . على الاماكن التي كنا نلعب فيها معاً والاشجار التي كنا نجلس تحتها . كل ما كنت اتسلى بتربيته من الطيور والرياحين والازهار كل شيء من ذلك له مكان في قلبي ولكن المكان الاول فيه هو لك ولأمك ولقبر المرحومة والدتي . آه يا سلى كم اود ان اراك الان واسمك الى صدري ونذهب معاً الى قبر والدتي فاضع خدي عليه واغسله بدموعي . صدقيني يا سلى اني تركتكم كلكم لاجلها لكي اخلص نفسها لا بد من ان يكون الناس قالوا اقوالاً كثيرة واتهموني تهماً لا اصل لها الله يسامحهم اما انا فكنت اشعر اني اخترت النصيب الصالح . ولا يحق لقاسم ان يلومني لانني اخبرته صريحاً انه يستحيل علي ان اقترن به بعد ان كرست نفسي لمخلصي فلمؤ على نفسه وكذلك لا يحق لابي ان يلومني . ومع ذلك فاني اصلي لاجلها دائماً كما اصلي لاجل ابيك وامك ولا تظني يا حبيبي اني صرت الآن اسعد مما كنت كلاً غير اني ارجو ان يغفر الله لي ولكل الذين احبهم . نولي غني بتقبل والدتك وتقدم الاحترام لوالدك

ولما قرأت الاميرة سلى الكتاب وترجمته لامها جلست الاثنان تبكيان وشعرت الاميرة سلى كأن بلاطة وقعت على صدرها فلم تعد تستطيع التنفس ومضت ساعة من الزمان وهي تعود الى البكاء كما وقع نظرها على امها . وصفت امها يديها فاتوها بالنارجيلة والقهوة فجلست تسلى بالتدخين وقالت لابنتها هل كنت تعلمين يا سلى عزم صفا على الترهّب . فقالت اخبرني صفا بذلك مراراً ولما رأت اني لم اصوب رأيها لم تعد تكلمني به والظاهر انها لم تصم الا قبل العرس يوم او يومين

فقالت امها لا تخافي الا من النهر الهادي من كان يظن ان صفا تقدر على هذه الحيلة



ولكن ماذا نقول وماذا نتكلم ابوك يشمت بنا وخالتك تشمت بنا وابن خالتك يشمت بنا فالصمت اولى . قال عمك انه سيذهب الى المطران وقنصل فرنسا هو وقاسم ولكن لا فائدة من ذلك وستكون عاقبة تشديدنا انهم لا يعودون يدعونها تأتي الى هذه البلاد . ما خلصنا من سيرة القديسة هندية حتى وقعنا في قصة ابنة عمك . غداً ترين تطويل السنة الفلاحين علينا الله يهونها

ومررت ساعتان وهما في حديث مثل هذا ودخل الامير عباس وجلس الى جانب زوجته واتاهما احد الخدم بمنقلة وقال الامير عباس اخذت مني عشرين غرشاً امس ولا بد لي من استرجاعها فقالت له ستخسر عشرين فوقها . ثم اخذا يلعبان لكن الاثنان كانا مشغولي البال وقبلما اتما الدق الاول قالت الاميرة هند هل تظن انهم ينجحون في ارجاعها . فقال لا اظن لانهم طامعون باملاكها فان املاكها تساوي اكثر من ستائة الف غرش ولا بد ما توقفها كلها للدير وانا خائف على صحتها لانها تقول في مکتوبها الى ابيا انها مصابة بركام شديد فتنهدت زوجته وقالت يجب ان ندير بالنار على سلى فان اخي كلمني عنها مرات كثيرة واحمد ميت حتى ياخذها ولكن هي لا تلتفت اليه ولا سيما بعد ان زارنا هذا الشاب الانكليزي الامير عباس — ماذا تقولين ماذا تقولين الشاب الانكليزي متى زارنا هذا الشاب الاميرة هند — رأيته مرة ونحن عند النجمة كان ماراً هو واحمد ثم دعاه احمد لحضور العرس ألم نره حينئذ

الامير عباس — نعم رأيته امدا هو . نعم رأيته ولكنني لم اسأل عنه  
الاميرة هند — يقول احمد انه وكيل القنصل وانه من امراء الانكليز  
الامير عباس — من امراء الانكليز ويكون وكيلاً للقنصل لعله افتقر مثل كثيرين من الشهابيين

الاميرة هند — يقول احمد انه من الامراء الاغنياء ولكن امراء الانكليز مهما كانوا اغنياء يخدمون في اصغر الوظائف السياسية وقد جاء الى بر الشام لكي يفتش عن قبر واحد من اجدادهم قال انه قتل قرب بيروت ودفن في جهات الشويقات او كفرشيا . سلى تعلم عنه اكثر مني فانها سمعت كل كلمة قالها احمد وسمعت اشياء اخرى عنه من الخدم فاذا كانت تتعلق به فهناك المصيبة

الامير عباس — لماذا تكون مصيبة لم يتزوج عبدالله بابنة تشرشل بك الانكليزي فان كان هذا الامير كريم الاخلاق شهماً فلا مانع عندي ولكن ان كان افاقاً مثل كثيرين



من الافرنج الذين يأتون البلاد الشرقية للارتزاق والاكتساب فينبغي ان لا ندع له سبيلاً إلينا . ثم صفق يديه فدخل الخادم فقال له نادر سلمي . فدخلت الاميرة سلمي ويدها كتاب كانت تقرأ فيه وجلست الى جانب امها . فقال لها ابوها ما قصة هذا الامير الانكليزي فاحمرّت وجنتاها وخفق فؤادها وقد باغتها سؤال ابوها مباغته فلم تدر بماذا تجيب لكنها كانت مريضة الخاطر تعلم ان سكوتها حينئذ ادل عليها من كلامها واكشف لسترها فقالت لما رأيته كنت مع امي ولم اسمع منه وعنه الا ما سمعته امي ولا بد من ان تكون قد اخبرتك بكل ما تعلمه من هذا القبيل

فجعل يتفرس في وجهها وهي مطرقة الى الارض حمرة الوجنتين فلم يخف عليه امرها ولم يشأ ان يزيد ارتباكها . ثم قال لا بد من ان يكون احمد عارفاً به . والتفت الى زوجها وقال اذا جاء احمد الى هنا فذكريني لكي اسأله عنه اما انت يا سلمي فانظري ما اصاب ابنة عمك ولا تدعي احداً يلعب بعقلك وعلى كل حال لا اسمح لك ان تفعلي شيئاً الا بعلي . هل تعديني بذلك

فقالت نعم ولكن صفا معذورة لان عمي لم يكن يلتفت اليها كما يجب على الاب ان يلتفت الى ابنته وخالتها على ما تعلم فقال ان كانت صفا معذورة فانت غير معذورة فانك تعلمين معزتك علي وعلى امك . وقد كانت امك تود ان تعطيك لابن اختها ولكن لما علمت انك لا تميلين اليه اعترضتها واوقفت الامر

فقالت الاميرة هند ولا ازال اود ان تغير فكرها لانه ليس في كل الشبان مثل احمد اما سلمي فلم تشكك بشيء بل بقيت صامته وعاد ابوها الى اللعب بالمتقلة وعادت هي الى القراءة في الكتاب الذي كانت تقرأ فيه

وفي اليوم التالي نزل الامير فارس ابو الاميرة صفا والامير قاسم عريسها الى بيروت وزارا المطران اولاً فوجده عارفاً بما جرى للاميرة صفا وقال لها انه لم يكن يعرف ذلك من قبل . فقال الامير فارس لقد عرفت الآن وانت سيدنا البطريرك قادران على ارجاعها حالاً فقال المطران ان هذا لا يمكن بعد ان نذرت العفة . فنظر اليه الامير قاسم نظرة الاستغراب وقال ان قانون الرهبان والراهبات واحد في كل الدنيا تقريباً فالذي يدخل الرهبنة يدخل اولاً تحت التجربة مدة سنة او سنتين ويحق له ان يترك في هذه المدة فقال المطران هذا قانون رهبنتنا ونحن لا نعلم قانون رهبنتهم وعلى كل حال انا لست



مسروراً بهذا العمل وقد كتبت الى سيدنا البطرك ليعترض عليه وانا اعترضت عليه بنفسى  
 لاننا لا نسر بمداخلة الرهينات اللاتينية في طائفتنا ومع ذلك لا اقدر ان اعدكم بنجاحنا  
 فقال الامير فارس نحن ذاهبان الى قنصل فرنسا فما رأي سيادتك في ذلك  
 فقال لا بأس اذهب اليه وهو قادر على مساعدتنا اذا اراد  
 فقال الامير فارس ان لم يساعدنا فانا اعرف كيف افسد لهم الضجعة  
 فاضطرب المطران من هذا الكلام وقال ماذا تقول يا ابني لا تملط شعبان برمضان  
 هذه مسألة وهذه مسألة فمسألة ابتك مسألة دينية عائلية ومسألة الجبل مسألة سياسية وهذه  
 هي الفرصة الوحيدة لنا للتخلص من هذه الحالة التي لا تحتمل فارجوان لا تحركوا ساكناً  
 فقال الامير فارس سياسية او غير سياسية فانا لا اسكت ما لم تردوا لي بنتي  
 فاطرق المطران وهو ماسك لحية يده يفكر في الامر ثم قال للاميرين انتظراني هنا  
 حتى اذهب واقابل القنصل  
 ونادى قواسه ولبس جبته وسار الى قنصلا تو فرنسا فقابله القنصل بالترحاب وتذاكرا  
 ملياً ثم وعده خيراً

### الفصل الخامس عشر

#### كشف الغامض

اثنان من العملة دخلا مغارة بين الشويفات وكفرو شيما ظاهرها قبر بسيط باب في الصخر  
 النكدان الابيض عرضه نحو ثلاث اقدام وعلوه نحو اربع وقد علاه الطحلب وعلت النباتات  
 حوله حتى كادت تسده من الاخوان والشوكران وبخور مريم وايغت السراخس داخل  
 المغارة من كل ما يكره الشمس ويحب الظل وكان مع العاملين ادوات الركس مران ومجرفتان  
 وهما اخوان اتيا ليغرسا نصب التوت حيث كان التين مزروعاً لانهما رأيا الحرير اربح من  
 التين وهما مالكان لتلك الارض مثل سائر ابناء لبنان لانه قلما يخلو احد منهم من ملك  
 يعمل به وكثيراً ما ينقب البور ويفت الصخر ويزرع في فتاته تينة او كرمه او توتة او زيتونة  
 واستمر وقوع المطر ساعة من الزمان فاضطراً ان يبقيا في المغارة كل تلك المدة وصارت  
 عيونهما ترى ما لم تكن تراه اولاً لانهما اعتادت الظلام فاستعت حدقاتهما وجمعت النور  
 القليل المنعكس عن جدران المغارة فانتبها الى حفرة في داخلها كأنها باب مغارة أخرى فقاما  
 اليها وجملا يحفران فازالا التراب واذا هما بباب آخر كالباب الاول ولكنه مسدود بحجر كبير



فتعاونوا عليه ونزاعه من مكانه ودخلا المغارة الثانية وهي اكبر من الاولى وكان الظلام حالكا فيها الا حيث يدخلها قليل من النور من الباب الذي فتحه ففسح فيها وعثا بما ظناه عظاما فاقشعر بدنهما ووقفا حائرين ثم اعتمدا على ان يرجعا الحجر الى مكانه ويعودا بعد الظهر ومعهما شمعة . فعادا بعد الظهر ولم يكن احد يشك في انهما عائدان لزرع نصب التوت بعد انقطاع المطر لان الارض ارضهما وكانا يزرعان التوت فيها ودخلا المغارة وفتح الباب الداخلي ثانية وانارا الشمعة فدهشا مما رآيا فيها فانهما رآيا عظام عشرين او ثلاثين جثة وبعض تلك الجثث لم يكن باليا بل كان جافا مسودا ومع بعضها اسلحة قديمة دروع وسيوف وفؤوس وخوذ كان الذين وضعوا القتلى هناك من اصدقائهم لا من اعدائهم او كان الفرصة لم تسمح لهم لسلبهم فالقوم في المغارة بالسحتهم

فاتفق الاخوان على ان يسدا الباب الداخلي كما كان ويعودا في الليل فيأخذوا الاسلحة شيئا فشيئا حتى لا يشعر بهما احد فسداه وخرجا وكانت السماء قد صحت فعادا الى غرس نصب التوت ووضعا الشمعة على حجر الى جانب باب المغارة

ومر بهما الامير احمد حينئذ وكان قد خرج للصيد وحده فوقفا للسلام عليه فحانت منه التفاتة الى باب المغارة لانه لم ينس غرض السر هنري بدمونت فرأى الشمعة موضوعة على الحجر فسألها عنها فارتبكا في الجواب . فوقف مشتبهما بامرهما وطلب منهما ان يصدقا الخبر فجعل كل منهما ينظر الى اخيه وكانا كلاهما من حزبه يركنان اليه فلم يريا لها بدا من اخبارهما بما رآيا في المغارة الداخلية فدخل معها وازاحا الحجر واوقدا الشمعة فرأى ما رآياه وقال لا بد وان تكون جثة جد السر هنري بين هذه الجثث لا سيما حينما رأى الاسلحة قديمة . نعم ان الصدا كان قد اكلها ولكن شكلها لا يزال ظاهرا وهي من الاسلحة القديمة التي كانت تستعمل في عهد الصليبيين

فامرهما ان يسدا المغارة ولا يخبرا احدا ابدا ووعدهما بمشترى كل ما وجداه فيها وعاد الى داره وهو حائر في امره هل يخبر السر هنري بما رأى فيكثر تردده على كفرشيا والشويغات ويرى سلى فيزيد ميلها اليه وحبها له او يكتم الامر عن كل احد ويقنع السر هنري ان التفتيش عن جدو في تلك الجهات ضرب من العبث وعليه ان يفش عنه في جهات اخرى . فقام في نفسه عاملان متنازعا من عامل الشهامة وكرم الاخلاق يقول له هذا رجل غريب وقد التجأ اليك واستنجد بك وقد صار في طاقتك الى ترشده الى ما استعان بك عليه فيجب ان تلي طلبه وترسل تحبره بما اكتشف هذان الرجلان وجزاؤهما عليه والا فانت



لئيم لا نجدة لك . وعامل الحب والاثرة يقول له هذا مناظرك في حب ابنة خالتك ويجب عليك ان تبعده عنها بكل طاقتك ولا تدع له مبيلاً للتردد الى هذه الجهات فتفسد وتعود اليك . فنقول له الشهامة ان كانت ابنة خالتك قد فضلت هذا الاجنبي عليك فلا خير فيها لك ويجب عليك ان تساوها وتساها . فيقول الحب هذا اغترار بالظواهر فقد اغترت به وقد لا تخطر على باله ابداً فاذا لم تعد تراه نسيته ونجت من ورطة كان يمكن ان تقع فيها فيجب عليك ان تبذل كل واسطة لنجاتها منها

وبعد جدال طويل على هذا النمط تغلب عامل الحب على عامل الشهامة فعصم على ان يحضر الاسلحة الى داره ويحفيها فيها ويسد المغارة ويطمس معالمها . فاستدعى الرجلين وامرهما ان يأتياه بكل ما يمكنهما حمله من الاسلحة ثم يسد المغارة ولا يخبرا احداً واعطى كلا منهما عشرة ربات فقبلاً يده وذهبا وجعلا بنقلان الاسلحة في حالك الظلام واكتفيا بنقل السيوف والخوذ واما الدروع فتركها في مكانها وسدا باب المغارة جيداً وغرسا شجرة امام بابها تمنع الدخول اليها

وفي تلك الليلة جاء كتاب الى الامير احمد من الكولونل روز يدعوه فيه الى بيروت فود ان يطعم اولاد عمه عليه ولكنه خاف من غيرتهم لانهم كانوا يغارون منه لمكانته القنصل له دونهم وكان يود ان يشركهم في المسؤولية معه فوقع بين نارين ونام تلك الليلة وهو على اخر من جمر الغضا لا يستطيع ان يخالف الوالي ولا ان يعادي القنصل ولا يريد ان يقابل السر هنري لئلا يسأله عما اذا كان قد عرف شيئاً عن المغارة او بلغه شيء عنها لانه كان قد وعده بمداومة البحث والتنقيب . وكانت الشرور قد تفاقمت وعزم الناس عزماً اكيداً على ايقاد نار الفتنة وكانوا ينتظرون انقطاع المطر واهالي الساحل يودون ان ينتهوا من موسم الحرير قبلما يحدث شيء

وقام في الشويفات في ذلك الحين شاب من النصارى اسمه كامل جري الفواد قوي الساعد لا يخطئ رصاصة من يسده اليه . اجتمع عليه مرة ستة وحصلوه في مطخنة ففتك باثنين منهم ونجا من يدهم وانتقل الى المتن وجعل دابة ربط الطرق وشن الغارات . وكان النصارى يحسبون ان الفوز سيكون لهم حتماً لانهم فازوا فوزاً مبيناً في الحركة الاولى في بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي . واتت الرجال من كسروان وهي بالسلاح الكامل واقامت في بعبداء تشجيعاً لنصارى الساحل فخشي الامير احمد ان يذهب بطريق الحدث فيلنقي بكامل هذا او باحد من اتباعه فيحدث ما لا تحمد عقباه فاختار طريق البرج



ووصل الى دار الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحاً على جاري عاديته فرحب به الكولونل واجلسه الى جانبه ورحب به السرهنري ايضاً وكان الكولونل قد ارسل واستدعى اثنين آخرين من مشايخ الدروز الذين يثق بهم فوصلا بعد وصول الامير احمد بنحو ربيع ساعة ولما استقر بهم المجلس وشربوا القهوة قال لهم الكولونل لقد بلغني ان الوالي ابلغكم الاوامر التي وصلته من الاسنانة فانا اؤكد لكم ان هذه الاوامر غير صحيحة وان الذين بعثوا بها اليه غير مسؤولين عما يفعلون او هم جهلاء لا يعرفون مصالحهم ومصلة بلادهم لان الحركة التي امركم بها ستعود عليكم بالوبال وتجر الشر على رؤوسكم فاسمعوا مني واخبروا عقالكم لينصحو جهالكم والّا فالخطب جلل

فجعل الشيخان ينظر كل منهما الى الآخر اما الامير احمد فكان خالي الذهن لان الوالي لم يعد يأمنه فلم يطلع على تلك الاوامر مع انه ارسلها الى اولاد عمه لكن كبير عليه ان يتظاهر بجهلها امام الشيخين واستنبح ماهيتها من كلام الكولونل فقال لقد قلنا لسعادتكم قبلاً اننا نحن لا نكون البادئين ولكنهم اذا اخرجونا اخرجونا فوافق الشيخان على كلامه ولحظ القنصل ان الامير احمد يتكلم وهو غير عالم بمفاد الاوامر ولكنه لم يشأ ان يظهر ذلك امام الشيخين فقال لهم اني اندرتكم وبينت لكم وخامة العاقبة حتى اذا تجملت عنكم دولة انكثرا لا يكون عليها لوم

وكان احد الشيخين كبير السن وقور المنظر فقال له اسمع يا سعادة القنصل نحن نعلم ان دولة انكثرا نجنا وتودنا وتدافع عن حقوقنا ولكن ذلك كله يتوقف على رأي سفيرها في اسطنبول وقنصلها في بيروت والسفراء والقناصل يغيرون كل سنة او كل بضع سنوات واما دولتنا فلا تتغير وسياستها معنا صارمة كما لا يخفى فاذا لم نطع اوامرنا وقعتنا في الفمهلك ودولتكم اقوى منا وكما منعت ابراهيم باشا المصري عن البقاء في هذه البلاد يمكنها ان تمنع رجال دولتنا عن القاء الفتن فيها ، فاذا كنتم تريدون ان توقفوا هذه الحركة فلا امهل عليكم من ان تاتوا بركبين حربيين وتهددوا بهما بيروت وترساوا فرقة من عساكرها الى الشام فيقف كل واحد عند حده ولا يخفى على سعادتكم ان الحركات التي تصير في لبنان اكثرها ليس منا بل من غيرنا فاذا اوصيتكم كل اهالي الجبل حتى يلزموا السكينة لم يحدث فيه شيء . ونحن قد نزلنا الى بيروت خوفاً من القلاقل ونؤكد لسعادتكم ان البلاد كلها منتظرة الشهر التالي ولا بد من قومة عامة اذا كانت بقية القناصل لا توجب على النصارى ان يلزموا جانب السكون فقال القنصل وما هي هذه الاوامر التي اطلعكم الوالي عليها



فقال أحدهما يصعب علينا ان نجيب سعادتك على هذا السؤال ولكن لا بد ما يكون  
سفيركم في اسطنبول قد وقف عليها كلها

ولم يكن السفير عارفاً بها ولا مهتماً بالوقوف عليها واستحق الكولونل ان يخبرهم بذلك  
وكان واثقاً ان الامير احمد لا يعلم بها والشيخين لا يفشيان سرّاً أوتمنا عليه فلم يلج عليهما لكنه  
فهم من مغزى كلامهما ان الاوامر ذات شأن خطير كما قيل له . ورجا ان ياتيه من يخبره  
بها حرفياً لانه كان يقول ان السياسة تقضي على المرء ان يعرف مقاصد خصمه بكل واسطة  
حتى يتلافى الضرر قبل الوقوع فيه الا انه ودد ان يعرفها ذلك اليوم ليكتب مع البريد يخبر  
وزارة الخارجية ورأى ان الشيخ مصيب في طلب مركبين حريين وعزم ان يكتب بذلك  
الى حكومته ولو وقف على الاوامر السرية التي بلغه خبرها لفعل ذلك حتماً

ولما انتهت المذاكرة نهض الامير احمد ونهض الشيخان لنهوضه فودعوا وركبوا خيولهم  
وساروا الامير احمد الى بيت عمه والشيخان الى بيتيهما لانهما كانا قد شتيا في بيروت تلك  
السنة هما وكثيرون من مشايخ الجبل على خلاف العادة . وكان لا بد لهم من المرور تجاه بيت  
الشيخ درويش ابي نغر وكانه كان جاسوساً عليهم يرقب حركاتهم وسكناتهم فوقف في باب  
بيته وسلم عليهم وطلب منهم ان ينزلوا ويشربوا فنجان قهوة فاعندروا اليه بضيق الوقت وبقرب  
اذان الظهر فسك بلجام فرس الامير احمد وقال عليّ الطلاق انت لم تنزلوا وتشربوا  
فنجان قهوة . فاضطروا ان ينزلوا فادخلهم بيته واجلسهم حيث اجلس الامير ونادى بالقهوة  
وجعل يقص عليهم ما سمعه من الوالي من المدح والثناء على الامير احمد وذكرائه قال وقت  
لدولته ان الامير احمد ابن ابيه وابوه كان صديقي والصداقة قديمة بيننا انتم الان اتون من  
عند قنصل الانكليز لا بأس فان الانكليز اصدقاء لدولتنا العلية هم والفرنسوي حالقوها على  
حرب المسكوب ولكن يرى لي ان السياسة انقلبت اليوم فان افندنا الوالي ما عاد يركن الى  
قنصل الانكليز . لم يقل لي ذلك صريحاً ولكنني فهمت منه . انا القبطها طائفة . ونحن ما لنا  
وللقنصل ولكل الافرنج ما دام دولتنا في الوجود . ما هو رأي القنصل قل لي يا امير احمد  
الظاهر انك لا تستخلصني كما كان يستخلصني المرحوم والدك

فقال الامير احمد ليس الامر كذلك يا ابا نغر ولكنك انت عارف بكل شيء والذي  
لا تعباً بالسمع تستنتج به ذكاء عقلك

فضحك ابو نغر وقال هكذا كان المرحوم ابوك يقول عني نحن احباب من زمان طويل  
وحضرة الشيخين معرفة مباركة ان شاء الله . تفضالوا خذوا القهوة . هذا بن حجازي يأتي



هدية كل سنة لا مثيل له في كل بيروت ولا في الشام وعندى جارية اشتريتها من جوارى اسعد باشا كأنها مخلوقة لعمل القهوة فلا اطيب من قهوتها وهي تدق البن في هاون خشب ولا تدقه في هاون نحاس لئلا يفسد طعمه -- كل شيء صنع . يقال ان قهوة البدو اطيب من غيرها شربتها في السنة الماضية لما اتى عرب الفضل الى بلاد الحولة ذهبت الى هناك من قبل الوالي لبعض الاشغال وكنت اشرب من قهوتهم فلا اراها اطيب من قهوة الجارية التي عندي . ماذا نقول يا حضرة الشيخ هل شربت قهوة اطيب من هذه القهوة والفناجين والظروف الامير احمد يعرف قصتها . زارني الوالي في رمضان لكي يشرب من هذه القهوة ولما رأى الفناجين ابتهج لها والى الآن يقول انه ما شرب مثل القهوة التي شربها في بيت الشيخ درويش

فقال احد الشيخين نعم القهوة كما وصفت يا حضرة الشيخ ونحن مسرورون بهذه المعرفة الجديدة والفضل فيها لسعادة الامير . وصادق الشيخ الآخر على كلامه ونهضوا وبعد اللتي والتي تمكنوا من وداعه وركبوا وساروا في طريقهم والامير احمد يقول لا بد لنا ان نجد طريقاً آخر نمر به بعد الآن حتى نخلص من هذا الثقل وسار الامير احمد الى بيت عمه والشيخان الى بيتيهما وافترقوا على ان يجتمعوا في المساء في خلوة رأس بيروت ويتداولوا في ما يجب عليهم عمله في الاحوال الحاضرة

### الفصل السادس عشر

#### استئصال الخطب

ارى خلل الرماذ وميض جمر ويوشك ان يكون له ضرام  
فان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها الكلام

وما الحرب الا ما علمت وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم  
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر اذا ضرمتوها فتضرم  
فتعرككم عرك الرحي بثفالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتنتم  
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم  
فتغلل لكم ما لا تغل لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ليقل محبو السلام ما شاؤوا في مذام الحرب وليطنب كتبهم في وصف ويلاتها فما دام



في الدنيا اناس يتجرون بالحروب ويكتسبون بها اسماً وجاهاً او مالاً ومقاماً فهم يوفدون نارها  
ويذكرون اوارها ففي آله الملوك والوزراء والقواد والرؤساء والمرابين والمورددين وصانعي الاسلحة  
والمهمات وكل المرتزقين من مال غيرهم . فما دام هؤلاء يجدون فيها مغنماً فلن تنطفئ نارها  
وشر الحروب الحرب الاهلية وشر الناس موقدو سعيها ولا سيما اذا لم يكن للشحار بين  
مصلحة فيها

مضى الشتاء وجاء الربيع فانتعشت الطبيعة ولبست ابهى حلتها وحلاها . تجرت الينابيع  
واكتست الرياض والغياض اثواباً سندسية . طرزة بالوشى المعلم وانحت الادواح تحت حملها  
من نواح فضي وشمش عسجدي والطيور تنغى في افنانها وعبق اريج الازهار يعطر الآفاق  
ويسلي النفوس عن اشجانها . استغفر الله . الطبيعة من نبات وحيوان جذلة طربة الابن آدم  
انتظر انقطاع الامطار لكي يبدلها بوابل من رصاص بنادق يخطف بها النفوس من الابدان  
قضاء للبانات افراد معدودين

وصلت الاخبار الى الكولونل روز ان الرزية وقعت والنار اشتعلت وقد طرح الصوت  
وأطلق المدفع وانفض رجال كسروان من الساحل اطاعة لامر الوالي والمطران وعادوا  
ادراجهم واجتمع الدروز حول مشايخهم وشجعوا على قرى المتن فالتقاهم النصارى خائري  
العزائم لان الجنود في الخازمية وراءهم وقد خافوا ان يقعوا بين نارين لا سيما وانه كان قد  
شاع وذاع ان في يد الوالي اوامر سرية باستئصال شأفتهم

وصعد السرهري بدمونت الى سطح القنصلية والنظارة في يده فرأى ثأرب ربي  
لبنان استحال الى براكين كثيرة نقذف الدخان والنيران من افواها وقام ابناءؤه زرافات  
زرافات مشاة وفرساناً وقد نشروا الاعلام وانتشروا حول القرى يهاجم بعضهم بعضاً ويترامون  
برصاص البنادق من وراء المتاريس ثم يستلون السيوف ويردون الخنوف الى ان يتغلب  
فريق على فريق فيدحروهم ويضرب في اقصيتهم ثم يضرع النار في مساكنهم . والتفت الى كفرشما  
حيث دار الاميرة سلمى فرأى الدخان مسدداً فوقها فوقعت النظارة من يده وجلس على كرسي  
وسند رأسه وقد مر في ذهنه صور الحروب القديمة التي كانت تنشب في تلك البلاد وتنتهي  
بحرق البيوت وسبي النساء والذراري فقال في نفسه ترى ما حل بملك الاميرة واي فارس  
اردفها وراءه الآن وهي تنادي وتستغيث ولا سامع ولا مغيث هل يفعل ما كان يفعله الفرسان  
في القرون الوسطى فيقتل سلاحه ويركب جواده ويبادر لانقاذها يهجم على الفارس الذي  
خطفها ويطعمه طعنة تكون القاضية . ولكن اني له ذلك الآن وهو غريب في بلاد غريبة وقد



قضي الامر وكادت جموع الفارين تصل ابواب بيروت، وهل بقي الامير عباس واهل بيته في كفرشيا الى ان هاجمها الاعداء او غادرها في الليل الغابر وهل ركب مع اتباعه وقاوم الاعداء فدارت الدائرة عليه او رأى ان المقاومة ضرب من المحال فاركن الى الفرار

وكان النكولون روز مصاباً بركام شديد وحى وهو طريق الفراش فنزل السر هنري واخبره بما رأى فتملأ في سريره وتحفز للقيام ولكن اصابته نوبة سعال صرفته عن عزمه فقال نالوا بغيتهم اتوا بالرجال من كسروان لتشد يد العزائم ثم صرفهم لحلها وارسلوا الجنود الى الحازمية لتسكين الخواطر وهم يعلمون مع من ضلها . واولئك الحمقى من امرء ومشايخ معترّون بالمواعيد ولا يعلمون ان الدائرة ستدور عليهم اخيراً ولو كان النصر لهم وقد اخلعت لهم النصيح فما انتصخوا ثم عاودته نوبة السعال فمجز عن الكلام . وحضر الترجمان حينئذ وقال للسر هنري ان الفارين من قرى الساحل قد وصلوا الى بيروت وهم في حالة يرثى لها وكلهم نساء واولاد مع بعض العجائز ولا طعام لهم ولا شراب ولا يعلمون الى اين يذهبون فاتجه فريق منهم الى دار مطران الموارنة وفريق الى دار بطركخانة الروم وانتشر كثيرون منهم في بساتين الثوت في حي المصيطبة وبير النبع ولا بدءاً لنا من مساعدتهم بما يفرج كربتهم وان كنا لا نعلم الوالي تبعة كل ما يحدث في المدينة فلا امان عليهم ولا علينا . كيف حال القنصل الآن

السر هنري — القنصل على حاله وانت ادرى مني بالخطّة التي يجب ان نجري عليها في هذه الحال فاخبرني بما ترثيه وانا استشير القنصل به . الم يأت الرجال مع الماربين الترجمان — لم ار الا قليلين منهم والباقيون لا يزالون يناوشون خصومهم ويدافعون عن حريمهم ولا بدءاً ان يبلغ عدد القتلى والجرحى مبلغاً كبيراً لان القلوب ملآنة والناس لا يعرفون نظام الحروب

وودّ السر هنري ان يذهب ويخلط بجموع الماربين ليفتش عن الاميرة سلمى ولكنه كان يجهل كل طرق الاستدلال عليها وخاف ان يسأل الترجمان كما يخاف من يحاول منكراً ويرى العميون رقية عليه . ثم لام نفسه لانه فكر بامر خاص وقتما يجب عليه ان لا يهتم الا بالامر العام وبالبلية الكبرى التي تشمل الوقاً مثل الاميرة سلمى وقد تكون هي اسعد حالاً منهم كلهم فجلس مشرّداً الافكار ينظر الى السقف مرةً الى الارض اخرى

وسار الترجمان الى الدار التي يجتمع فيها المرسلون الاميركيون ليستشيرهم في الامر وهو عازم ان يذهب بعد ذلك ويرى قنصل فرنسا وقنصل روسيا ثم يعود ويخبر السر هنري بما وقف عليه



## الفصل السابع عشر

## واقعة الساحل

لما كان السر هنري واقفاً على سطح القنصلية يرى الدخان يتصاعد عن سفح لبنان من قراه المنشرة كالجب على وجه الماء او كالدراري في كبد السماء كان رجال الساحل قد احيوا الليل بالاستعداد لمقابلة الاعداء وانقسموا فريقين فريقاً تولّى حماية النساء والاولاد والذهاب بهم الى مدينة بيروت مع ما خفّ حملةً وغلا ثمنه من الامتعة وفريقاً تسلّح وودّع اهله واقاربه وداعاً قد لا يعقبه لقاء . فكنت ترى هنا طفلاً متعلقاً بشباب ابيه وهو يقول له كيف نتركنا يا ابي ومن يبقى مع امي واخواني وابوه يرفعه يديه ويقبله ثم يسلمه الى امه ويوصيها به . وهناك امرأة تربط زنار الفسك ( الخرطوش ) على وسط زوجها وتناولته بندقيته ويطقانه وهي تنظر الى وجهه تارةً وإلى اطفالها اخرى وترفع قلبها الى الله . وقد يسيه ليردوا لها زوجها سالماً . وهناك رجلاً يودّع ابن عمه ويقول له اودعك يا اخي المرأة والاولاد فيجبته ذاك بامان الله كن مستريح البال فهم مثل اولادي واعز . واكثر الاولاد نيام يوقظهم امهاتهم فيفركون عيونهم ثم ينامون . والنساء الجبارات يحملن جرار الماء ليحرين وراء الرجال . والجمال باركة تهدر والناس يحملون عليها امتعتهم وهم يتآمرون في ما يجب اخذه وما يجب تركه . والمكارون يسبون ويشتمون وقد علت الجلبة واخطلط الحابل بالنابل ووقف العجائز بعضهن يشير بما يجب عمله وينبئ بحسن المصير وبعضهن يضرع الى السيدة ومار الياس ومار انطونيوس وكانت ليلة صفا اديمها واغنت دراريها عن بدرها فاشرفت ثقال بين توحش الناس وانس الوحوش ولما طلع الفجر ركب الامراء وهم بالعدة الكاملة مع كل واحد منهم سيف وقرينة وطبنجان ومشى الرجال معهم ومع كلٍ منهم بندقية ويطقان او بالة وطبنجان او فردان . وسار حملة البيارق في مقدمة الجمع وهم يشدون الاناشيد الحماسية ومشوا فرقاً فرقاً الى ظهور الوادي وبعيدا ومرتسوا هناك واشرفت الشمس حينئذ وصبت اشعتها عليهم فكادت تعمي ابصارهم وقبل ان يتوا اقامة المتاريس اقبل الدروز عليهم براياتهم البيضاء واصلحهم ناراً حامية ورّت ساعتان والحرب سجال بين الفريقين لكن الدروز كانوا اكثر عدداً واحكم انتظاماً واطوع لقوادهم فاقام فريق منهم يناوش النصاري ودار فريق من ورائهم وكاد يقطع خط الرجعة عليهم ويؤس النصاري من الفوز فجعلوا يرتدون القهقري وكما وصلوا الى مكان تسهل المترسة فيه وقفوا واطلقوا بنادقهم على اعدائهم حتى اذا لم يستطيعوا فهرم



اخرّوهم عن بلوغ قراهم الى ان تخرج عيالم منها وتصل الى بيروت  
 ودار الحديث التالي بين اثنين من الدروز  
 حامد - من هذا الخيال الذي يفتي رجاله 'والسيف مسلول بيده  
 محمود - اتعني راكب الحصان الازرق او راكب الحصان الاشقر  
 حامد - راكب الحصان الازرق فاني اراه لا يخاف الموت  
 محمود - هذا الامير عبدالله وهذا حصانه الابر وهو مثل الابر حصان عنتر بن شداد  
 لا مثيل له بين خيول الشهابيين

حامد - ان بندقيتك نظامية فلماذا لا تطلقها عليه  
 محمود - نشتت عليه مرتين وانا ارمي العصور الطائر ولكني لم اصبه لان المجال بعيد  
 والرصاص لا يصل اليه

حامد - لماذا لا يهجم عليه الشيخ حمدان وما هو نفع كحيلان ان كان لا يلحق الابر  
 محمود - اخ

حامد - مالك قم نتبعهم فقد قاموا من امامنا  
 محمود - الكاتبة ربك يصير مسلم على ام قامم وقل لها ربّي ابنك حتى يأخذ بشار اييه -  
 يا حمزه يا سيد عبدالله - وارتمى على الصعيد فجرح حامد الى وراء صخر ودنا من الشيخ حمدان  
 واخبره ان راكب الحصان الازرق هو الامير عبد الله عقيد النصارى . فقال له 'ومن اين  
 تعرفه . فقال من حصانه . فلما سمع الشيخ حمدان ذلك اغمد سيفه وصلى قرينته واغار على  
 الامير عبد الله وهو يقول في نفسه كسرنا القوم وقتلنا عميدهم حتى اذا دنا من الامير قال له  
 خذها ولا تقل اني غدرتك واطلق القرينة عليه وكان الامير عبد الله قد تنحى من وجهه فلم  
 يصبه شيء من حواشها ثم ارتد اليه والسيف في يده واطبق عليه وكاد يوقع به ولكن  
 رآه اربعة من اتباعه وهجموا عليه بيالاتهم فارتد عنه وهو يقول له ان كنت راعي كحيلان  
 فابرز اليّ وحدك فارساً لفارس

وكان بعض الدروز قد داروا من وراء النصارى واضرموا النار في بيوت الوادي وبعيدا  
 وسبنيه والتفت النصارى فرأوا الدخان يتصاعد من بيوتهم فايقنوا ان الجنود العسكرية في  
 الحازمية لن تدفع عنهم مكروهاً خلافاً لمواعيد الوالي ان لم تكن مائة لعدوم عليهم فارتدوا  
 الى بعض الدور وتحصنوا فيها

والتفت ميخائيل الى منصور وقال له لقد دخل الامير داره وتحصن فيها ويظهر لي اننا



لا نستطيع ان نصبر اكثر من ساعة وربما نتعذر علينا النجاة بعد ذلك فما انا ولقلة العقل منصور — أيلق بنا ان نترك الامير وحده في هذه الساعة لا انا لا اذهب من هنا الا رجلي ورجله

ميخائيل — هو فارس وانت راجل فاذا حميت الحديد تركك وهرب منصور — هو وشأنه اما انا فقد حلفت لامي اني لا اتركه ميخائيل — اخ

منصور — مالك مالك يامسكين الذي تأقي ورقته يذهب غصباً عن رقبته. في رأسك. رصاصهم عالي. هذه الرصاصة من صاحب اللفة البيضاء خذها يا ملعون. وسدد اليه بندقيته ورماه فلم يصبه ثم التفت فرأى الامير خارجاً من باب داره ومعه صندوق صغير فتناوله منه وجرى وراءه

وكانت الشمس قد تكبدت السماء ورأى النصارى ان الدروز تكاثروا عليهم وكادوا يحيطون بهم من كل جهة فاركنوا الى الفرار وتبعهم الدروز الى قرب الشياح وقتلوا منهم زهاء ثلاثين نفساً وفي جملتهم الامير بشير قاسم الملقب بابي طحين ووصلت العيال الى بيروت في الصباح بعد شروق الشمس بساعة او ساعتين وتفرقت في احياء المدينة واضطر الاولاد الصغار من ابن ست سنوات فصاعداً ان يسيروا هذه المسافة كلها مشياً على اقدامهم والرجال الذين ساروا معهم لحمايتهم لقيهم الخفر عند فرت الشباك والميادين واخذوا ما معهم من الاسلحة بامر والي بيروت فلم يعودوا يستطيعون الرجوع لنصرة اخوانهم

### الفصل الثامن عشر

#### التفتيش عن الاميرة سلى

عاد الترجمان من مقابلة المرسلين والقناصل واجتمع بالسرهري وتذاكرا مع القنصل ملياً ثم خرج السرهري مع الترجمان يتبعدان احوال النصارى الذين وصلوا الى بيروت ذلك الصباح فارين من وجه الدروز وكان الرجال الذين اصلوا نار الحرب وناولوا الدروز الى ان تكاثرت جموعهم واضطروا ان ينهزموا من وجههم قد وصلوا الى بيروت وجعلوا يفتشون عن عيالم فكانت المرأة التي ترى ان زوجها او ابنها او اخاها لم يعد مع الذين عادوا توقن انه بين القتلى فترفع صوتها بالبكاء والمويل وتجلس تقرب صدرها وتنوح نوحاً يفتت الاكباد



واجتمع كثيرات من النساء زرافات زرافات وقد اسدلتن الثعور وجعلن يلحن بالمناويل ويتندن ويبكين وسمع اولادهم صوت البكاء والنواح فعلا بكاءهم وعويلهم وقام الرجال ينتهرونهم لكي يسكتوا او يشاركونهم في البكاء واجتمع عليهم نساء بيروت واولادها يأتونهم بالغليز والماء ويرثون لبلوهم . وكان لا كابر الساحل اصدفاه واقارب نزولوا عليهم فوسّع هؤلاء لهم في منازلهم واحلومهم على الرحب والسعة

وسار السرهري والترجمان من محلة الى اخرى يرون الرجال ويستقصون الاخبار والسرهري يكتب في مذكرته كل ما يراه ويسمعه وكان يعلم اسم الاميرة سلى ويعلم انها شهائية ولكنه نسي اسم ابيها ولم يكن يدري كيف يسأل عنها فقضى من العصر الى قرب الغروب ينتقل من محلة الى اخرى ومن حي الى آخر فلم تقع عينه عليها ولا على امها ولا على ابيها فزاد انشغال بالمر وكاد يبوح بما في نفسه للترجمان لعله يساعد على التفتيش عنها . وبينما هو في حيرة ولا حيرة الضب حانت منه التفاتة فرأى القزم الذي رآه في كفرشيا لما التقى بالاميرة سلى وامها على عين الماء بين كفرشيا والشويفات ورآه القزم فعرفه وجعل يناديه قائلاً يا خواجه يا قنصل فهش له السرهري واخذ بيده وكادت الدموع تهطل من عينيه لما قابل الحالة التي رآه فيها اولاً وهو يكاد يكون في مجالس انس الملوك والحالة الحاضرة والناس مرقمون على الارض كالانعام واطفالهم يبكون ويحافظون كسر الخبز وكأنه كان يرى الف رقيب عليه فطلب من الترجمان ان يقول للقزم ليأتي معه الى دار القنصلية ويقص عليه ما حدث لهم . فقال له الترجمان ان القنصل يدعوك للذهاب معه الى دار القنصلية فقال حباً وكرامة . وكان القواسة قد احضروا له فرساً وللترجمان فرساً آخر فركبا وعادا الى دار القنصلية وعاد القواسة بالقزم اليها

وجعل الترجمان يسأله عن الامراء واحداً واحداً الى ان وصل الى امم الامير عباس فقال ان الامير عباساً تخاضع مع الوالي فان الوالي طلب منه ان يوافق الدروز ويكون معهم لانه مسلم فرفض ذلك وذهب بزوجته واولادهم الى ابناء عمه امراء حاصبيا منذ اربعة ايام . ثم التفت الى السرهري وقال له والاميرة سلى معهم . ففهم السرهري اسم سلى واستفهم من الترجمان عما قال فترجمه له فاضلم الضياء في عينيه ولم يتنبه الترجمان لذلك ولكن القزم انتبه له وقال اني رأيت الاميرة سلى يوم ارتحلوا وكانت تشير على ابيها ان ينزلوا الى بيروت وتؤكد له ان قنصل الانكليز يحميهم وهو مصر على الذهاب الى حاصبيا ووادي التيم ولما فرغت حيلتها جعلت تبكي وتوسل الى امها لكي تفتح اياها بالنزول الى



بيروت او بالذهاب الى الشويفات الى بيت خالتها لان الامير احمد ارسل يدعوم اليه ولكن  
الامير عباساً رجل عنيد لا يسمع رأي احد

ثم قال القزم للترجمان قل للقنصل ان الاميرة سلى تحبّه وكانت تريد ان تنزل الى بيروت  
لاجله. فأبى الترجمان ان يترجم هذا الكلام للسر هنري لكن السر هنري طلب منه ان يترجمه  
له فترجمه له فتضاحك وقال قل له من اين عرفت ذلك . فقال اجبه ان العصفورة اخبرتني  
وانا وان كنت صغير الجسم لكن عمري اربعون سنة وانا أضحك الناس واضحك عليهم لاني  
اعرف ضمايرهم واقرأ افكارهم في وجوههم وحركاتهم فاننا لما كنا على النجمة ورأيتُ واقفاً امامها  
قرأت في عينيها وعينيّ رسائل الحب بينهما . وقل له ان الاميرة سلى في حاصبيا الآن  
ولا امان عليها هناك لان امراء حاصبيا مع النصارى ولا بدّ ما تدور الدائرة عليهم وليس لهم  
هناك مدينة يلجأون اليها مثل بيروت فان كان يحبها حقيقة فليبدل جيبه في انقاذها. ثم نظر  
الى السر هنري وجعل يكلّمه بالاشارات ففهم السر هنري بعض مراده وزاد انشغال باله وقال  
في نفسه ان هذا الرجل المشوّه الخلقة اذكي فوّاداً من أكثر الذين رأيتهم في حياتي فطيب  
خاطره واخرج من جيبه قبضة من النقود الفضية واعطاه اياها وعرض عليه ان يبقى في  
القنصلية وينام مع الخدم اذا اراد فقبل ذلك شاكرًا وصار دأبه التردد على النازحين  
الى بيروت والمحجّين باخبارهم فكان من افضل المخبرين واذكاهم فوّاداً واكثرهم تدقيقاً  
واصوبهم رأياً

وكان السر هنري يسمع ما يأتي به من الاخبار وهو يفكر في الاميرة سلى وما يحتمل  
ان يصيبها في حاصبياً اذا وقع بها ما يخشى وقوعه او اذا لجأ بها ابوها الى عرب البادية فتاهرا  
في القفار وغزا بعضهم بعضاً واخذت سبية وقد يراها امير من امرائهم فيزوج بها رغماً عنها.  
وراجع ما كتبه فتصل صيداء عمّا بلغه من اخبار حاصبياً فوجد ان الفتنة ابتدأت فيها ولا  
امان على الامراء الشهابيين الذين هناك ولو كانوا مسلمين ولكن الحول والطول في تلك  
الجهات ليست نائفة اخت الشيخ سعيد جنبلاط فعزم ان يكتب اليها لكي تحمي الامير عباساً  
وعائلته ولكنه عاد وتذكر ما قاله له القزم وهو ان الامير عباساً عنيد ولا يرضى ان يحتمي  
باحد من الدروز فرأى ان لا فائدة من الكتابة

ولا اشد على المرء من ان يرى نفسه مغلول اليدين لدى امر يسهل عليه عمله ولكن  
لا سبيل له اليه . فلوجاء الامير عباس الى بيروت لكانت حمايته وحماية كل الذين يلوذون  
به من اسهل الامور على السر هنري ولو كان الوالي ضده ولكنه اختار الذهاب الى مكان



في داخلية البلاد دون الوصول اليه خبط القتاد  
وكانت هذه الافكار تتردد في بال السر هنري وهو يتناول عشاءه ولحظ الكولونل  
اضطرابه فظن ان ذلك ناشئ عما شاهده ذلك اليوم مما ينجع له المره فلم يشأ ان يسأله  
عنه ثم استطرد الحديث الى احوال اللاجئين الى بيروت فتكلم السر هنري كلاماً مجملًا دل  
على انه كان مشغول البال بامر آخر

### الفصل التاسع عشر

#### النار ولا العار

ومن يخشى اطراف الرياح فاننا      لبسن لمن السابقات من الصبر  
وان كربه الموت حلو مذاقه      اذا ما مزجناه بطيب من الذكر  
وما رزق الانسان مثل منية      اراحت من الدنيا ولم تحز في القبر  
ألا ربما كانت التصبر ذلةً      وادنى الى الحال التي هي اسمج  
وقد يركب الخطب الذي هو قاتل      اذا لم يكن الا عليه معرج

لا اثقل على نفس الحر من الصنعة يسديها اليه من ليس اهلها . ولا من الاتقياد  
لأني ترى من نفسك بطلانه . هكذا كان شأن الامير عباس حينما بعث اليه الامير احمد  
يدعوه الى الشويفات ليقم في حماه فانه لما اخبرته زوجته الاميرة هند بكلام الرسول هنر  
رأسه وقال الله الله صار ابن شهاب يحضي بابن ارسلان لا وترية اجدادي . ثم نادى  
بغلانه وقال استعدوا للسفر فاننا ذاهبون الى حاصبيا . وقال لزوجته لا يمكنني الذهاب الى  
الشويفات والاتجاه الى بيت ارسلان ولا النزول الى بيروت لان الوالي على ما تعلمين وقد  
سفت رأيه وحذرت عواقبه ففقد علي . ولا البقاء هنا لانه لا بد للدروز من مهاجمة الساحل  
ولا يستطيع النصارى ان يثبتوا في وجههم بعد ان كفل الوالي لهم الفوز فقولي للاولاد ان  
يكونوا على استعداد فنذهب الى اولاد عمنا في حاصبيا ووادي التيم فانهم يبعثوا ليجن علينا  
بالذهاب اليهم وربما ذهبنا من هناك ونزلنا على عرب الفضل فان الامير عمر الفاعور ارسل  
الي مرتين لنذهب اليه ونحن باختيارنا منازل البدو على غيرهم نكون قد عدنا الى اصنا او كما  
يقول المثل اكثنا القول وعدنا الى الاصول

وكان الشهابيون في كفر شيما والحلث وبعيدا مرتابين في امره هل ينتصر للدروز او



ينتصر للنصارى ولكنهم لم يكلوه في هذا الموضوع وهو كان يعلم ان الحرب الاهلية تأول الى  
 اضعاف اهالي لبنان كلهم فيتمكن ولاية الدولة من اذلالهم وكان يسفه رأي القائلين بها  
 والحاثين عليها وافضى الجدل بينه وبين والي بيروت الى المغاضبة لكنه طلع بسواد الوجه مع  
 الفريقين فلا هو ارضى الدروز ولا هو ارضى النصارى وارتاب كلاهما في اخلاصه . واقام  
 يرقب تغير الاحوال وتفاقم الخطوب وكلما حانت له فرصة ونج القائلين بهذه الفتنة وسفه رأيهم  
 وهو لا يوقر كبيراً ولا يحترم ذا مقام حتى مطران الموارنة صديقه الحميم اغناط منه وكف  
 عن زيارته . وبقي يحسب ان الوالي يرى وخامة العاقبة فيأمر الفريقين بالتزام جانب السكينة  
 او يكون على المعتدي مع المعتدى عليه الى ان جاء الرسول من عند الامير احمد يطلب منه  
 ان يلجأ الى داره ليحتجى فيها . وكان يعلم ان الامير احمد رجل جد لا يقول الا ما يعني  
 ولا يكلم الا بالوقار التام فثبت له حينئذ ان الشر واقع لا محالة وان الدروز واثقون بالفوز  
 في هذه النوبة وهم لا يثقون هذه الثقة الا وقد أكد لهم الوالي انه ينصرهم بالجنود وترجى له  
 حينئذ ما كان قد سمعه ولم يصدقه وهو ان الوالي اشترى رؤساء الدروز بالاموال الطائلة  
 واستأجرهم لهذا العمل استنجاراً ولما رآهم ممتنعين عن اجابة طلبه برأى بعض عقالم حذرهم  
 سوء العاقبة وقال لهم ان الاموال التي عرضتها عليكم اعطيها لخصومكم واساعدكم عليكم ان انتم  
 اصررتم على رفض طلبي . لان غرضه كان اثارة الفتنة على كل حال عملاً بمشورة الحزب الناقم  
 على الحكومة في الاستانة . وقد عمل بعض الدروز برأيه مكرهين لانهم رأوا انفسهم بين  
 نارين فاخاروا اخف الشرين وما هذه اول مرة استحل فيها رجال السياسة اثارة الحروب  
 والفتن لاجل اغراضهم السياسية

فقال الامير عباس حينئذ لقد قضي الامر واتفق الدروز مع الوالي ووافقهم الامير  
 احمد وما كان اغناه عن امر يجرى عليه البلاء . فقوي الميل في نفسه الى نصرته ابناً عمه لانه  
 الفريق المعتدى عليه ولكن ابناً عمه في لبنان لا يأمنونه فقال لا بد من الرحيل الى حاصبيا  
 لان امراء حاصبيا لا يزالون على الاسلام مثله وهم من حزب النصارى  
 وشاع في كفر شيا ان الامير عباساً عازم على الارتحال الى حاصبيا فلم يعبأ اهلهما بارتحال  
 لانهم كانوا غير عارفين الى اي حزب ينتهي وكانوا يجهلون ان الفوز سيكون لهم اذا انقذت  
 نار الحرب لان رجال كسروان كانوا في بعبداء وهم ابطال مشهود لهم والدروز يخشون بأسهم  
 ووراءهم بلاد كسروان كلها

ولم يخطر على بال الاميرة سلى انا اباها يفضل الذهاب الى حاصبيا على البقاء في كفر شيا



او النزول الى بيروت . وكانت تتبع حوادث الجبل وتعلم ان اهاليه يستعدون لحرب اهلية وكثيراً ما سمعت اباها يشكك عن رجوة القائمين بهذه الحركة . وانها ستعود عليهم بالضعف غالبين كانوا او مغلوبين مستشهدين بالحروب الاهلية الماضية ونتائجها الوخيمة . وحسبت كل حساب الا حساب الذهاب الى حاصبيا والابتعاد عن بيروت فانه لم يخطر لها ببال . فلما جاءتها امها تقول لها ان اباك عازم على الذهاب بنا الى حاصبيا ووادي النسيم نظرت الى امها نظراً المستغفم المرتاب وقالت حاصبيا الى هناك ثم صمتت وكانت آخذة في كتابة كتاب الى ابنة عمها الاميرة صفا فوقف القلم في يدها ولم يعد يجري . وقالت لها امها ان احمد ارسل يدعونا لنذهب الى داره فرفض ابوك ذلك واغناظ من دعوتك لنا . فقالت سلى اذا قال ابي قولاً لا يرجع عنه وانت تعلمين طبعه فليس لنا الا التسليم لارادته

قالت ذلك لانها رأت اضطراب امها فارادت ان تخفف عنها اما هي فكانت كارهة لهذا السفر نافرة منه اشد النفور ثم مضت الى غرفة ابنيها وكلتته على انفراد مبيتة له ان قنصل الانكليز يجمعهم اذا نزوا الى بيروت . ولما قال لها من اين تعلمين ذلك اسقط في يدها ولكن بداهتها كانت قوية فقالت له اني اشعر بهذا الامر من نفسي وقد سمعت احمد يقول غير مرة ان قنصل الانكليز مضاد للوالي فاذا عرف ما بينك وبين الوالي فلا بد من ان يحميك منه فقال ابوها هذا قد يكون وقد لا يكون والمسألة مسألة حياة وموت وعار وشبابة فلا التي يدي الى التهلكة وكانت تعلم انه اذا قال كلمة لا يعود عنها فتركته . وعادت الى الكتاب الذي كانت تكتبه لابنة عمها وهي تقول في نفسها لعل صفا احكم مني ولو ذهبت وترعبت مثلها خلصت من كل هذه الهموم وتجلت امام عينيها حينئذ صورة السري هنري بدمونت وكانت قد مضت ايام كثيرة لم تره فيها ولا سمعت عنه شيئاً ولا سمعت اسمه باسان احد فجالت الدموع في عينيها وهي تقول ما اشقى المرأة تحب فتضطر الى الكتان وتقت قلبها وعواطفها لكي تحافظ على عادات قومها . ولقد طالما عللت نفسي بافي اسلوه ففقت الايام وانا لا ازيد الا شوقاً اليه فاذا يصيبني اذا ابعدت عنه ولم يبق لي اقل امل ان اراه . ورآها القزم وهي على تلك الحال ورأى آثار الدموع في عينيها فلم يخف عليه امرها

ومضي النهار وهي سكرى لا تدري ماذا تفعل وكان الخدم يهيئون ما يلزم اخذه من الامتعة ونهضوا في الصباح وركب الامير عباس وزوجته واولاده خيولهم وحملوا الامتعة على ستة بغال ركب عليها بعض الخدم ايضاً وام يوسف معهم اخذتها معها الاميرة هند لتسليتهم حتى اذا بلغوا نهر الدامور وجدوا الماء فيه غزيراً الى بطون الدواب وكاد يحمل



واحدًا من المكارين فعلا صياح الجوارى واضطر الامير عباس ان يعود اليهن ويتهددن بالضرب ان لم يصمتن اما الاميرة هند والاميرة سلى فكانتا معتادتين ركوب الخيل فحاض فرسهما الماء بهما من غير ان توجسا شرًا . وتفدوا سيف النبي يونس ووصلوا صيداء بعيد الظهر فباتوا فيها في بيت قاضيها وهو من اصدقاء الامير عباس ومن اهل التقى وقاموا منها قبل الفجر قاصدين حاصبيا فوصلوها عند الغروب وخرج الامراء الشهابيون للقائهم ومعهم جماعة من اهالي حاصبيا فرحبوا بهم وانزلوهم على الرحب والسعة . وازنت الاميرة سلى بن رأت هناك من بنات اعيانها لاسيا واب بعضهن كن متعلقات في المدارس الانكليزية واباوهن على واسع علم وحسن محاضرة . ورأت عندهم كثيرًا من كتب الادب فاخذت تطالع فيها لتسلي نفسها وتسمى ما مر بها في الشئ الماضي مما شغل بالها ولا يرجى تحققة في زمن من الازمان ولكن لم يكدهم يستقر بهم المقام حتى وردت الاخبار ان الدروز هاجوا ساحل بيروت وحرقوا قراه وقتلوا كثيرين من سكانه فعلا البكاء والنواح في دار الخدم وقامت ام يوسف تطالب الاميرة هند بزوجه وتطلب منها ان ترجعها الى كفر شيما وهي تقول خرجنا يوم الجمعة وهو يوم نحس ما اقل عقلي . وقلق الامراء لانهم رأوا ان الفتنة اوقظت ولا بد ما ينتشر سعيها في البلاد كلها

## الفصل العشرون

### شكوى الحب

قام السردنري عن العشاء واتم التقرير الذي شرع في كتابته للسفير وارسل صورته الى نظارة الخارجية بعدما قرأها للقنصل . ثم دخل غرفته واخذ قلمًا وقرطاسًا وجعل يكتب لامية وكان كلام القزم لا يزال يرن في اذنيه ولا سيما قوله ان الاميرة سلى تحبه كما يحبها فاخذ يصف لامية ما شاهده من احتراق قرى لبنان وما رآه من احوال سكانه الفارين منه وما سمعه عن الحرب التي نشبت ذلك اليوم ومما قاله لها مهما اطنبت في جمال هذه البلاد لا اوفيها حقها من الوصف فقد طفت اسكتلندا في اجمل فصول السنة ورأت بحيراتهما وجداولها وجبالها ووهادها ومررت على سويسرا في فصل الصيف واقت فيها نحو شهرين ولكنني لم ار اجمل من ربي لبنان وساحل بيروت في فصل الربيع . والناس هنا اهل جد ونشاط الرجال يحرقون الارض ويغرسون الاشجار والنساء يغزلن ويحكن وكلهم يربون دود القز ويستخرجون



منه الحرير وامراؤهم ليسوا على ثروة طائلة مثل امرأتنا ولا قصورهم نفيسة مثل قصورنا ولكنهم  
متمتعون بشيء من لذة السيادة والاستقلال وعندهم الخدم والحشم من العبيد والجواري  
والخيل والبغال ويركب الامير منهم ومعه خدمه بالسلاح الكامل . ويظهر لي ان البلاد  
غنية على ما فيها من سوء الادارة ولكن مهما بالغت في قولي سوء الادارة فلا تفهمين  
مرادي لانك لا تستطيعين ان تنصوري ان حكومة تقسم شعبها قسمين وتحرض القسم الواحد  
على الآخر لكي يفتك به ويخرب دياره . هذا هو الامر الواقع الآن وقد بذل الكولونل جهده  
لكي ينعمه فما استطاع لان المغرین بالشراوى منا . ومما يسوفني ذكره ان جيراننا عبر البحر  
مساعدون على هذا التحريض لكي يخلوا البلاد . وقد ذهبت ناصحنا سدى وكان اليوم يوماً  
مشهوداً رأيت فيه الدخان صاعداً من منازل السكان الى عنان السماء وشاهدت بالنظارة  
البحرية التي عندنا جماهير الاهالي باثوابهم البيضاء والزرقاء واعلامهم الحمراء والبيضاء ومعهم  
قليلون من الفرسان وهم امراؤهم ومشايخهم يجتمعون ويفترقون ويترامون بالرصاص ويتضاربون  
بالسيوف ثم يهجم بعضهم على بعض ويندحر بعضهم من امام بعض وجنود الحكومة معسكرة  
في الطريق تصد الفارين عن الفرار وضلعها مع احد الفريقين على الآخر وهي لو ارادت  
لاطفات هذه الحرب بكلمة يقولها قائدها او مدفع يرمي به المعتدين

ونزلت بعد الظهر الى شوارع المدينة واحياها فرأيت ما نثفت له الاكباد رأيت النساء  
جالسات تحت اشجار التوت او في عرصات البيوت يندبن وينحن واولادهن يكنون طالبين  
ما يسد الرمق . ورأيت بعض الرجال واقفين حيارى لا يدرون ما يفعلون ولا كيف يعملون  
عيالهم وعيال الذين قتلوا من اخوانهم وقد نهبت امتعتهم وحرقت منازلهم . ورأيت امرأة  
بديعة الجمال ومعها ولدان كأنهما بدران وهي تندب ندباً ابكى الترجمان فترجم لي كلامها  
فاذا هي تقول "انها ذهبت الى القبر تطالبه بحبيبها فاجابها ان حبيبها ملق على الطريق تأكله  
طيور السماء وتنهش وحوش البرية"

نحن باذلون جهدنا الآن لتجمع من المال ما يخفف بعض الكرب عن هؤلاء المساكين ولو  
بتقديم الخبز لهم . فابذلي جهدك لتجمعي انا ما يمكن جمعه من احسان المحسنين وقولي لافلين  
ان هذا يومها فارسلوا لنا نقوداً وثياباً ان امكن والنقود احسن لان ارسالها اسهل يتجاوز  
على الصيرفة ولا بد ما تزيد الحاجة لانه يبلغنا ان الاوامر صدرت بقتل كثيرين في انحاء  
سورية او حيثما يمكن الايقاع بهم ويصعب علينا ان نصدق هذا الخبر لغرابته ولكن ما حدث  
اليوم يدل على صحته وسنرى ما تفعله حكومتنا في هذه الحال



اخبرتكم في تحرير سابق عن الاميرة سلى التي رايتها في بلدة قرب بيروت وقد رايت اليوم النار مضطربة في دار ابها ثم بلغني ان ابها ارتحل بها الى بلدة تبعد نحو يومين عن بيروت ولا اظن انها في مأمن هناك . ولا اخفي عليك يا اماء ان لهذه الفتاة في نفسي منزلة لا اراها لغيرها نعم اني لم انس اقلين وحبالي ولكنني كنت اشعر دائماً انها لا تنظر اليّ كما انظر اليها وقلبي يحدثني انها نسيتهن الآن او انها كانت تحبني محبة الصداقة او محبة الاقرباء بعضهم لبعض . وهذه الاميرة لم تكلمني كلمة تدل على الحب ولا انا ذا كرتها في هذا الموضوع لا صريحاً ولا تليحاً ومع ذلك كنت اشعر من قلبي اني وقعت في نفسها كما وقعت في نفسي وبقي هذا الاعتقاد فيّ مبنياً على التصوّر لا غير الى اليوم فسمعت اليوم ما حقق لي ظني وذلك انني عثرت على القزم المهرج الذي رايت في دارهم فاخبرني بامور وفي جملتها انه عارف عن ثقة ان هذه الاميرة تحبني وان ابن خالتها طلب الاقتران بها فرفضته وهو الامير احمد الذي اخبرتكم عنه قبلاً . فهذا الخبر وذهابها مع اهلها الى حاصبيا في هذه الاوقات بلبلا افكاري ولا اعلم ما يأتي به الغد . لا داعي لاجبار اقلين بشيء من هذا القبيل بل يكفي ان تخبرها بحاجة الناس هنا الى مساعدتها وكرمها ولقد اعطاها الله ثروة وافرة لتساعد بها المحتاجين فلجتي عليها للتصدق بكل ما يمكنها التصدق به وانا اراقب توزيعه على مستحقه بنفسي . ثم التفت الى امور اخرى خصوصية من حيث املاكهم وريعها وراتيه وطلب في الختام رايتها في امر الاميرة السورية

## الفصل الحادي والعشرون

### الشهابيون في بيروت

وصل الامراء الشهابيون الى مدينة بيروت بخدمة وحشمهم واستأجروا بيوتاً نزلوا فيها فرأوا ان نفقاتهم اليومية زادت عما كانت وهم في دورهم لان اكثر مواد الطعام لهم والعلف خيلهم ودوابهم كانت تأتي من املاكهم فلا يدفعون ثمنها اما الآن فاضطروا ان يشتروا الحنطة واللحم والسمن والزيت والزيتون والحبوب على انواعها والشعير والتبن . وكان لا يزال عندهم قليل من النقود من ثمن الحرير الذي باعوه او انزلوه معهم الى بيروت فانفقوه في ايام قلائل وجعلوا يستدينون من اعتادوا الاستدانة منهم من تجار بيروت وصيارفتها فاعندل الدائنون اولاً في معدل الربا ثم زادوا رويداً رويداً يوماً بعد يوم والتقى اثنان من التجار ودار بينهما الحديث التالي



نقولاً — هذه فرصة نادرة يا مارون اذا لم نستقمها سبقنا اليها بخور  
مارون — وما هي هذه الفرصة النادرة عسى ان لا تكون مثل فرصة الصوف التي  
خسرنا بها عشرة آلاف ليرة

نقولاً — من كان يعلم ان استراليا تمتلئ غنماً في سنة واحدة وتملأ الدنيا صوفاً ومع ذلك  
فالتورط الى هذا الحد في المشتري والتخزين كان رأيك ورأي عمك وجهد ما هنالك انني  
ارشدتكم الى الصنف وقلت انه ينتظر الصعود في ثمنه بناءً على ما كنت افراه في الجرائد  
التجارية وبناءً على ما كتب به الي عميلي من بلاد الانكليز  
مارون — ما علينا من مسألة الصوف فما هي هذه الفرصة النادرة

نقولاً — الشهابيون في بيروت وقد صاروا على الارض فقد باعوا كل حريمهم وصرفوا  
ثمنه ولا امل لهم بشيء من مواسم الغلال وهم يستدينون المئة الآن بعشرين وبثلاثين وبخور  
ورفاقة عازمون ان يسلفوا جلدكم اما انا فلا رأي لي ان نديتهم لاني لا استحل ان ندين  
بعشرين وبثلاثين بل ان نشري منهم املاكهم في سقي بيروت ووطانهم الكلب فان كل  
بساتين التوت هناك لهم ويمكننا ان نشترى منها منهم الآن بارخص ثمن  
مارون — اتعرف كم ايراد المالك الآن

نقولاً — اظن ان الايراد قليل لا يزيد على اربعة او خمسة في المئة ولكن اسعار  
الحاصلات ستزيد فيزيد معها ثمن الملك

مارون — كيف عرفت ان اسعار الحاصلات ستزيد وما ادرانا انها لا تنقص  
نقولاً — اني اعرف ذلك لسببين السبب الواحد يمكنني ان اخبرك به وهو ان دود الحرير  
مضروب في فرنسا واطاليا وقد اجتهد الفرنسيون كثيراً في علاج الضربة فلم يجدوا لها علاجاً  
ولا بدءاً ما يرتفع ثمن الحرير فيرتفع ثمن بساتين التوت هذا هو الامر الاول . والامر الثاني  
اخبرك به على شرط ان تعديني انه يبقى الآن في شرك

نقولاً — اذا كان الامر يحتاج الى كتمان فاعدك بكتانه  
مارون — لو ما كان يحتاج الى الكتمان ما كنت اطلب منك كتمان  
نقولاً — قل لي ما هو وانا اعدك بكتانه

مارون — اني اعلم عن ثقة ان عساكر فرنسا ستحتل سوريا والمرجح انه لا يمضي شهران  
حتى يكونوا هنا

فلما سمع نقولاً هذا الكلام ابرقت امرته وقال اذا كان الامر كذلك فستضاعف قيمة



الاملاك حتماً فما العمل ومن يطلبها لنا من الشهابيين

مارون --- ليس لنا الا السمسار غنطوس فهو يدخل فيهم مثل النعس ويلبص عليهم  
مثل الباطليوس

ثم استدعياهُ وسألاه عن الشهابيين وتدرّجاً معه في الحديث الى مشترى الاملاك  
اي الاراضي المزروعة توتاً وجنّاتٍ في ساحل بيروت ووطان نهر الكلب فوجداهُ على تمام الخبرة  
باحوال الشهابيين واتفقاً معه على السمسرة وعلى ان يذهب وبعاين الاملاك ويأتيهما بوصفها  
وقام من ساعته لهذا الغرض فاجتمع برجل اسمه عبد الله كان مستملاً اشغال امير من  
اغني الامراء واكثرهم اسرافاً. ويحكى عن هذا الرجل انه تورّط في اخلاص اموال مولاهُ  
حتى اغنى واقنى املاكاً وبني دوراً فاشتكى منه اولاد مولاهُ لابيهم وقالوا له ان عبد الله  
نهبك والناس كلهم يلوموننا لاننا ابقيناهُ عندنا كل هذه المدة فقال لهم ان هذا الرجل كان  
جانعاً فشبّع الآن فاذا عزلناه واتينا بانسان آخر يكون جانعاً فيضطر ان ينهب لكي يشبع فخير  
لنا ان نبقى الشبعان من ان نستخدم رجلاً جوعان

وكان عبد الله هذا على ما يُطلب من اتساع الذمة فسارهُ غنطوس واتفق معه على قسمة  
السمسرة مناصفة. وكان الامير قد فوّض اليه عقد سلفة بالنبي ليرة فجاءهُ في المساء بعد  
العشاء وجعل يشكو من ارتفاع الفائدة وان المداينين ماسكون السكين ليذبحوا ذبيحاً فلا  
يعطون المئة باقل من خمسة وعشرين في السنة وبعد كل جهد اترطم الى اثنين وعشرين  
وكان الامير اكلواً يأكل دجاجة او دجاجتين على عشائه ومضى شبع اتمكاً على  
مسند الى ان ينام فيقلب الى فراشه قبلما وينزل دمه الى معدته فلا يبقى منه في رأسه  
ما يكفي لتوليد الافكار او لتشغيل العقل فقال لعبد الله وما رأيك ولا اظن ان احداً يدبنا  
باقل من ذلك في هذه الضيقة. فقال عبد الله انني اهتمت الى طريقة اخرى لاخذ المال  
المطلوب من غير ان نخسر خسارة تذكر وهي ان الاملاك التي تحت قناطر زبيدة لا يبلغ  
ايرادها مئة ليرة في السنة ويمكننا ان نبيعها بالنبي ليرة وفائدة الالف ليرة ٤٤٠ ليرة على  
الاقل فاذا بعناها نكون قد وفرنا ٣٤٠ ليرة في السنة وعندي سمسار يمكنه ان يبيعها لنا  
بهذا الثمن اذا اعطيناهُ سمسرتهُ

ففتح الامير عينيه وقال له اعد لي ما قلته ثانية. فكرر له الكلام الاول - بالتّاني .  
فقال فهمت فهمت نبيع العلقة التي تحت القناطر بالنبي ليرة هي والمطحنة طيب بعت اكتب الحجة  
حتى امضيها لك



وفي اقل من خمسة ايام اشترى غنطوس للخواجه نقولا والخواجه ماروث املاكاً بنحو عشرة آلاف ليرة وهي تساوي عشرين او ثلاثين الف ليرة . ودري غيرها من التجار بذلك فجعلوا يتسابقون الى مشتري الاملاك وهي من جنى الشهابيين لانهم هم استخدموا الفلاحين لنقب الارض وحرثها وغرمها ولكن الذين تعبوا على انشائها ماتوا واورثوها اناساً لم يتعبوا بها فسهل عليهم بيعها وهكذا انتقل جانب كبير من املاكهم الى تجار بيروت . ولقد احسنوا في ما فعلوا من بيع الاملاك بدل استئدانة الاموال ورهنها لانهم لو استئدناوا ورهنوا املاكهم لتضاعف الدين في ثلاث سنوات فالذين اشاروا عليهم بالبيع لم يضروهم ولكن جاءهم الضرر من جهة اخرى وهي ان كثيرين منهم رأوا نجاح التجار ومكاسبهم الكثيرة فسوّلت لهم النفس ان يبيعوا املاكهم ويتجروا بثمنها وفاتهم ان التاجر يمارس التجارة ولداً ويربى فيها من صفوه حتى يترن عليها ويعرف اساليبها وامرارها وبغير ذلك تكون التجارة خاسرة فلم يعض عليهم وقت طويل حتى خسروا كل الاموال التي وضعوها في التجارة وهذا شأن كل من يستسهل الاعمال ويتعاطاها قبلما يثمرن عليها

## الفصل الثاني والعشرون

### المذاكرات السياسية

اجتمع مجلس الوزراء في بلاد الانكليز للنظر في ما سيطرح على البرلمان من المسائل ومنها مسألة عن جبل لبنان والفتنة التي انقدت نارها فيه . فقال وزير المستعمرات هذا هو الامر الذي كنت اخشاه من حين شرعت الشركة الفرنسية في انشاء سكة المركبات من بيروت الى دمشق فقد اخذت الآن نقول ان لها مصالح مالية في سورية لا يمكنها الاغضاه عنها والله لا بد لها من ارسال جنودها لحماية مصالحها هناك

فقال وزير المالية الى اين وصلوا في انشاء ذلك الطريق . قال ذلك موجهاً خطابه الى ناظر الخارجية

فاجابه وزير الخارجية لا يمكنني ان اقول بالتاكيد الى اين وصلوا لانهم ابتدأوا من اماكن مختلفة في وقت واحد على ما كتب به الي قنصلنا في بيروت لان البلاد جبلية وفيها كثير من الآكام والادوية والغدران ولا بد من بناء جسور كثيرة في اماكن مختلفة فبنوا هذه الجسور ومهدوا الطرق بين جانب كبير منها على ميول معتدلة . ولا يسعنا ان نشكر الله



صار لهم مصلحة مالية ثابتة في البلاد ولنا نحن ايضاً مصلحة مالية بسبب تجارتنا الواسعة وهي اوسع من تجارة فرنسا بل مثل تجارة اوربا كلها ولكن ليس لنا رأس مال موضوع في البلاد مثل فرنسا الا اذا اشترينا الشركة الفرنسية . وقد خابرت بعض الماليين في مشتراها فلم ار منهم رغبة في ذلك لانهم يظنون ان ثروة السويس ستبطل طريق التجارة البرية بين بيروت وبلدان المشرق وليس الاعتماد على تجارة دمشق نفسها بل على البلدان الشرقية التي تصل تجارتها الى دمشق

فقال وزير الحرية وهل تظن ان الفتنة خمدت واكتفى الفريقان بما حدث فاجابه وزير الخارجية كلا بل يظهر من تقارير قناصلنا ان النار لا تزال شخوة تحت الرماد وانه لابد من امتداد الفتنة الى المدن الكبيرة في داخلية البلاد ودمشق نفسها ليست بأمن من ذلك . والقناصل باذلون جهدهم لاختاد الفتنة وحماية النصارى ولكن الامر ليس في يدهم لانه يظهر ان اوامر سرية وردت من الاسنانة الى رجال العسكرية لايقاد نار الفتنة وليس المراد بها الفتك بالنصارى دون الدروز بل مساعدة فريق على فريق فيصح ان يساعدوا الدروز على النصارى ويصح ان يساعدوا النصارى على الدروز والمراد اثارة الفتنة على كل حال وتضحية بعض النفوس لغرض سياسي وهو تحريك اوربا لالقاء المسؤولية على الحكومة الحالية . هذا هو الغرض الذي يرمون اليه على ما اتصل بنا واخواننا عبر الخليج يرمون الى غرض آخر ولكنهم يتوسلون اليه بالطريقة نفسها اي بايقاد نار الفتنة في البلاد ونحن نكاد نكون مغلولي الايدي وقد كتب الينا قنصلنا في بيروت انه باذل قصارى جهده لاييقاف الفتنة عن هذا الحد واطفاء نارها ويساعده على ذلك صديق قديم لنا من مشايخ الدروز له اكبر سلطة على جماعته فاذا نجح في سعيه ووقفت الفتنة عند هذا الحد فلا اظن ان جيراننا يصرون على ارسال جنودهم الى هناك واذا لم تقف عند هذا الحد بل شملت البلاد كما يخشى فلا بد لنا حينئذ من تدبير آخر

فقال وزير الحرية اننا نطلب حينئذ ان يكون الاحتلال مشتركاً وترسل فرقة من جنودنا فقال وزير المالية وهل في الامكان ارسال جيش الآن مع ما نحن فيه من الضيق المالي ولا ارى ان الميزانية تساعدنا على ذلك

ونظروا الى رئيس الوزراء كأنهم يطلبون رأيه فقال ليس من الحكمة ان ترسل جنودنا مع جنود فرنسا لانه قد يتولد من وجود الجيشين مشاكل ليست في الحسبان وفوق ذلك فان جيراننا يتسهمون ان يرسلوا عشرة الآن مقاتل الى هناك ونحن لا نستطيع ان نرسل هذا



العدد ولا يليق بكرامتنا ان يكون عدد جنودنا اقل من عدد جنودهم فيضعف نفوذنا حيث نريد ان يقوى ولكنني ارى انه يسهل علينا ان نقنع فرنسا بان يكون ارسال جنودها باسم اوربا كلها وحينئذ يسهل علينا ايضاً ان نطلب منها ارجاعهم باسم اوربا حينما يتيسر الاستغناء عنهم

فاستصوب الجميع هذا الرأي وطلبوا من ناظر الخارجية ان يكلم سفير روسيا به وسفير بروسيا قبلما يكلم سفير فرنسا

واجتمع البرلمان في المساء فقال احد الاعضاء قرأنا في جرائد الصباح ان حرباً اهلية نشبت في سورية وان لبعض الدول الاوربية يداً في ذلك فما هي الاخبار التي عند الحكومة وما هي التدابير التي عزمت على اتخاذها لاختتام الفتنة

فاجابه رئيس المجلس ان ما قرأه حضرة العضو المحترم صحيح بوجه الاجمال والحكومة تنظر الآن في التدابير التي يجب اتخاذها ومتى اقرت عليها لا نأخر عن اخبار المجلس بها فقال عضو آخر ان لنا مصالح مالية كبيرة في مدينة بيروت فهل يحشى على تلك المدينة وما هي التدابير التي اتخذتها الحكومة لوقاية مصالحنا هناك

فاجابه الرئيس ان الاخبار التي وردت الينا حتى الآن لا يظهر منها انه يحشى على مدينة بيروت وعلى ذلك فقد امرت نظارة البحرية بارجحة من اسطول البحر المتوسط بالذهاب من مالطة الى سواحل بيروت وسواحل سورية

وقال عضو ثالث ان جماعة من المبشرين الانكليز منتشرون في مدن سورية فهل أخذت الاحنياطات اللازمة لوقايتهم

فقال الرئيس يظهر ان قناصلنا لم يفتلوا عن ذلك ولا عن حماية المرسلين الاميركيين والمرجح ان المتحاربين يحترمون الراية الانكليزية مهما كانوا لان اعمال بحريتنا الجيدة في سورية ولا سيما في بيروت وعكا لم تنس من تلك البلاد حتى الآن ثم دارت المناقشة في مواضع اخرى داخلية وخارجية

اما في فرنسا فلم تدخل المسألة بمجلس النواب بل اكتفت الوزارة بالمداولة فيها وبين ناظر الحرية ان الجنود مستعدة للسفر عند اول اشارة وان معارضا انكترا على ما جاءهم في التقارير السرية لا يعبأ بها لان انكترا لا تستطيع ان ترسل جيشاً مثل جيش فرنسا ولا تستطيع ان تمنع ارسال الجيش من فرنسا بعد ان يتفاهم الخطب في سورية ويتخفف نصارى كسروان للاخذ بشار اخوانهم



## الفصل الثالث والعشرون

## استفحال الفتنة

سُرَّ الدروز بالفوز المبين الذي فازوه في ساحل بيروت وودعوا الاكتفاء به حاسبين انهم قهروا الشهابيين وهم عمدة النصارى الآن والى بيروت لم يكن من رأيهم تجتمع بعض امرائهم الى الحازمية خارج بيروت وقال لهم انكم لم تفعلوا شيئاً حتى الآن ولم يزل النصارى اقوى منكم كثيراً ولا بدّ لهم ان يأخذوا بالثار ولا سبيل لضعافهم حتى تامنوا شرهم الا بتخريب مدنهم الكبيرة زحلة ودير القمر وجزير وحاصبيا وراشيا فازحفوا عليها والفوز لكم فدبت الخوة في رؤوس البعض منهم وقالوا له سمعاً وطاعة وخاف البعض الآخر سوء العاقبة ولا سيما لانهم كانوا يعلمون ان دول اوربا لا يمكن ان تسكت عن ذلك فقالوا له اننا في المتن والشوف والعقوب ووادي النجم كثار ولا يعسر علينا التغلب عليهم ولكن لا ينبغي على دولكم ان نصارى كسروان اكثر منا كثيراً فاذا جاهدوا لنصرة اخوانهم فلا طاقة لنا بهم فقال لهم اننا احتطنا لذلك ونصارى كسروان لا يحركون ساكناً ولو تظاهروا بمساعدة اخوانهم لم تروا كيف انفض جمعهم من بعدا حالما امرناهم بذلك . ثم انصرفوا من لدنهم واكثرهم واثق انه يفعل ما وعدهم به

ووصل الى دمشق في تلك الاثناء رجل اسمه صادق افندي وجعل يجتمع بشايخ الدروز من حوران وبعض مشايخ لبنان حتى اذا اتم عمله الذي حضر لاجله امر بالعودة الى الاستانة بعد ان اسر الى الوالي بما جاء لاجله . ويقول اهالي دمشق ان سلوك الوالي تغير معهم بعد سفر صادق افندي

ثم اجتمع الدروز وحاربوا اهالي جزير وبكاسين وحرقوها وقتلوا كثيرين من سكانهما وزحفوا بعد ذلك على زحلة وكان كثيرون من نصارى العقرب قد قاموا لمهاونة اهاليها فالتقوا بالدروز عند ظهر البيدر وكادت الدائرة تدور على الدروز وقتل هناك ابن عقيدم علي ابن خطار العاد . وكان الشيخ اسمعيل الاطرش قد جمع دروز حوران وعربها عملاً بامر والي دمشق وقام بهم لنجدة دروز لبنان حتى اذا دخل وادي العجم وجد فيه بعض النصارى من اقليم البلان فقتلهم وهم ١٣٥ نفساً وسار برجاله الى ان وصل الى زحلة وفي اثناء ذلك وصلت اليها فرقة من الجنود العثمانية وعسكرت امامها وحينئذ هجم الدروز عليها من الجنوب والغرب فصد اهاليها هجماتهم وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية وظلت الحرب سجالاً الى ان قدم عليها



رجال من الدروز من الجهة الشمالية وكان الاهالي ينتظرون نجدة من يوسف بك كرم فظنهم النجدة المنتظرة ولكنهم ما لبثوا حتى اخذوا يطلقون النار على الحامية فانهمزمت من امامهم ورأى اهالي زحلة ان الدروز دخلوا مدينتهم من ورائهم فارتدوا رويداً رويداً وظلوا يناوشون من امامهم الى ان خرج اكثر الذين في زحلة وساروا الى جهة بسكنتا . والظاهر ان الخوف من العرب وجنود الدولة كان مائلاً القلوب ولولا ذلك لتعذر اخذ تلك المدينة

وكان في زحلة رجل من اهالي دير القمر رأى ما جرى وتدبره فلم ان الحركة مدبرة وان لا بدء من الزحف على دير القمر فكتب الى ترجمان قنصل الانكليز في بيروت يخبره بما جرى في زحلة وبما يوجس منه وتوصل اليه لكي يئذل كل ما في وسعه لمل القناصل على الذهاب الى دير القمر بانفسهم لانه اذا احاط الدروز بها لم يبق لاهلها مهرب منهم فسمى الترجمان مع غيره من وجوه دير القمر المتوطنين بيروت لدى قناصل الدول فلبوا طلبهم واتفق قنصل انكلترا مع قنصل فرنسا على الذهاب الى دير القمر ولو ذهبوا ما حدث شيء مما حدث فيها وما حدث في غيرها بعدها ولكن والي بيروت اقنع قنصل فرنسا بان لا داعي لذهابهم وانه هواي الوالي يرسل قومندان مركز الولاية لوقايتها وقال مثل ذلك لقنصل الانكليز واقنعهم بان لا داعي لذهابهم . ثم ارسل القومندان فذهب واجتمع بشايخ الدروز وحرصهم على الفتك بالنصارى . قيل ولما رأى سعيد بك جانبلاط منه ذلك بعث اثنين من خواصه الى اهالي دير القمر يطلب منهم ان ينزحوا اليه الى المخارة اذا فارقه القومندان فصدق بعضهم كلامه وساروا اليه فحاصم واما الباقون فجمع اميرالاي العساكر العثمانية سلاحهم بعد ان تهددهم بان لا امان لهم ان لم يعطوه السلاح وكانوا قد افنوا كل ما عندهم من البارود والرصاص فسلموه اسلحتهم فادخل الدروز الى مدينتهم فنهبوا ثم ذبحوا كل الذين التجأوا من الاهالي الى سراي الحكومة . قيل وكان متسلم دير القمر مخالفاً للاميرالاي في هذا العمل الوحشي وحمل كل الذين التجأوا الى دارهم من الاهالي لكن الاميرالاي امر الجنود والدروز ان يدخلوا دار المتسلم عنوة ويقتلوا كل من لجأ اليها ففعلوا ثم ان المتسلم نفسه جرع غصص المنون بعد ان عاد الى بيروت

هذا بالاختصار التام اما التفصيل فتشعر منه الابدان وتذوب له النفوس امي فانهم كانوا يذبحون الولد على ركة والدته وينزعون الطفل من يد امه ويضربونه بالسيف فيشطرونه شطرين ويردونه اليها قائلين خذيه فقد اسكتناه لك ويقطعون اوصال الرجل



قبل ان يذبحوه ولم يبقوا على احد من الذكور وقد جنّ بعض النساء ممّا رأين من الفظائع  
ما اشدّ توحّش الانسان اذا اطلق العنان لشهوة الغضب وما اقيح التعصب الديني اذا  
حمل اصحابه على الانتقام من الذين يخالفونهم ديناً . واقبح من هذا وذاك تدبير المذابيح وتنظيمها  
لغرض في النفوس كما فعل ذلك الوالي وزبائنته وتلك الفئة الطاغية في الاستانة فانه كان  
يجب عليهم ان يعرفوا ما ستؤول اليه الحال ولكنهم اغمضوا عيونهم لكي لا يروا وصموا  
آذانهم لكي لا يسمعوا

ووصل تفصيل هذه الحوادث الى الكولونل روزقنصل الانكليز الجنرال في بيروت  
ووصله ايضاً تفصيل ما جرى في حاصبيا وراشيا وخلاصته ان الامير سعد الدين كان في  
دمشق وقد استعفى من الولاية على بلاد حاصبيا فاعطيت لابنه الامير احمد وكان احمد  
باشا والي دمشق يتودّد اليه فطلب منه ان يعود الى حاصبيا مع فرقة من الجنود العثمانية  
لتحصيل الاموال الاميرية من دروزها . واستشار الامير سعد الدين صديقاً له من  
النصارى فاشار عليه ان لا يذهب لئلا يغتاز الدروز من مطالبتهم بالاموال في ذلك  
الوقت ويثوروا عليه فاستعفى من الذهاب لكن الوالي لم يعفه بل اضطره اضطراراً  
وارسل معه فرقة من الجند حتى اذا وصل الى حاصبيا وطالب الدروز بالاموال الاميرية  
ثاروا عليه واجتمعوا على حاصبيا من كل الجهات المجاورة لها . فخرج النصارى منها لماؤستهم ثم  
تقهقروا وتحصنوا في السراي فهجم الدروز على بيوتهم وسلبوها ثم حرقوها وقال اميرالاي  
العسكر للنصارى انه لا يستطيع ان يحميهم ما لم يسلّموا اسلحتهم فسلّموه اياها فبعث بها الى  
الدروز وسد منافذ السراي لينهم من الحرب منها . وبلغ القناصل في دمشق ما حدث  
فطلبوا من الوالي ان يرسل ضابطاً كردياً من دمشق ليأتي بنصارى حاصبيا اليها وقرّ القرار  
على ارسال احمد بك اجليقن فطلب ان يؤذن له بضرب الدروز ان هم منعه من جلب  
النصارى فلم يأذن له الوالي في ذلك فرفض الذهاب على هذه الصورة فاستدعى الوالي  
الشيخ كنج الاماد وارسل معه باوراً الى حاصبيا ومعه الاوامر اللازمة لاميرالاي الجنود  
العثمانية التي هناك وبعد وصولها بيوم واحد أدخل الدروز الى السراي التي فيها النصارى  
فقتلهم عن بكرة ابيهم ذبحوهم ذبح الغنم ومثّلوا بهم تمثيلاً ثم صعدوا الى دار الامير سعد  
الدين في اعلى السراي فقتلوه وقتلوا صهره الامير جهجاه واربعة آخرين من الامراء  
الشهابيين ظلماً منهم انهم من النصارى . وهجم دروز حوران على راشيا فادخلهم الجنود الى  
سراي الحكومة وقتلوا كل من التجأ اليها من النصارى وبلغ قتلى حاصبيا نحو ٧٠٠ نفس



وقتل راشيا ٥٠٠ وقتل دبر القمر وما جاورها نحو ١٥٠٠ نفس قُتلوا كلهم في الدم البارد بعد ان سلموا اسلحتهم لرجال حكومتهم

ولا تحسبن الدروز كلهم اشتركوا في هذا العمل الفظيع خاضتهم وعامتهم . كلا فان بعض العامة وكثيرين من الخاصة كانوا اشد الداس مودة للنصارى فدافعوا عنهم وجوهم في بيوتهم من كل اعنداء ولولاهم ما نجا احد

ولما اطلع السرهري بدمونت على ما حل بخاصيا حيث كانت الاميرة سلى ووالداها رجفت شفتاه واصطكت ركبته وكاد يغمي عليه ثم غلى الدم الاسكتسي في عروقه فاحمرت وجنتاه ونهض وجعل يثني في غرفته ذهابا وايابا بل يركض فيها ركضا كمن يطارده عدو ودخل الكولونل روز عليه وهو على تلك الحالة وكان قد قرع الباب مرارا ولم يسمع مجيبا ففقه خائفا ان يكون السرهري مريضا فلما وقعت عينه عليه قال له السرهري قرات توارىخ البشر الحاضرين والغابرين فلم ار ولم اسمع ان دولة تقتل رعاياها لغير اثم ولا حرج قضاء لما رب شخصية كيف صبرنا على هذا الجور وكيف نصبر عليه . اذا رأينا رجلا يعذب نجة او عصفورا بغير سبب ألا نتعرض له فهب ان هؤلاء المساكين نجاج او عصافير افلا نقضي الشفقة علينا ان نتعرض لمن يمسك الرجل منهم ويقطع اذنيه ويديه ثم يذبحه ذبحا . ألا نتعرض لمن يلقي راس الولد على ركة امه ويذبحه عليها ألا نتعرض لمن يأخذ الطفل الرضيع من يدي والدته ويطعمه بخنجر ثم يرده اليها والدم يسيل من صدره . ما هذا التوحش وما هذا الجور الذي نحن فيه . اين الشهامة اين المروءة ثم ما حال اولئك الارامل الثاكلات النائحات التاديات وما حال بناتهن اذا كن قد تركن لهن واين مقرهن الآن . وفي تلك اللحظة عينها خطرت بباله صورة سلى ممزقة الاذيال تجري بين الصخور والادغال ووراءها وغد يجده في اثرها فحمد الدم في عروقه ثم انتفض كما انتفض العصفور بلله القطر وقال للكولونل روز ألا تظن اني استطيع ان اقوم ببعض ما يجب علينا اذا ذهبت الى صيداء واستصحبنا قنصلنا او بعض القواسة ومضينا الى جهات حاصيا ووادي التيم نفتش عن الذين سلموا من القتل والموت فنغيثهم ونأتي بهم الى بيروت

وقبل ان يجيبه الكولونل على ذلك شعر انه اخطأ في ما قال لان غرضه الاكبر من هذا الذهاب شخصي وقد عبر عنه على اسلوب يفهم منه انه مجرد عن كل غاية شخصية فلام نفسه على ما فرط منه واستدرك قائلاً ولي في ذلك مأرب شخصي لا اخفيه عن الكولونل . ثم قص عليه قصته مع الاميرة سلى من اولها الى آخرها



وكان الكولونل يعرف الامير عباساً ويوده لا خلاصه ويعلم انه على خلاف مع الوالي وانه غير راض بما حدث من الفتن ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن ابنته ولا عن علاقة السرهنري بها فحركت في نفسه عوامل الشهامة وشعر بسلطة الحب شعور من نسي صديقاً عزيزاً ثم التقى به فرثى لحال السرهنري وقال له قم ولا تتأخر ساعة واني لاستغرب سكونك عن ذلك الى الآن نعم انك غير واثق بحب هذه الاميرة لك ولكن مهما كان شأنها فليس من الشهامة وعزة النفس ان تتركها في هذا الوقت وانت قادر على مساعدتها . لو كنت مكانك لذهبت الآن ولم اتأخر ساعة

فشكره السرهنري على ذلك وقال له يشق عليّ جداً ان اتركك في هذا الوقت مع تراكم الاشغال عليك واشتداد هذا الحر الذي يكاد يزهق النفوس ولكن ما دام الذهاب فرضاً عليّ فانا ذاهب

وقام من ساعته وامر احد القواسة ان يعد ما يلزم لذهابهم الى صيداء وجهات مرجعيون وغياهم شهرًا من الزمان وكسب الى امه بخلاصة ما بلغهم من اخبار المذايح وطلب منها ان تبذل كل ما في وسعها لجمع الصدقات من اهل البر والاحسان وقال لها ان ما ترسلونه من نقود واحرمة واقشة تشكرون عليه اعظم شكر لان علينا ان نطعم الوفاء من النساء والاطفال ونكسوم . وختم الكتاب بالسلام لاقلين وبالاتجاه الى كرمها وحانها

### الفصل الرابع والعشرون

#### حادثة دمشق

لا اعدى من الحمس الديني ولا اشد منه خطراً على البلاد لاسيما وانه سلاح الرعاع الذين اذا ثار ثأرهم امسوا وحوشاً ضارية لا تأخذهم شفقة ولا رحمة . وبما ويح بلاد يطلق العنان لرعاها ويحرضون على الانتقام من مخالفهم مذهباً فان التاريخ يشهد انهم كانوا يفتكون بالالوف ولا يملون ويرتكبون اقبح الموبقات مع اسياهم الذين هم غرس نعمتهم . واي عمل اقبح من ان تربى ولداً مسكيناً في بيتك وتأنته على اولادك واموالك ثم تراه وقت الشدة مقبلاً اليك كالوحش الضاري والخنجر في يده ينفذه في صدرك وصدور اولادك لكي يفتنم اموالك . الوحوش الضارية لا تصل الى هذه الشراسة ولكن ابن آدم يقدم عليها عنواً اذا ثار في صدره ثأر الحمس الديني . كذا فعل اليهود بالنصارى والنصارى باليهود واهل الشيعة باهل السنة واهل السنة باهل الشيعة ولا تزال امثال هذه الفظائع تجري في بلدان



المشرق وان زالت الآن من بلدان المغرب حتى لقد يقف المرء حائراً بين قوائد الاديان ومضارها وايها اكثر انواع الانسان وان شئت فقل المنتطعين في الاديان لان الدين بريء مما يفعله المنتطعون فيه باسمه

اهالي دمشق من مسلمين ونصارى من الين الناس عريكة واكثرهم وداعة وقد عاشوا السنين الطوال متآلفين متحابين والنصارى قلال العدد جداً وكأَنهم عائشون في حمى المسلمين وهو لاء اهل نقي ومسالمة ولا سيما الكبراء منهم ولكن لما اراد ذوو الشأن ان يوقعوا الحفاء بينهم وبين المسيحيين لاغراضهم لم يتعذر عليهم ان يجدوا من يجب نداءهم من العامة فخرضوهم واطلقوهم فانطلقوا كالنار في الهشيم يذبجون ويفتكون الى ان جرت الدماء انهاراً وحل بالسليبيين هناك ما لم يحل بهم مثله من زمن الفتح الى الآن . ولولا بعض الصلاح ذوي الشهامة والنجدة لما ابقي الاشرار على احد كل ذلك والوالي متسلح بالاوامر السرية التي في يده وغير خائف ان يطالب بشيء مما فعل

ووصلت اخبار هذه المذابح الى بيروت وهاجر اليها من بقي حياً من نصارى دمشق وسائر مدن الشام التي اصابها ما اصاب دمشق فازدحمت بهم منازلها وشوارعها وبساتينها حتى كنت ترى عائلتين او ثلاثاً في غرفة واحدة بل اخرجوا الدواب من مزاربها وسكنوها . والاولاد المعتادون رفاهة العيش كانوا يفتشون عن اوكار النمل ليأكلوا ما فيها من الحبوب واذا اصاب احدهم رغيماً اجتمع حوله عشرون من امثاله يقاسمون اياه

وبادر اهل البر والاحسان في اوربا الى معونة اولئك المنكوبين بسخاء حاشي فارسلوا اليهم اكياس الدقيق واثواب القطن والصوف وكثيراً من النقود واقيمت اللجان في بيروت لتوزيع الاحسان ولولا ذلك ل مات كثير من جوعاً

وظل المنكوبون في بيروت ينقلبون على مثل حجر الغضا ويبحث بعض النساء عن ازواجهن واولادهن وهن لا يعلمن في عداد من قتل هم او لم يزالوا في قيد الحياة وكل يوم يصل جريح لم يجهز الاعدا عليه فبقي مغطى بالقتلى مغمى عليه من كثرة ما نزف من دمه الى ان افاق ودفعته بقية الحياة الكامنة فيه الى الحرب فجعل يسري ليلاً ويخفي نهاراً وهو يسد رقعة باعشاب الارض الى ان بعد عن مواقع الخطر . والاطفال الذين ارضعتهم امهاتهم لبن الحزن يموت الواحد منهم بعد الاخر وقناصل الدول يكتبون الى دولهم يشرحون لها وقائع الحال وهم مجمعون على استقباح ما جرى واستفطاعه . ورجال الدولة متربسون ليروا ماذا تكون العاقبة وهم يكذبون تارة ويشخون اخرى قائلين ان لا شان للدول الاجنبية حتى



تطالبهم بما يجري بينهم وبين رعاياهم . ووحوش البر وطيور السماء قزت نفوسها من اكل لحوم القتلى فجلست امامها يدفعها الطبع اليها وبمدها الشبع عنها وهو شعور جديد لم تعرفه من قبل . والشمس تشرق على منازل اكلتها النار والنجوم تطلع عليها فلا ترى فيها غير الضباع وبنات اوى . وقد ندم الله على خلق الانسان كما ندم في عهد نوح وودّ ملائكته ان تصاب الارض بطوفان آخر يطهرها من الاشرار

العجب احد بعد هذا ان كانت ارض الموعد جنة الله في خلقه الارض التي كانت تفيض لبناً وعسلاً الارض التي نشأت فيها دمشق وصور وصيداء واورشليم وبيروت وعكا وعسقلان ارض حكمة اليهود وصناعة الفينيقيين التي طمع فيها الفاتحون من كل الاقطار لكثرة خيراتها وتوسط موقعها . بلاد الضيافة والشهامة وعزة النفس . هذه البلاد اوصلها سوء السياسة الى ان صار ابناؤها يجرش بينهم ليفترس بعضهم بعضاً

قدورا — من اين يا ابانغر والى اين

ابونغر — صليت الجمعة وانا راجع الى البيت والله ما عاد لي نفس اجلس في القهوة  
قدورا — ولماذا . ماذا جرى

ابونغر — اما سمعت ؟ قال ان السفرا والقناصل طلبوا منك كل مشايخ الدروز وشنقهم . الصبح كنت عند الوالي لا نقل هو خبرني انا القطها طائره من هنا كلمة ومن هنا كلمة . والله العظيم لو سلح رجال الباشوره لطلعوها مقابل كل الافرنج

قدورا — ولكن انا سمعت ان فرنسا عازمة ان ترسل عسكرياً كبيراً الى هنا

ابونغر — هل هذا صحيح من قال لك ذلك . فرنسا كانت مع مولانا السلطان وقت حرب المسكوب هي والانكليز ولكن الكلام بسرك زادوها قال قتلوا كل النصارى في الشام . هذا حرام . الله وصانا بالذمي وبالجار . الله يساعدنا قل آخر زمان قرب وقت المهدي . ما سمعت ولا كلمة عن بيت رسلان . الامير احمد انا ريته وبالي مشغول عليه سألت الوالي عنه قال سمع انه ترك البلاد وقصد حوران . الله يهونها آخر زمان آخر زمان

ويتنا كان ابونغر يتذاكر مع قدورا افندي على ما تقدم كان الخواجه بخور والخواجه شمعون يتذاكران في الاخبار التي بلغتهما من دمشق وفي ما يخشى منه على بيروت

فقال بخور كانت المذبحة هائلة وقد انتقمنا منهم على ما جرى لنا في مسألة البادري توما واشترى يوسف كل الصيني الذي كان في بيت الخوري وكل شيلان الكشمير



فقال شمعون وما ادرانا انهم لا يرتدون الينا بعد ما يخلصون منهم  
 بخور — كان بابي مشغولاً من هذا القبيل في اول الامر اما الآن فقد اطمان فان  
 اصحابنا دبروها في اسطانبول وانت مكاتب توصية للوالي بنا في الشام وسيفي بيروت حتى  
 اخواننا الذين في دير القمر ما اصابهم شيء الله يهونها على البرطيل فهو يحل شاة القاضي  
 شمعون — والصيني الذي اشتروه هل هو شيء يحرز

بخور — شيء لا مثيل له في قصور الملوك فانهم كانوا يتوارثونه ابا عن جد صحت  
 وزبادي وفوارير كبيرة وصغيرة من كل الاشكال وبعضه قديم جداً عمره اكثر من  
 الف سنة وكان الناهيون عازمين على تكسيه ولكن ربك الحميد وصل يوسف اليهم قبلما  
 كسروا شيئاً منه واشتراه كله بليرتين واذا كان هو كل الصيني الذي اعرفه فيساوي خمسة  
 آلاف ليرة واشترى ايضاً من شيلان الكشمير ما يساوي التي ليرة على قوله ولم يدفع ثمنه  
 الا نحو عشرين ليرة . اما الفضيات والخماس فلا تسال عنها لانها كثيرة جداً وتسابق  
 الناس الى مشتراها

شمعون — اذا سنة مباركة وهل تظن انه يحدث شيء هنا  
 بخور — لا يبعد فاني كنت عند الوالي امس فكنتي بالتبليغ ولم يصرح اما انا فاخاف  
 من المراكب الحربية لانه اذا جاء مركب واحد حربي لا يعود احد يجسر على شيء  
 شمعون — والاخبار من لندرا

بخور — الدنيا قائمة قاعدة هناك الاعضاء في مجلس النواب يسألون الوزارة مئة سؤال  
 كل يوم . والقسوس يعطون في الكنائس ويعرضون الناس على الدولة . والنتيجة طيبة على  
 كل حال لانهم يجمعون الاموال ويرسلونها الى هنا . هذه خلاصة آخر مكتوب وصلني اليوم  
 يوسف — الله يصرفها على سلامة اقول لك مال الدنيا يبقى في الدنيا وانا قلبي رقيق  
 فاني حينما ارى هؤلاء الارامل والاطفال يتفتت قلبي وانذكر الايام التي كان يصير فيها بنا  
 مثل ذلك واخاف ان يثقل الدهر والدهر دولا فيصيبنا كما اصابهم . اله اسرائيل حي لا  
 يموت الله ينجيننا من اولاد الحرام

بخور — الحق معك مال الدنيا يبقى في الدنيا هذا سلمون مات وماذا اخذ معه ولكن الله  
 اوصانا ان نجتمع مال الامم . الا نذكر ماذا قال لنا لما امرنا بالخروج من مصر . والمال قوة  
 كما يقول الانكليز

ودخل ثالث فاقطع الكلام في هذا الموضوع



## الفصل الخامس والعشرون

## توثع القضاء

كانت البيوت في حي مارمتر احد احياء بيروت قليلة صغيرة منفردة بين بساتين الثوت وقد لجأ اليها كثيرون من النصارى الذين سلموا من المذابح فكنت ترى البيت الذي فيه اربع غرف تسكنه اربع عيال . ولم يكده يستقر بهم المقام حتى اخذ الرجال منهم يقتشون عن اعمال يعملونها وشارك النساء نساء الحي في تسليك الحرير وكبة فاكسبن ما ساعدن به رجالهن على نفقات بيوتهم . ولم يترك الاولاد يلعبون في الشوارع بل أرسلوا الى المدارس لان اهالي سورية يحسبون تعليم اولادهم من الضروريات التي لا بد منها فترى الرجل يقتصد في نفقاته لاجل تعليم اولاده والمرأة تبيع حلالها وتعلم اولادها ولا يكتفون بتعليم الصبيان بل يعلمون البنات ايضاً

في مدرسة من هذه المدارس وفي غرفة واحدة على دائها مقاعد من الخشب والاولاد جلوس عليها مرصعين رصاً والمعلم جالس على كرسي الى جانب الباب وامامه مائدة صغيرة عليها جرس ودواة وفي يده قضيب من الرمان - وقف ثلاثة اولاد امام المعلم وجعلوا يقرأون في كتاب طبع حديثاً في المطبعة الاميركية وبيناهم يقرأون والمعلم يصلح اغلاطهم ويأمر المجتهد بشد اذن الكسلان دخل رجل طويل القامة اسم اللون عايس الجبين لابس دامراً مرخي الاكمام - دخل يتهادى في مشيه لطول قامته فنهض المعلم وافقاً اكراماً له ووقف للتلامذة كلهم لوقوفه . فامسك بيد المعلم وامر في اذنيه كلمتين ثم خرجا من المدرسة ووقف امام الباب يتحادثان وبعد هنيهة عاد الرجل من حيث اتي ودخل المعلم وقرع الجرس وقال للتلامذة اذهبوا كل واحد الى بيته لا تتحدوا بمنة ولا يسرة ولا تتأخروا في الطريق وقولوا لاهاليكم ان المعلم صرفنا وستفعل المدرسة بضعة ايام وخذوا كتبكم معكم

فقام التلامذة وتأبط كل كتابه او كراسه وتكتفوا وخرجوا في صف واحد ثم تفرقوا وسار كل منهم في طريقه ولم يكادوا يصلون الى بيوتهم حتى وجدوا فيها حركة غير عادية وبعضهم التقوا بابائهم ذاهبين للبحر بهم وقابلهم امهاتهم بلهفة وادخلتهم حالاً الى داخل البيوت وكان قد اخذن يجمعن القليل من ثيابهم ويرزمنها

فدُهِش الاولاد من ذلك وسأل الكبار منهم اباؤهم وامهاتهم عن سبب هذا الاضطراب واقبلت حنة واصبعها على فمها وهي تقول لاختها "هس قتل مسلم وبدم يقتلوننا كنا"



فامسكت امها بكتفها وهزتها وقالت لها اسكني يا مضروبة

ما ارب تلك الساعة وما اثقلها على النفوس . الوف مؤلفة من الارامل والايام  
الذين نجوا من المذابح وقصدوا بيروت للاحتماء بها . الوف من النساء اللواتي ذبح رجالهن  
واولادهن امام عيونهن . الوف من الصبيان والبنات الذين نجوا مع امهاتهم وساروا يوماً  
بعد يوم مشياً على اقدامهم الى ان بلغوا بلاد الامان . مئات من الرجال الذين ساعدتهم  
التقاير على النجاة وعلى كل منهم ان يعول عائلتين او ثلاثاً من عيال اخوته الذين ذهبوا  
شهداء للسياسة والطمع — كل هؤلاء التجأوا الى مدينة بيروت وهم يحسبون انهم نجوا من  
كل خطر وفي ساعة واحدة رأوا سيف النعمة مسولاً فوق رؤوسهم فتصوروا المشاهد  
الفظيعة التي مرت بهم منذ شهر او شهرين ورأوا فيها اشلاء القتلى لم تنزل ثكرك والدم يغور  
من جراحها وايقنوا ان نجاتهم كانت حلاً مرّاً وانقضى وان السيف تابعهم لا محالة ولم يبق  
لم مهرب ولا نصير . الجبل وراءهم محروق القرى والبحر امامهم يرغي ويزبد

مضى العصر ومالت الشمس الى المغرب وطالت ظلال البيوت والاشجار واكدّر ماء  
البحر بعد صفائه وبدت تباشير الشفق فوق جبال لبنان وامتدت اصابعه من الشرق الى  
الغرب . الطبيعة ساكنة جامدة ولكن النفوس جاشئة مضطربة

ماذا نعمل يارب الى اين نذهب بهؤلاء الاولاد اولادنا واولاد اخيك واولاد صهرك  
ليس لنا مهرب الا الى بيت ابراهيم فانه واسع وله بوابة كبيرة متينة ولا بد ما يجتمع  
فيه كثيرون من اهاليها واقاربنا فندافع عن انفسنا الى ان يفرجها ربنا

وبعد قليل جمعوا ثيابهم وساروا هي وزوجها وسلفتها وابنة حميها واولادهم الى ان وصلوا  
الى بيت الخواجه ابراهيم وهو من وجوه بلدهم وكان قد نجح مع الذين نجوا احتجى بيت الست  
نائفة ثم هرب بعد المذبحة ورحل الى بيروت واستأجر بيتاً كبيراً فيها لانه كان على شيء من  
الثروة . ولما اتت اموال الاحسان جمل وكيل على توزيعها فخص نفسه بجانب كبير منها . اما  
الآن فهرب من بيته الى بيت رجل من وجهاء بيروت له بوابتان الواحدة داخل الاخرى  
وهو احصن من بيته وكان صاحبه مشهوراً بشجاعته وبانه من امهر الرجال بلعب السيف  
ولكنه كان قد هرب من بيته والتجأ الى دار وجيه كبير من اكبر اغنياء بيروت فلما وصلها  
وجدتها مملوءة بالناس الذين التجأوا اليها من النازحين ومن اهالي بيروت انفسهم والدار كبيرة  
ساحتها مرصوفة بالحصى الملونة ولها سور عال على دائها وفي وسطها حديقة غناء فيها من  
انواع الازهار والرياحين وفسقية كبيرة يتدفق الماء منها وعلى جانبي الحديقة بناءان فخيمان



كل\* منهما طبقتان فيهما الغرف الكبيرة الدالة على غنى واغروا عجب فان صاحبها جمع ثروة طائلة من مصر وبر الاناطول من التجارة والمرايحة لكنه شعر الآن بالخطر كاشعر غيره فاخذ زوجته واولاده وامواله ونزل الى سفينة بخارية كانت راسية في المرفأ ووافاه اليها اولاد عمه وكثيرون من اغنياء المدينة وعزموا على السفر تلك الليلة تاركين الدار تنعى من بناها وغابت الشمس وخيم الليل والرجال يمدون ما وجدوه من الاسلحة ليدافعوا بها الدفاع الاخير والنساء يضرعن الى الله والى السيدة والاولاد سهروا مع والديهم الى ان غلبهم سلطان الكرى فانطرحوا في اماكنهم وجالت نفوسهم في فردوس الاحلام يحلمون بالعالم تارة وبدروسهم اخرى ولم تغمض في تلك الليلة الا عيونهم

وجلس اثنان من الشيوخ يحدث احدهما الآخر عن حركة الامير بشير الاولى والثانية وعن خروج ابراهيم باشا ويقول مررت بنا التباريج ولكن لم يحل بنا مثل هذا الضيق ايدججونا ذبح الغنم برجل واحد ولا احد يشفع ولا احد يدفع وقد تخلى الله عن شعبه واسلنا الى يد الاعداء فقال الآخر هذه آخر الايام كما انبأنا الجفر ولكن لا بد ما يأتي المسكوب من اقصى الشمال كما قال النبي دانيال

فقال الاول يأتي ولكن بعد خراب البصرة وما نفع عجيتي الآن وقد اجتمعت طوائف الدروز وقبائل العرب في حرش بيروت فاجابه الثاني ولكن لماذا لا ينزل رجال كمروان خلاصنا اين يوسف كرم واين البطرك لم نر منها الا المواعيد

فقال الاول — سمعت ان يوسف كرم مخاوذ معهم ولكني لا احط بذهتي وعلى كل حال آخر زمان يا ابا نهرا

الثاني آه على ايام العبا رزق الله على تلك الايام ولكن ما العمل والسن له حق انظر كيف ترتجف يدي فلا استطيع رفع البندقية ولا يزال الرصاص في نخذي من ايام ابراهيم باشا . هذا الذي كتبه الله علينا ولكن لا بد ما يجي المسكوب قلبي يقول لي ان مراكة الآن في البحر ولا بد ما نراها غدا

والتقى نقولا بمارون هناك وقال له اين عساكر فرنسا التي وعدتنا بمجيئها فاننا لم نسمع عنها كلمة والامر كما ترى وكنت عازماً على النزول في البحر مع الذين نزلوا ولكننا لم نكتب حتى الآن جميع الاملاك التي اشتريناها اخيراً من الشهابيين واخاف ان يصيبهم شيء وينكر اولادهم المشتري



مارون — الحق بيدك ولكن اذا اصابهم شيء وكنا باقين معهم اصابنا كما يصيبهم  
فماذا تنفع الحجج  
نقولاً — صحيح ولكن المال اعز من الروح وانا تأخرت في المخزن حتى صفيت اشغالي وما  
وصلت الى البيت الا منذ ساعة ولولا ذلك لالزمتني ام ميري ان تنزل الى البحر مع الذين نزلوا  
مارون — هل تظن ان فرنسا عدلت عن ارسال عساكرها  
نقولاً — كلاً ما عدلت ولكن الانكليز وضعوا لها الف عرفة لانهم لا يريدون ان  
تأتي وتأخذ البلاد وحدها

مارون — الله ينجينا من مناظراتهم و يصرفها على سلام  
نقولاً — اظن انها تصرف فارت القناصل اجتمعوا كلهم وذهبوا الى الوالي ودرّكوه  
بالمسؤولية واجتمع عقلاء المسلمين ونهوا على الجهلاء في الجوامع ان لا يفعلوا شيئاً وقد سمعت  
الآن وانا داخل انهم قبضوا على القاتل وقتلوه ولكن الاشرار كثار ويقال ان العسكر معهم  
وهذا الذي يخوفنا . وارسل القناصل يطلبون مراكب حربية فاذا وصل ولومركب واحد  
لزم الاشرار حدهم

مارون — الله كريم وكيف حال بخور وشمعون واخوانهم  
نقولاً — ما على قلوبهم فان الوالي طمنهم بنفسه

مضى الليل بتباريحهم واشرفت الغزالة وانعكست اشعتها عن وجوه صفراء لم تغمض لها  
عين وعيون غائرة لم يغمض لها جفن واطفال يبكون وينحبون طالبين كسرة خبز او شربة  
ماء ولم يكن الا القليل حتى اهتزت تلك النفوس طرباً كأنه بسلك كهربائي وجعل الالوف  
يستشرفون البحر او يصعدون على السطوح ليتكفوا من رؤيته وهم يقولون اتى الله ينصره  
الله ينصره

في اقصى الشمال بارجة تشق سطح الماء وقد رفعت شراعها للنسيم واستعانت بما فيها من  
البخار بقودها الامل ويسوقها الواجب وكأن اله السلام اوحى الى ربانها ان قم على عجل  
واقصد مدينة بيروت فهناك مئة الف نسمة حياتهم معلقة بخيط من المنكبوت . فقام لا يباوي  
على احد واستعان بالرياح والبخار حتى اذا اشرف على المدينة جعل يطلق اكبر ما عنده من  
المدافع فاهتزت المنازل وتكسر زجاج الشبايك واخذت الدهشة قوماً والفرح آخريين .  
اخذت الدهشة رعا القوم الذين يتوقعون الفن والثورات لكي يطلقوا انفسهم المخطئة عنانها



وبأثروا من الشر ما فطروا عليه واخذ الفرح العقلاء والفضلاء الذين يعلمون ان الفن تفضي الى خراب البلاد وتضييع مصالحها

والتقى احمد بمصطفى بعد ساعة من الزمان وقال له الحمد لله على انفراج الازمة . فقال مصطفى الحمد لله على كل حال فقد اويت في بيتي ثلاثين عائلة من هؤلاء المساكين وكنت حائراً كيف ادافع عنهم وادفع عنهم الاشرار . انا لا افهم هذه السياسة سياسة والينا وستأتي كلها على رأسه . باي شرع وفي اي سنة تحرّض الرعية بعضها على بعض — الله نجينا من القوم الظالمين . ليأخذوا الآن على ايديهم فقد جاء المسكوب وسبع دول ما وقفت في وجهه اسمعت صوت مدافعه كسر نصف الزجاج في شبايك بيتي

فقال احمد نعم قبض كبير لم ار مثله في حياتي مع اني سافرت الى قبرص والى الاسكندرية . ولكن ماذا فعلوا بالقاتل مصطفى — مسكوا واحداً وقتلوه

احمد — هل هو القاتل

مصطفى — لا اظن ولكنه لم ينكر انه هو القاتل — على كل حال انقضى الاشكال ولما كنا في المجلس عند الوالي سمعت رأيه ووافقي اكثر اخواننا ولكن هذا الثائرة ابا نجر كان حاضراً ولا اعلم باي صفة يحضره الوالي في مجلسه وقال ان عنده كتابات من كل مشايخ الدروز وانهم كلهم مستعدون لاول اشارة حتى ينزلوا على بيروت فقلت للوالي سلمنا انهم نزلوا وانه تم كل شيء على حسب رغبتك فمن نجينا بعد ذلك من الفرنسي والانكليز والمسكوب والله نحن غير قادرين على الاروام . فقال لي حلك يا حاج مصطفى حلك اما دول اوربا فانا عالم انها لا تحرك ساكناً نعم ان اهاليها ترسل الصدقات ولكن رجال الحكومة لا يفعلون شيئاً ومهما جرى فالحالة الحاضرة لا بد من تغييرها . وقد انصرفنا من عنده واكثرنا غير موافق له على رأيه ونهينا في الجوامع حتى لا يصير شيء وقد آتت هذه الفرقاة غلت عزائمهم وسترأه الآن يحاسن ويحامل ويقول انه كان باذلاً غاية جهده في حفظ الامن وسينزل الآن للتسليم على الاميرال

احمد — هل ردت القشة السلام للفرقاطة

مصطفى — نعم ردت ولكن كان صوت مدافعنا مثل صوت الفقاعة

احمد — اتظن اذاً انه انقضى الاشكال

مصطفى — انقضى وقتياً ولكن الله يسترنا من عواقبها



وانفجرت قلوب الالوف من سكات بيروت واللاجئين اليها على اثر مجيء البارجة الروسية وجعلوا يعانق بعضهم بعضاً ويهنئ بعضهم بعضاً بالسلامة وعاد كل<sup>١</sup> الى منزله.

## الفصل السادس والعشرون

### الذهاب الى العرب

وصل الامير عباس وزوجته واولاده الى حاصبيا كما تقدم وخرج الامراء الشهابيون ورجالهم للقائهم الى سوق الخان ولم يقابلوهم باطلاق البنادق على جاري العادة لان الامير عباس ارسل بنهام عن ذلك وامراء حاصبيا انفسهم كانوا يخافون ابقاظ الفتنة باية وسيلة كانت لكن حذرهم لم يجدهم نفعا . ولما وصل الامير سعد الدين الى حاصبيا مرسلًا من قبل والي دمشق ليجمع الاموال الاميرية من الدرود قص على الامير عباس ما اشار عليه به احد اصدقائه في دمشق وكان الامير عباس يعرف هذا الرجل ويعرف انه واسع الخبرة شديد الفراسة فقال للامير سعد الدين لا رأي لي بالاقامة بيتكم بعد الآن ولا اظن انهم يضمرون لكم الا الشر . وقد دعاني الامير عمر الفاعور امير عرب الفضل اليه فاري في تلبية دعوته السلامة . ثم اخبر زوجته واولاده بما عزم عليه فوقع الخبر على زوجته وقع الصاعقة لانها كانت ترى البدو الذين يشتون في ساحل بيروت وهم في حالة من القدر تسمتز منها النفوس فظنت ان كل البدو مثلهم اما الاميرة سلى فطربت اولًا لهذا الخبر لانها كانت تود ان تقف على حال البدو في قفارهم وتري معيشة نساءهم وبناتهم وتحقق بالخبر ما قرأته عنهم بالخبر . وكانت تحب ركوب الخيل فتصورت نفسها راكبة مع اميرات العرب يحجن القفار وينشدن الاشعار فطربت نفسها لذلك ثم تذكرت انها تبعد عن السرهنري وقد لا تعود تراه فخفق فوادها وصعد الدم الى وجهها ثم تقلص عنه فاصفرّت وجنتاها وارتحفت شفتاها وجالت الدموع في عينها فالتقت جبينها على يدها وحاولت ان تنسى كل شيء حتى وجودها

ومر اخواها بهذا السفر لانهما كانا يحببان ركوب الخيل ايضاً ولم يغتظ منه الا امها وام يوسف وكادت ام يوسف تعدل عن الذهاب معهم وودت ان ترجع الى كفرشيا او بيروت ولكنها لم تجد من يوصلها اليهما فعادت تندب زوجها واولادها وسلمت بالذهاب مع الاميرة هند مكروهة وهي لا تشف لها دمة

وكان الامير عباس على وفاق مع الست نائفة اخت سعيد بك جنبلاط فارسلت معه اثنين من رجالها ليوصلاه الى عرب الفضل ويخبرا الدرود الذين يلتقي بهم في الطريق انه



من اصدقائهم . ولم يكن السير شاقاً كما ظنت الاميرة هند ونزلوا في الطريق على مشايخ الدروز والعرب الى ان وصلوا المزار في جبل عجلون فالتقاهم الامير عمر بن خمس مئة فارس راح على بعد ساعتين من مضاربهم وكانت عيونهم مبهوثة في البلاد فاوصلت اليه اخبارهم قبل وصولهم بيومين . ولما دنا من الامير عباس ثرجل الاميران وتصالفا فترجل الفرسان كلهم في اقل من طرفة عين وعلا صهيل الجياد . ثم دنا الامير عمر من الاميرة هند وقبل يدها وعاد الى الاميرة سلمى فطارحها السلام مصافحة وقبل يده بعد ان صافح بها يدها وكانت مسفرة عن وجهه فيجمل البدر فوقه عينان تفتنان الطيبي وقد توردت وجنتاها من هواء الصحراء ومما جاش في صدرها من الفخار لما رأت الجياد تندفق كالسيل المنهمر كأن الاخلاق التي غرست في نفوس اسلافها وهم في بطحاء مكة وجبل كامل لم تزل من خلفائهم بل بقيت آثارها فيهم تظهر كلما حانت لها الفرص ونهبتها العوامل

وكان الامير عمر شاباً في نحو الخامسة والعشرين طويل القامة ايض الوجه اسود العينين ولم يطلق العنان لمعارضيه على جاري عادة العرب ولا جدل شعر رأسه كما يفعلون لان ابيه احضر له معلمين من دمشق فعلموه مبادئ العلوم وزار دمشق غير مرة وتزيا بزي اهلها وكان لا بساً قفطاناً من الاطلس الاحمر فوقه رداء من الجوخ الرصاصي وعلى رأسه كوفية وعقال من الحرير والقصب وتدل ثيابه ورائحته على انه عائش في نعمة ونعيم فسرت الاميرة سلمى بمنظرهم وطلاقة وجهه

ثم ركب الاميران وركب الفرسان لركوبهما وانشقوا شطرين فسار الامير عباس والاميرة هند في المقدمة والامير عمر والاميرة سلمى ورائهما واخراهما ورائها ثم سائر الخدم والحشم الى ان بلغوا مقدمة الفرسان وكان السهل قد لثم الجبل فصعدوا فيه بين المتاهل والغدران وواصلوا السير على هذا النمط الى ان وصلوا الى مضارب الامير عمر فلقوا مئات من النساء بالمزاهر والدفوف قد خرجن للقاءهم وهن ينشدن نشيد الترحيب ويقولن

هَلَا بِالضيف هَلَا بِالضيف امير شهاب عزيز ومهَاب

وآل الفضل ضيوف الفضل وكل الفضل لآل شهاب

وكانت واحدة منهن تقول الدور والباقيات يرددن عليها على نقر الدفوف والمزاهر فطربت الاميرة هند والاميرة سلمى ووقفنا هنيئة تسلمان عليهن وثقولان مرحباً بالزينات مرحباً بزينات الدار ربات الفخار حتى اذا دخلنا الحلة وجدنا الاميرة عاتكة ام الامير عمر واقفة في باب خدرها فسلمت على الاميرة هند مصافحة واعنتقت الاميرة سلمى وقبلتها في



وجنتيها. وجلس الامراء وحدهم في مضرب كبير والاميرات وحدهن وقدّمت لم كلهم  
القهوة الجديدة وكؤوس الشراب ثم مدّت اسطمة الطعام وعليها الخرفان المحمّرة وكان عند  
الاميرة عاتكة جارية تحسن الطبخ التركي فطبخت للاميرات الواناً من الطعام والحلوى لم  
يأكلن اطيب منها

ولم يكن الامير عباس ضعيف البنية ولكن الثرّة الكثير والانقطاع للمطالعة اضعفا جسمه  
فصار لا يقوى على عوادي الادواء وكأنّه اكل طعاماً غير صالح او شرب ماء تطرّق اليه  
الفساد وهو آت في الطريق او اثرت فيه حرارة الشمس او اصابه امر آخر فلم يكذب عشاءه  
حتى اصابه صداع شديد وكانوا قد اعدّوا له مضرباً خاصاً فقام اليه وجاشت نفسه فتقيأ  
ما اكله وحمّ واصابه شيء من الهذيان. وأخبرت زوجته واولاده فاتوا مضربه وقد تولّاهم  
القلق ولا رأوا ام يوسف التي قالت ان سيدي مسموم قالت ذلك همساً في اذني الاميرة هند  
وخرجت تدعو الخدم ليأتوها بكثير من اللبن حتى تسقيه وفهم الامير عمر مرادها فاسودّت  
الدينا في عينيه وقال لها انما اكلنا معاً من خروف واحد وعن سباط واحد وشربنا القهوة من  
غلاية واحدة وانا شربت قبله. فاخذت تعتذر عن نفسها وقالت ربما يكون سيدي قد  
شرب شيئاً او اكل شيئاً في الطريق واتوها بكثير من اللبن لكن الامير ابى ان يشربه  
وأرسل الامير عمر اربعة فرسان الى دمشق يستدعي طبيباً من امهر اطبائها

واشدّت الحرارة على الامير عباس الى درجة لا تطاق حتى كاد يشتمل ثم انحطت  
سريعاً وجعل يشكو من ضيق النفس والعطش الشديد وجعل جلده يجف ثم يتندّى بالعرق  
دواليك ونبضه يسرع ثم يبطئ وازرق وجهه وعنقه وانقبضت حدقاته ثم اتسعنا واصابته  
تشنجات صرعية وعقب ذلك سبات عميق

وكان في القبيلة شيخ كبير مارس صناعة التطبيب من غير معلم ومن غير كتاب ناقلاً  
ما يعرفه عن ابيه وجدّه ومضيفاً اليه ما عرفه بالاخبار فاستدعاه الامير عمر حالاً فامر  
بصب الماء الكثير على رأس الامير عباس قائلاً ان ما اصابه ضربة شمس. ورأت الاميرة  
هند ان ما قاله الرجل صواب لان الشمس كانت حارة وكان نورها ساطعاً جداً حتى اضطرت  
ان تسدل ثيابها على وجهها اكثر الطريق ولم تخف حرارتها بعد غيابها فاذنت لم في صب الماء  
على رأسه وخالفتها ام يوسف في ذلك وهي تقول مموه يا ستي مموه اسمعي مني واسقوه  
اللبن وزلال البيض لكن الاميرة هند لم تصغ اليها بل امرت بصب الماء وكان ماؤهم بارداً  
لان الارض جبلية فانتعش الامير عباس قليلاً ثم عاودته الحمى واسلم الروح



## الفصل السابع والعشرون

## المائة

تمرُّ الرزايا بالمرء فيراها عن بُعد ويستعظمها قبلما تصل اليه ويظن انها اذا وقعت به ضاق بها ذرعاً لاسيما وانه يعظم امرها في غيره ويعجب من صبرهم عليها ثم اذا حلت به فالغالب انه يصبر عليها ويجري معها كأنها امرٌ عادي وقع له لان الامل بالنجاة منها يخفف وطأتها ويحلي مرارتها. ولكن اذا جاء المصائب الاكبر وتقدسهم القضاء وانقطع الامل من البقاء وخطف الموت عزيزاً ورأى المرء امامه رزية لا يمكن دفعها ولا منعها فقد صبره وغاض ينبوع امله وضافت به الحيل وارتد دمه الى قلبه فلم يعد يغذي دماغه لتذكيره بالمواظع والحكم. فيسمع منك اقوال التعازي ويقول سمعت وفهمت ويكون قد سمع وفهم ولكنه لم يع شيئاً - حالة لا يتصورها الا من وقع فيها ورزى بفقد عزيز ولاسيما اذا كان سنده الوحيد ومدير امره

هذا ما اصاب الاميرة هند واولادها وهي غريبة نزيلة على قوم من البدوي بلاد لم تطأها قدماها من قبل وبين اقوام لا تعرف احداً منهم

كان زوجها يعرف الامير عمر ويعرف اياه وقد حارب معه كتحف في عهد ابراهيم باشا لكن ذلك كان قبل ان اقترنت به. وكان الامير عمر يواصلهم بالهدايا ولكنها لم تر صورته الا ذلك اليوم فلم تكذب تأنس به وبامه حتى وقعت بها هذه الضربة الاليمية

وقد عاشت مع زوجها نحو عشرين سنة على تمام الهناء والصفاء وكانت تهتم به اكثر مما تهتم النساء بازواجهن عادة لان معرفتها غرسوا في ذهنها انه هالك ولا بد لها من ان تجاهد جهاداً مستمراً في الصلاة لاجله. فاكثرت من الصلوات والندور في السنة الاولى والثانية ثم رأت ان زوجها افضل سيرة وسيرة من كل الذين تعرفهم حتى من رجال الدين وسمعت مرة واحداً يتلو آية من التوراة مفادها ان كل من يعمل البر فهو مقبول لدى الله مهما كانت امته فانجلي لها وجه الصواب وقالت ان الله لا يأخذ بالوجوه بل الناس لديه حسب اعمالهم ونياتهم. وكانت لا ترى من زوجها الا العمل الطيب والنية الصالحة على ما فيه من الرزاق والوفاء ومجادلة الناس بالحسنى حتى ان المطران كان يسر بجدتيه ولا يسمعه كلمة تفيظه فزالت الشكوك من نفسها ومنعت القسوس عن الكلام معها في امر زوجها. ثم لما كبر اولادها اتجه همها كله الى تعليمهم وتهذيبهم فلم تعد تهتم بالخلاف الديني الذي بينها



وبينه ولم يخطر لها ببال انه يمكن ان يموت قبلها لانه لم يمرض قط مدة اقترانها به فلما رآته الان مطروحاً على فراشه لاهراك به لم تصدق انه ميت بل اخذت يده وجعلت تناديه وتكنيه ثم غلبتها عواطفها واسودت الدنيا في عينها فاعولت بالبكاء

وغلب الحزن الاميرة سلى وجف دموعها فوقت شاخصة ولكنها لم تكد تسمع بكاء امها حتى وقعت على الارض وطرحت رأسها على صدر ابيها وهي تبكي وتقول يا ابي يا ابي . وفاضت الدموع من عيون اخويها وجعلوا يبكيان وينتجان وقد قام كل منهما في زاوية من المضرب ووقف الامير عمر حائراً في امره رأى هذا المشهد وسمع نواحاً يفتت الاكباد فاغروقت عيناه بالدموع ولكنه لم ينس هول الموقف وما يطالب منه ويطالب به فوقف يفكر في امره وجلست ام يوسف على الارض وقد غلبها الحزن فلم تحاول الدب على جاري عاديها فانها كانت من النادبات الشهيرات ولكن الحزن الشديد يبكم الالاسنة

وعلا البدر فقصرت ظلال المضارب واشتد حلكها بالنسبة الى النور الذي حولها ونجمته النكلاب من كل ناحية فانقطع عواء الذئاب خوفاً ورهبة . وبركت الجمال وربضت الثيران والاعنام تجتر وتلوك جرتها على مهل ووقفت الصافنات الجياد تغمض جفونها ثم تفتحها كلما مر خفاش من امامها . وخمدت الثيران امام المضارب وعلا نقيق الضفادع من جوانب الغدران حيث تظللها اغصان الصفصاف والبان فامتزج به خريف الماء امتزاج الحسيني بالعشيران . واجتمعت الخفافيش على اشجار الاجاص والزعرور تحتصم وتصيح ولكنها لا تنتقل من الحجاج الشجاج لانها تكفي بالكفاف من الطعام ولا تفعل فعل ابن آدم الذي لا يكفيه شيء بلهمه فيطمع بما في يد غيره ويجور على ابناء نوعه

ودخل الامير عمر مشوره وجمع رؤساء عشيرته الادين وقص عليهم ما حدث بالاخصار فقال ان اباؤنا كان متآخياً مع الامير عباس من عهد ابراهيم باشا إخوان الدم<sup>(١)</sup> وقد اوصاه ابوهم قبل وفاته ان يحسب الامير عباساً عمماً له ويبر به بر الاب بانه وان استدعاه اليه الى جبل عجولون لما علم ان في النية قتل امراء حاصبيا واللاجئين اليهم ولكن يظهر انه كان مريضاً فائرت فيه الشمس وقتلته والطبيب يقول انه مات من ضربة الشمس ولا بد من ان يطلبه الشهابيون والحكومة بدمه فلما تبجلي لهم الحقيقة ولكنه واثق ان الاميرة هند وابنتها الاميرة سلى تقرران الحقيقة وهي انه وصل المضارب متعباً ثم اكل من الطعام الذي اكل منه ولداه واصحاب المنزل واصيب بعد ذلك بصداع شديد وحمل وقضى نحباً قبل ان يشرب دواء . قال

(١) ان يخرج كل منها يد ويص كل واحد من دم الآخر



وقد احضرتكم الآن لاستشيركم في امرين الاول ان الامير عباساً كان مسلماً فهل ندع الامام  
يفسله وندفنه مسلماً والثاني هل ندع رؤساء العشائر كلهم وقيم لهم مأتماً يليق به . قال ذلك  
واوماً الى شيخ كبير السن شيبت الايام رأسه ولكنها لم تحن ظهره كأنه يطلب منه الجواب  
على سؤاليه

فقال هذا الشيخ اما عن الامر الاول فالرأي عندي ان نستشير زوجة الامير ونعمل  
بقولها ولا سيما اذا وافقها عليه اولادها . واما الامر الثاني فواجب الضيافة وعهد الاخوة بين  
الامير المتوفى وبين المرحوم ابيك بقضي علينا ان نخفل بمأتمهم كما احتفلنا بمأتم ابيك  
ووافقه سائر الرؤساء والمشايع على ذلك وللحال نادى الامير عمر بالسعاة وبعث معهم الى  
كل احياء قبيلته وعين وقت الدفن عصر اليوم التالي واعطى الطبيب خجراً من عطر الورد  
حتى يصبه في الماء الذي يغسل الميت به فيمنع فسادهُ . واوصى مدبريته ان يخر مئة خروف  
وعشرة جمال ويطبخها كلها غذاء للجمع التي تحضر المأتم وان يطبخ معها عشرين قفة من الارز  
ويخبز ما يكفي ثلاثة آلاف نفس ويفعل كما فعل في مأتم ابيه بحيث تكون مضارب طبخ الطعام  
مفصولة عن المضارب التي يقام فيها المأتم ولو لم تكن الارض سهلاً كما كانت حينئذٍ

وأتى هذه المهام كلها بما لا مزيد عليه من السرعة وعاد الى المضرب الذي فيه الميت  
وكانت امه قد جلست الى جانب الاميرة هند تشاركها في البكاء والنوح ووقف خدم الامير  
خارجاً يبكونه ويندبونهُ ولا سيما مربي اولاده وكان رفيقاً له في صباه وشبابه وشهد معه  
المواقع التي حضرها وقضى عمرهُ عزباً منقطعاً لخدمته وخدمة اولاده فشر الآن كأنه فقد  
ركنهُ الوحيد في الدنيا وجلس عند باب الخيمة يبكي سيده ويعدده ويولم الموت لانه لم  
ياخذه بدلاً منه . وجلست ام يوسف الى جانب الاميرة سلمى وهي تندب مرة وتنوح أخرى  
وبات الجميع على هذه الصورة الى ان ثقل سلطان الكرى على الاجفان ولج الامير عمر على  
الاميرة هند واولادها لينهضوا ويناموا في مضاربهم مؤكداً لهم انه يتولى حراسة الميت بنفسه  
وقد يُظن لاول وهلة ان مضارب البدو خالية من كل وسائل الراحة والرفاهة ولكن  
ليس الامر كذلك لان امراءهم على ثروة واسعة وهم يترددون على المدن القريبة منهم ويقتبسون  
ما فيها من الكماليات لا سيما وأنه يزورهم رجال الحكومة احياناً وينزل بعض السباح عليهم  
ضيوقاً فيضطرون الى اقتناء الامتعة الفاخرة مما يلزم لراحتهم ولذلك تجدد عندهم الفرش الوفيرة  
مهيئة للضيوف ويقتنون الجواري المعتادات على خدمة اهل الرفاهة فنامت الاميرة هند وابنتها  
في مضرب مبطن بالحرير على فرش وثيرة تغطيها دثر من الحرير والكثبان ونام ولداها في



مضرب آخر متصل به والمضربان الى جانب مضرب ام الامير

واصبح الصباح وسُوت الانعام واجتمع الخيامون فخطوا مضرباً كبيراً من مضارب كثيرة  
لفقوها معاً وسمكوه على عمد عالية وشدوا اطنابه فكان منه قبة واسعة كقبة نجران ووضعوا  
الميت في نعش كبير بمجال بشالات الكشمير ونصبوا له دكة في وسط القبة وسرجوا اربعة من  
الخيول المطهمة ووقف السياس بها امام المضرب

ولم يمض ساعتان او ثلاث من النهار حتى انتظم عقد النائحات حول النعش وهن  
مسدولات الشعور وقصّ بعضهن شعورهن وطرحنها عليه اكراماً للميت وجعلت ام يوسف  
وامراً من البدو ثباريان في انشاد ابيات النذب والثناء والندابات يرددن اقوالها والاميرة  
هند والاميرة سلى لا تكفان عن البكاء حتى تقرحت امامهما

واعدوا نعشاً آخر يمثّل نعش الميت وجعلوا فيه حجارة كبيرة وجللوه بشيلان الكشمير  
وجعلوا يحملونه ويرفعونه فوق رؤوسهم ويطوفون به حول قبة الماتم والحياد الاربعة ماشية  
امامه وعلى جانبي كل جواد رجلان معها سيفان مسلolan فوق ظهر الجواد ورجل ثالث  
يقوده ووراء النعش شاعر يعدده وباقي الرجال يرددون ما يقول ومن ذلك قولهم

ياسيدي وباسنجق كل القول لك يلبق

لما شاعت اخبارك الشركا لبست الازرق

وقولهم ياسيدي ويا ابن دلال ياربح انشكل بالمال

قال السيف خبوني لغير سيدي لا تعطوني

ابن الكان ينقلني ويرخي بنودي عالشروال

وكما اقبل فريق من قبائل العرب وقف في اول الميدان هنيئة ونادى بصوت جهوري  
معدداً مناقب الميت ثم تناول النعش من حامله وطف به حول القبة على ما تقدم واستمر على  
ذلك الى ان يصل فريق آخر ويتناول النعش منه ودام الحال على هذا المتوال الى ان  
تكبدت الشمس السماء

وكان رؤساء القبائل جلوساً مع ولدي الامير في مضرب كبير تجاه قبة النعش يدخلون  
التبغ ويشربون القهوة فلما بلغت الشمس الهاجرة جاء الخدم واخبروا الامير عمران الاسمطة  
مدت للطعام في مضارب الرجال وجاءت الجواري فاخبرن امه بمدتها في مضارب النساء  
فنهض الامير ودعا رؤساء القبائل وسار امامهم فجلس نحو مئتي نفس من الرؤساء دفعة  
واحدة ولما شبعوا جلس مئتان غيرهم وهم جراً الى ان بلغ عدد الآكلين اكثر من ألفي نفس



واكل النساء في مضرهنّ اما الاميرة هند والاميرة سلى فاكنتا مع ام الامير عمر في مكان منفرد ومن طعام خاص ولم يكن يذقن طعاماً

حُمِلَ النعش بعيد العصور سير به الى مدفن عائلة الامير عمر في سفح ذلك الجبل ودفن فيه ونُحِرت على القبر النياق والقيت عليه الحجارة الكبيرة وودعت الجماهير الامير عمر وابني الفتيق وعادت الى احيائها وصعد هو مع رجاله الى مضارب مضيّع الرشد لا يعلم ماذا يفعل

ودام المأتم ثلاثة ايام والعرب يقدون افواجاً افواجاً كل يوم يعزون ولدي الامير لكنهم يقتصرون على الحجيء نهاراً ولا يقفون الى الليل ولما انقضت الثلاثة الايام وثلاثة بعدها جلست الاميرة هند وابنتها وابناها واستدعت صبي<sup>(١)</sup> اولادها وجعلوا ينظرون في ما يحسن بهم عمله في

تلك الاحوال هل يعودون الى بلادهم بفقارة الامير عمر ورجالهم او يقفون عندهم الى ان تجلي تلك الغيايب وتطمئن الخواطر . فقالت الاميرة سلى وكان لها الرأي المعلى ان الفتنة لا تزال قائمة في بلادنا فلا نكون بأم من فيها ولا يليق بنا ان نكلف الامير عمر الذهاب اليها في هذه

الافوات ورأيي يا اماه ان نبقى هنا الى اواخر فصل الخريف وحينئذ يرحل الامير عمر من هذا الجبل الى بلاد الساحل فطلب منه ان يوصلنا الى دمشق . وقلبي يحدثني ان قنصل الانكليز في بيروت سيبحث عنا ويعرف مقرنا ويرسل الينا من يردنا الى بيروت ان لم يأت هو

بنفسه الينا والعرب على تمام الوفاق مع الانكليز لانهم ينقلون لهم البريد بطريق البر الى خليج العجم وقد سمعتُ تشرشل بك يتكلم مع ابي في هذا الموضوع لما زارنا آخر مرة

فقالت الاميرة هند فهمت مرادك فانت تعنين السرهري الذي زارنا مع ابن خالتك لا قنصل الانكليز نفسه . لماذا تظنين انه يبحث عنا وكيف يستطيع ان يهتدي الينا اذا كانت حاضيا قد احترقت الآن كما يظن . ولنسمع ما يقوله اخواك وصبيهما

فقال الاخوان انهما يفضلان البقاء عند الامير عمر الى ان يفرجها ربنا . واما صبيهما فارنأي ان يرسل رسول من العرب لاجبار الامير احمد وهو يدبر طريقة لحمايتهم وكادت الاميرة هند توافق على هذا الرأي ولكن الاميرة سلى رفضته ووافقها اخاها لانهما كانا يكرهان ابن خالتهما ويقولان انه متكبر مدعٍ

واشتد الجدل بين الاميرة هند وامين الاخوين وصبيهما واخيراً قالت الاميرة سلى ما ضرنا يا اماه لو انتظرنا شهراً من الزمان الى ان يفرجها الله فاننا لم نر من الامير عمر وامه واهل قبيلته كلهم الاكل اكرام ولا اظن انهم يسمحون لنا بالرحيل عنهم الآن ما

(١) الصبي في اصطلاح الشهابيين الذي يرثي اولادهم ويذهب بهم الى المدرسة



دامت القلاقل قائمة في جبل لبنان وكل البلاد المجاورة له

ودنا اخواها من امهما واخذها يديهما يقبلانهما ويقولان نعم يا اماء مثل ما نقول سلى نبقي هنا ونحرس تربة والدنا الى فصل الشتاء ثم نرحل مع الامير ففاضت الدموع من عيني الاميرة هند لما قال ولداه ذلك وصمتت هنيهة ثم قالت مثلاً يريد الله . ولم يقل صبيهما شيئاً بل عزم ان يرسل رسولاً يخبر الامير احمد كيفما كانت الحال وكان الامير احمد يكرمه ويواصله بالهدايا واعطاه مرة خنجرًا محلياً بالذهب وملقطاً من الفضة لمسك السيكاكة قصد استمالته اليه حتى يمدحه امام الاميرة سلى كلما ذكر اسمها . ولما رآها الآن تشير الى السر هنري اوجس شراً وكانت الظنون قد خامرت نفسه قبل الآن واطلع الامير احمد عليها لكنه خاف ان يطلب من الامير عمر ارسال الرسول لئلا يرفض ذلك ويعاتب الاميرة هند فعزم ان يتصاحب مع غيره من الامراء ويرسل رسولاً من رجالهم

وألفت الاميرة سلى الاميرة عاتكة ام الامير عمر وجعلت تجلس في مضرها ساعة بعد ساعة تسمع منها اخبار العرب وقصصهم عن الجن والغيلان والحروب والغزوات واخذ اخواها يخرجان مع الامير عمر للصيد والقنص وطابت لهما الاقامة هناك اما الاميرة هند فاستوحشت كثيراً لبعدها عنهما

## الفصل الثامن والعشرون

### خطر غير منتظر

مضى على قبائل العرب اكثر من اربعة آلاف سنة من حين ورد ذكرهم في التاريخ المكتوب والمنقوش وهم رُحَّل يعيشون بالغزو والنهب وتربية المواشي وحمل بضائع التجار ولم تتغير حالهم

قامت ممالك اشور وبابل وصور وصيدا ومصر والنوبة واينعت ثم انجحت وانقرضت وقام اليونان والرومان ودوخوا المعمور ثم زالت دولهم . وخرج من العرب اناس بلغوا في فتوحهم قلب الهند والصين شرقاً واطراف اوربا وافريقية غرباً ولكن ابناء البادية المقيمين فيها بقوا على بدائهم لهذا العهد يعيشون في الخيام ويضربون في اتجاج الرزق ويغزو بعضهم بعضاً كما كانوا يفعلون منذ الف سنة والفي سنة . وقد يظن ان بدائتهم هذه على تأصلها فيهم وتمكنها من عروقهم تفارقهم اذا خالطوا اهل الحضارة ورأوا فيها من الرفاهة ما ليس في البداوة لكنهم لم يروا في البلاد التي حولهم لهذا العهد ما يرغبهم في الحضارة فبقوا بعيدين عنها ما امكن



ولما لم يكن لقبائل العرب وازع عام يقضي بينهم ترام يلجأون دوماً الى اخذ ثارهم ييدم وهذا هو السبب الاكبر لما يقع بينهم من العدوان وكان بين عرب الفضل وعرب بني صخر ثارات قديمة واتفق ان عرب بني صخر انسوا الضعف من عرب الفضل او حرصهم عرض علي غزوهم لكي يضعف الفريقان معاً فشنوا الغارة عليهم وبلغ الامير عمران بني صخر زاحفون عليه فجمع رجاله في سفح جبل عجلون وكانت هناك سهل فسيح يبتدي بوادٍ عند اسفل الجبل ثم ينتشر شمالاً وجنوباً وشرقاً وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وترك النساء والاولاد في الجبل ومعهم نحو الفين من الرجال لحمايتهم واراد ابنا الامير عباس ان يخرجوا معه للقتال فنعىها واوصي امها ان لا تدعها يخرجان من مضربها واكد لها وللأميرة سلى انه يعود فائزاً مساءً ذلك اليوم لان رجال بني صخر لا يقاسون برجاله.

وخرج هو في مقدمة جيشه وكان رجاله مسلحين بالسيوف والرماح ومعهم نحو مئتي بندقية من البنادق القديمة ذات الزناد فلما توسطوا السهل رأوه يهجم بفرسان العدو فتقدم فارس منهم براءة بيضاء ومعه رسالة الى الامير عمر مفادها ان يسلم للامير حسان امير بني صخر الرجلين اللذين قتل ابن خالته ويرد له احوال البن التي نهبها رجاله من قافلة كان فيها عشرون جملاً لبني صخر على كل حمل منها نصف فنطار من البن ويسلم له الامير عباساً واهله ليجمهم عنده لان بني صخر اولى بحمايتهم من عرب الفضل

فقرأ الامير عمر الرسالة وقال للرسول قل لمولاي ان الرجلين اللذين قتل ابن خالته انما قتلاه بشار قديم لها عنده وان العرب الذين نهبوا القافلة لم يكونوا كلهم من عرب الفضل ولا هم فعلوا ذلك باحره ولا رأى البن الذي يقال انهم نهبوه وان الامير عباساً رحمة الله عليه لجأ الى حماه واوصاه بزوجته واولاده قبل وفاته وهو وحده حامي الذمار في تلك الديار وعرب صخر معتدون عليها واطنانهم بعيدة في البقاء وهو يطلب منهم ان ينكسوا على اعقابهم ويعودوا اليها فيعود عنهم ولا اشبع غربان الجو ووحوش البر من لحومهم

فرجع الرسول واخبر مولاه بما سمع فالتفت الى الذين حولهم واخبرهم بمفاد الجواب فاشرعوا رماحهم وقالوا له مرنا بالهجوم عليهم فقال هلموا يا شجعان العرب واستل سيفه وهم بالهجوم معهم فنعمت رجاله واقسموا عليه ان لا يهجم ما لم يبرز له الامير عمر لكن رجاله قوّموا الاسنة واطلقوا الاعنة فالتقى الجيشان كأنهما جبلان ودار الطعن والضرب وكانت الشمس قد علت عن الافق وارسلت اشعتها في وجوه عرب الفضل فكادت تعمي ابصارهم .



وانفصلت كتيبة من بني صخر ودارت وراء عرب الفضل وربطت عليهم المضيق المؤدي الى جبلهم . واحتار القتال واشتدت حمارة الصيف وتعثرت الجياد يمحث القتلى وبرز الامير عمر للامير حسانت فتنازلا ساعة زمانية على مينة الجيش حتى تكسر رماحها ونثلم سيفها وكاد فرساها يسقطان تحتهما ثم افترقا للثقت رجالها وكان بنو صخر قد فازوا على عرب الفضل واخذوا فيهم لانهم اشد منهم بأسا وامر في الكر والفر والضرب والطعن بل لانت اشعة الشمس كادت تعمي ابصار عرب الفضل فسقط منهم مئات من القتلى ولما حاولوا الفرار رأوا فرسان بني صخر تفصل بينهم وبين جبلهم فاتشروا في عرض البر وبنو صخر يجدون وراءهم ويضربون في اقفيتهم وصعد فريق منهم الى الجبل وهجموا على خيام الامير عمر فنهبوها وسبوا من فيها وفي جملتهم امه والاميرة هند واولادها واحتملهم وعادوا بهم يجدون السير الى جهة اللقاء

ولما بلغوا السهل التف حولهم فرسان بني صخر يخفونهم وكان الامير عمر قد سعى وراء رجاله يلتم شعثهم ويخفيهم ليعادوا الكرة فجمع نحو الف منهم وعادوا الى السهل وبلغه حينئذ اسرامه والاميرة هند واولادها فصار الضياء في عينيه ظلاما والتفت الى رجاله وقال لهم هذا يومكم يا عرب الفضل النار ولا العار من منكم اخواخذ يرضى بهذه المذلة افتضحنا والله بين العرب الى آخر الدهر وقد مالت الشمس الان ولم يبق لنا عذر فلهما يا ابطال الحرب والطعان . ثم اشار بيديه الى الاعداء وهجم عليهم هجمة منكرة واخذ يجندل الابطال مينة ويسرة حتى دنا من القرس الذي عليه امه وكاد يحطفها من سرجها ولكن عثر جواده حينئذ فسقط واجتمع رجاله حوله يدافعون عنه فاسرع الفارسان اللذان معهما الاميرة سلى وامها وابعدا عنه . ولم يكن الا دقائق قليلة حتى عاد الى صهوة جواده واقام فرسان العدو بصدمه وكانوا قد اطبقوا عليه من كل ناحية وسدوا في وجهه منافس الفضاء . ومضت ساعة من الزمان بيعت فيها الارواح بيع السماح وفعل الامير عمر فعلا تشيب الاطفال وكان معه فارس اسود يحمي ظهره الكبة لم يستطع استرجاع الاسرى مع كل ما بذله من الجهد ورأى رجاله استبساله فزادت نفوسهم واستقتلوا كلهم ولكن اجتمع عليهم نحو الف من الفرسان الاشداء ومضت ساعة لم تر تلك البطاح مثلاً من عبد الصليبيين واخيراً رأى الامير عمر ان الكثرة غلبت الشجاعة وان شمل رجاله قد تمزق فزم ان يرجع ويجمعهم ثانية وبيت بني صخر بهم تلك الليلة



## الفصل التاسع والعشرون

## خية الامل

وصل السرهري الى صيداء وبات عند قنصل الانكليز واخبره انه ذاهب الى حاصبيا فقال له القنصل ان حاصبيا والقرى المجاورة لها امست رمادا وقتل اكثر رجالها ووصل الفارون من النساء والعجائز الى هنا وهم في حالة يرثى لها . فطلب منه السرهري ان يريهم بعضهم فارسل القنصل قواسا من قواسته فجاءه شيخ طاعن في السن فقص عليه ما جرى من اول الفتنة الى ان جمع الرجال في السراي وذبحوا ذبيح الغنم . فسأل السرهري عن الامراء الشهابيين فقال له انهم قتلوا ايضا فسأل عن الامير عباس فقال له انه رحل الى عرب الفضل في جبل عجلون منذ عشرين يوما او اكثر

وطلب السرهري من القنصل ان يسير به الى حيث يقيم المهاجرون من اهالي حاصبيا والقرى المجاورة لما لكي يراهم فساذه الى اخانات التي كانوا مقيمين فيها فقابلته النساء بالبكاء والعيول ورأى مناظر تفتت الاكباد فتداول مع القنصل في امرهم ثم مضى وقابل المتسلم واسمعه من الكلام امره واستأجر سفينة كبيرة ليرسل بها المهاجرون الى بيروت وارسل معهم القواس الذي اتى معه وكتب الى الكولونل روز يخبره بما سمع ويستأذنه في السفر الى جبل عجلون وارسل الكتاب مع رسول وقام يطوف في صيداء ليرى مبانها القديمة فرأى خان الافرنج وقلعة البحر وصعد الى قلعة الملك لويس ورأى ابراجها وما فيها من المدافع المصرية الباقية فيها من عهد ابرهيم باشا فاعجبه منظرها وخرج الى خارج المدينة من عند الميناء القديم ورأى اكمة الخلازين البحرية التي كان الصيدونيون يستخرجون الارجوان منها . وركب في اليوم التالي وذهب الى ضواحي المدينة وزار بيت لادي اميرستانهوب واستنصحي اخبارها من بعض الذين يعرفونها وعاد عند الظهر الى المدينة فوجد الجواب من الكولونل روز ينصح له فيه ان لا يوغل في البلاد ما دامت الفتنة قائمة قاعدة ويؤكد له ان الامير عباسا فعل عين الصواب برحيله الى عرب الفضل ولا بد ما ينزل هناك على الرحب والسعة لان الامير عمر اميرهم من اكرم امراء العرب ووسائل الراحة والرفاهة متوفرة لديه . قال الكولونل وتد زرتة منذ سنتين واقت عنده ثلاثة ايام فرحب بي واكرهني غاية الاكرام ووجدت عنده كل وسائل الراحة التي يمكن ان توجد خارج المدن ولو كنت اعلم ان الوصول اليه سهل لاشرت عليك بالذهاب اليه من غير تردد اما والاحوال كما ترى فليس من الحكمة ان تخاطر بنفسك لاسمها وان خصومنا قد



ينسبون ذهابك لغاية سياسية ولا يخفى عليّ اشغال بالك ولكن ما كل ما يمتنى المرء يدركه .  
والصبر مرء ولكن ثمرته حلوة كما يقول المثل الفرنسي . وما دام الاميرة سلمي واهلها في حمي عرب  
الفضل فلا خوف عليهم . وبعد شهر او شهرين نرى كيف نتصرف هذه الامور لان دوام الحال  
من الحال . ولقد اسفّت جداً لما اصاب هؤلاء المساكين على ما وصفت لي ولا بدّ من ان  
تصل السفينة التي ارسلتهم بها اليوم او نداء فيجدوا هنا بعض الراحة وكل مساعدة ممكنة  
لما قرأ السر هنري هذا الكتاب رأى ان رجوعه الى بيروت اجدر به في الاحوال  
الحاضرة فاستدعى الشيخ الذي رآه قبلاً وكان لا يزال باقياً في صيدا عند اقاربه وسأله عن  
عرب الفضل ومنازلهم وعدد رجالهم ووصاف اميرهم فقص عليه الشيخ ما يعلمه من امرهم وقال  
انهم بطون كثيرة تنزل جبل عجلون والسهول المجاورة له فتقيم في الجبل صيفاً وفي السهول شتاء  
وهم نحو ستة الاف بيت . واذا خرج اميرهم الامير عمر الفاعور للغزو خرج معه اربعة الآف  
فارس وقد حاولت الدولة ادخالهم في طاعتها مراراً فاخفقت لكنهم لا يضمرون المداء لها على  
ما يظهر بل يكرمون رجالها ويهادون الولاة بالهدايا ويقصدهم التجار ويشترون منهم السم  
والصوف والغنم والجمال والخيول اذا لم تكن كريمة وقد يبيعون الفرس الكريمة بالف ريال  
او اكثر ويشترون من التجار الاقمشة المختلفة والتبغ والرز والبن والسكر والطيب والاثنية  
النحاسية والحلى والاسلحة ويقوم الى جنوبهم بنو صخر وهم لا يتلون عنهم عدداً وعدداً وقد  
ذهبت اليهم في تجارة منذ عشر سنوات وكان معي ولداي

ولما نطق بهذه الكلمة اغرورت عيناه بالدموع والتي رأسه على عصاه وجعل يبكي كالطفل  
الصغير ثم كف كف دموعه وعاد الى الحديث فقال نعم ذهبت مع ولدي وكانت الحرب ناشبة  
بين عرب الفضل وبنو صخر لكن العدول من الطرفين اجتمعوا يوم وصولنا ووقعوا شروط الصلح  
فاستبشر العرب بنا واشتروا كل ما معنا من البضائع واعطونا غنماً بدلاً منها فرجعنا راكبين على  
دوابنا ومعنا قطعان كبيرة من الغنم رزق الله على تلك الايام باليتني مت فيها

فسأله السر هنري عن حال المعيشة في بيت امير عرب الفضل . فقال الشيخ العرب عرب  
ابنا كانوا وقد ضاقت امير عرب الفضل في بيته فاكلنا وشربنا مع رجاله وهو وبعض الامراء  
بأكلون وحدهم وطعامهم الرقاق والرز المفلقل واخرفان والامير متأنق في طعامه فيصطادون  
له الحبال ويطيخون له احياناً مأكلاً تركية لان عنده الجواري السود المتتادات على طبخ  
المأكّل التركية وعمل الحلويات وهم يكثر من اكل الحلوى وعندهم العسل البري يشترونه  
من الجبل ويكون في شقوق الصخور العالية . وقد اكلت منه وهو اطيب من العسل الشبعاوي



فقال له السر هنري وكيف ينامون هل عندهم فرش مثلنا  
فقال نعم عندهم فرش كبيرة محشوة بالصوف الناعم وكثيراً ما يزورهم كبار رجال الحكومة  
وينامون عندهم والهواء هناك طيب منعش فينام الانسان ساعين كأنه نام الليل كله فان  
كنت عازماً على الذهاب الى هناك فاذهب ولا تخف فان كثيرين من السياح قد ذهبوا الى  
هناك وانا ذهبت مع جماعة من الانكليز الى مصر بطريق البر ومررنا على عرب الفضل وعلى كل  
العربان الذين في الطريق من هنا الى عريش مصر . نعم ان السياح كانوا ينامون في خيامهم  
ولكن امراء العرب كانوا يدعونهم للاكل عندهم فيجيدون ما يسرهم  
فاطمان بال السر هنري من هذا الحديث وسلم امره لله وصرف الشيخ بعد ان ناوله  
صرة من النقود وقام في اليوم التالي وعاد راجعاً الى بيروت

### الفصل الثلاثون

#### البحث والتحقيق

لم يكذ السر هنري يصل الى بيروت حتى وصل اليها فؤاد باشا الصدر الاعظم جاء  
ليصلح الحال من اقرب الطرق خوفاً من مداخلة اوربا وقد فوض اليه ان يفعل ما يرى فعله  
لازماً لاطمئنان الخواطر وارجاع الامن الى البلاد فقبض على والي بيروت والقاه في السجن  
وسجن معه بعض رجال الحكومة لكنه لم يفعل ذلك الا بعد ان جاءه كتاب قوي الالهيعة  
من اميرال الاسطول الانكليزي الذي كان راسياً تجاه بيروت وصف له فيه الفظائع التي  
جرت وابان له ان الامم الاوربية لا تستطيع السكوت عنها وانه اذا لم تبادر الدولة الى  
الاقتصاص من المرتكبين فالدول الاوربية متفقة على ان تتولى هي نفسها الاقتصاص منهم  
وارجاع الامن الى نصابه . و اشار في هذا الكتاب الى ان اللوم الاكبر واقع على كبار  
رجال الحكومة الذين امروا بهذه الفظائع وتولوا اجراءها

فوقع هذا الكتاب وقعاً شديداً في نفس الوزير وصعد الى دمشق وقبض على واليها  
واصر بقتله وقتل معه المأمور الذي كان في حاصبياً وثلاثة من ضباطه ومئة وسبعة عشر  
جندياً ونحو خمسين او ستين من الاهالي . وكان الذين قتلوا من دمشق وضواحيها نحو  
سته آلاف نفس

وسئل احد وجوه دمشق ليكتب محضراً يصف فيه ما جرى له وكان قد نجى من  
المذبحة فكتب ما خلاصته



لما فشت الفتنة في لبنان والبلاد المجاورة له اضطربت الافكار في دمشق حتى اذا ورد الخبر بالاستيلاء على زحلة كان فرح عظيم وزُيِّت الاسواق بالانوار فزاد الخوف وهرب كثيرون الى دمشق من البلاد المجاورة لها فامتلات بهم الكنائس والازقة . وكانت الآمال معقودة بان الامير عبد القادر الجزائري يستطيع منع الفتنة وقد بذل جهده في هذا السبيل فاطمأنت الخواطر وعاد الناس الى اعمالهم في السابع والثامن من شهر يوليو . وفي التاسع منه استبيحت الارواح ودخل الاشقياء البيوت والاديرة والكنائس وقتلوا من فيها حتى العاجز والاعمى من السكان ومن اللاجئين اليهم بل قتلوا المجذومين الذين يقصدون دمشق للتداوي فيها وحرقوا مكانهم

وكما فعل هؤلاء الاشقياء المنكرات فعل الفضلاء الصالحات فالامير عبد القادر الشريف اسعد حمزة والشيخ سليم العطار والشيخ عمر العابد وامثالهم طافوا احياء المدينة برجالهم ينقذون الناس ويمنعون الاعنداء عليهم فحمدت الفتنة في اليوم الثاني ثم اشتدت في اليوم الثالث ودامت الشدة الى ان وصل الى دمشق وال جديد وامن من بقي حياً

وانا كنت نائماً في بيتي فايقظوني صباح الاثنين في ٩ يوليو واخبروني ان الفتنة فشت في المدينة فخرجت الى باب داري لاتيحقق الخبر فرأيت الناس يترأضون فافلت بالي منتظراً قدوم قواس من قنصلاتو الانكليز لاني تابع لها وبعد قليل حضر قواس فارسلته الى الامير عبد القادر اطلب منه رجلاً يوصلوني اليه فرجع القواس وحده بعد بوهة قائلاً ان الامير اعطاه ستة رجال ولكن لم يمكنهم الوصول الي لشدة الازدحام ولانهم غير مسلحين . فانتظرت آملاً ان تسلموا ويعودوا اليّ وبينما انا جالس في انتظارهم هجم جماعة على باب داري وكسروه بالبلطات ودخلوا الدار الخارجية وجعلوا يطلقون الرصاص على غرف البيت فخرجت من باب صغير خارجي ومعني ابني وعمره تسع سنوات وابني وعمرها ست سنوات والقواس واخذت معي مبلغاً من النقود لاستعين به بدل السلاح وكنت كلما التقيت بجمهور من الثائرين ورأيتهم هاجمين عليّ ارميهم بقبضة من النقود فيلتمهون بها عني الى ان وصلت الى زقاق ضيق ظننت اني لا اجد فيه احداً فاصل منه الى دار الامير عبد القادر ولكن خاب ظني وهجم عليّ رجاله ليتلوني وضرب واحد منهم ابني ببلطة على رأسها فاسال دمها واطلق آخر عليّ الرصاص مرتين فاخطاني وبادرني واحد ببلطة على رأسي فشق جبيني وأصبت بفريبات كثيرة في جبني الايمن ولم يعد الذين حولي يستطيعون اطلاق الرصاص عليّ لئلا يصيب بعضهم بعضاً فقلت لم اني ذاهب لاقابل حضرة البك محافظ المحلة في شغل له فيه



مصلحة كبيرة . فقال بعضهم هلم نأخذه الى البك فاخذوني اليه بعد ما سلبوا مني ساعتني وكل ما معي من النقود . وبينما نحن سائرون لحقنا درويش بعامة خضراء وشعر مسدول ويده عصا طويلة في رأسها منجل كبيرة وكان يدها من فوق رؤوس الرجال ليخزبها رأسي . حتى اذا وصلت الى بيت المحافظ اخذني بيده وصرف الناس عني ووضعني في بيت احد اتباعه مع القواس وكان قد صار العصر وليس في البيت الا امرأة عجوز والنفت فلم ار ولدي ولا كنت اعلم ماذا جرى لزوجتي وطفلها الرضيع والستها وخالتها وكنت قد فارقتهم في البيت اما ولداي الكيران فكان اولهما عند فصل الانكليز والثاني في مدرسة الروم البطريركية ولم اكن اعلم ايضاً ماذا جرى لهما . واصعدوني الى غرفة عالية ( قصر ) تطل على الشارع فرأيت منها المحافظ آتياً الى بيته باناس كثيرين وعيالهم فاستغربت كيف يحيي هؤلاء في بيته ولا يحميمي انا فيه بل يضعني في بيت احد اتباعه وترجح عندي انه يقصد الايقاع بي ليلاً ولا يريد ان يقتلني في بيته امام الجمهور فاخبرت القواس بذلك وقلت له الاجدر بك ان تنجو بنفسك . فقال وانت ماذا تفعل فقلت له اني انتظر حتى يخيم الليل وادخل بيت المحافظ فلا اظن انه يجاسر على قتلي في بيته وبيته مملوء بالناس . فقال هذا هو الصواب ولكني لا افارقك الا بعد ان تصل الى بيت المحافظ وحينئذ اذهب واخبر الامير عبد القادر . فاستحسن رأيه وانتظرنا الى ان خيم الظلام وحينئذ رأينا سبعة رجال جاؤوا وقرعوا الباب بعنف ففتحت لهم العجوز فساءلوها هل فلان هنا فقالت نعم هو في القصر ( الغرفة العليا ) . فقلت دنت الساعة واشرت الى القواس لينجو بنفسه ويخبر عما حل بي . وبينما انا اكلمه بذلك صرخ واحد من الرجال قائلاً انزل يا فلان فانا صديقتك السيد محمد السوطري جئت برجال الامير عبد القادر لكي اتذكك فلا تحش بأساً فتزلت اليه والبسوني برنساً كالمغاربية ومشيت بينهم وسرنا ندوس على القتلى في الازقة حتى وصلنا الى بيت الامير وكان مزدحمًا باللاجئين اليه لان الامير بقي ثمانية ايام متسلحاً يطوف في الشوارع وينقذ الناس من القتل . ولما رأى السيد محمد السوطري ان بيت الامير مزدحم الى هذا الحد طلب منه ان يسمح له باخذي الى بيته وهو قريب من بيت الامير فسمح له ومضى بي الى بيته وسألني عن عائلتي فقلت له ان ابني الكبير في قصلاتو الانكليز والثاني في مدرسة الروم وكان معي ولدان فقرعوا بيبي وبينهما ولا اعلم ماذا جرى لهما وقد تركت زوجتي وطفلها في البيت . فقال اما ابنك الكبير فلا خوف عليه لانه لم يدن احد من قصلاتو الانكليز واما الباقون فانا امضي الآن افتش عنهم وهم لا يعرفوني فقد يمتنعون عن المجيء معي فدع القواس يذهب برفقتي لاطمئنانهم



ومضى هو والقواس فوجدوا زوجتي واولادي كلهم ما عدا الثاني الذي كان في المدرسة وسألت السيد محمداً كيف عرف اني في البيت الذي كنت فيه فقال انه لما بلغه ما حصل بباب البريد ظن ان الامر طفيف وان الحكومة تلافاهُ حالاً فاقفلوا الباب الواصل الى حارة النصارى لمنع اولاد محلتهن من الاشتراك مع الثائرين فاتي جمهور من اكراد الصالحية وخلعوا الباب بخاف حينئذ على بيتي واتاه واحد فاخبره بما اصابني وبوصولي الى بيت محافظ الحارة فتوجه اليه وطلبني منه فانكرني فرجع واخبر الامير عبد القادر فاعطاه ستة من المغاربة المسلمين ليطلبوني من المحافظ فذهب معهم وطلبوني منه وشددوا عليه فاضطر ان يرسل ابن اخيه معهم ليدلهم على مكاني

وفي تلك الليلة زارني المستر برانت قنصل الانكليز وطمني عن ولدي الاكبر . اما ولدي الثاني فمضى ثلاثة ايام ولم اقف له على خبر ولا وجد بين القتلى المطروحة في الازقة ثم اتى رجل تركي الى قنصل الانكليز واخبره انه متزوج ابنة علي آغا كاتب الخزينة (وكنتم قد اسكنتم المستر روبنسن المرسل الانكليزي في بيته) فلقيت زوجته ابني المفقود واخفته في بيتها . فلحال ارسل القنصل رجالاً من المغاربة فاحضروه اليه

وبقيت شهراً في بيت السيد محمد السوطري حتى شفيت من جراحي ثم دعاني الشريف محمود افندي حمزة الى داره فانتقلت اليها لان الاشقياء خربوا بيتي ونزعوا خشبه وبلاطه وبقيت في بيت محمود افندي الى ان حضر فؤاد باشا

وعادني السيد محمد الامين الشاعر المشهور مفتي بلاد بشارة وقال لي ماذا اصابكم فقلت الذي تراه . فقال سفكت دماؤكم وسبيت نساؤكم وهدمت بيوتكم ولكن عليكم ان تأسوا بمصاب غيركم فان اهالي دمشق الذين فعلوا بكم هذه الفعلة قتلوا اولاد نبهيم وسبوا نساءهم وهدموا الكعبة المشرفة

### الفصل الحادي والثلاثون

مؤتمر باريس

ما هذا الحر الذي يزهق النفوس حقاً ان باريس لا تطاق في شهر اغسطس

التكلم مندوب روسيا والمخاطب مندوب انكلترا

فقال مندوب انكلترا — والحر عندنا شديد ايضاً علي خلاف المعتاد وقد بلغت درجة

الحرارة التسعين امس



مندوب روسيا — التسعين ما هذا وكيف تحسبون درجات الحرارة  
مندوب انكلترا — نسيت انكم لا تحسبون الدرجات مثلنا . ان التسعين بميزان فارنهيٓت  
تقابل نحو ٣٢ بميزان سنٓتغراد ولكنني اشعر برطوبة هنا لا نشعر بها عندنا وعلى كل حال الحر  
شديد هنا ولا اظنه شديداً في بطرس برج  
كلاً ولكنه يشتد احياناً كثيرة في فصل الصيف . الظاهر ان فرنسا تريد ان تفتح  
المسألة الشرقية من جديد

مندوب انكلترا — هل انتم من رأبها  
مندوب روسيا — انتم تعلمون انه لا يمكن ان نكون من رأبها . ومولاي الامبراطور  
مستاء جداً مما حدث في سورية ولكنه يقول انه ان كان الحق في المداخلة لدولة واحدة  
فذلك الحق هو لروسيا لا لغيرها وقد وصلت بارجة من بوارجنا الى مدينة بيروت في الوقت  
اللازم فنفعت حدوث مذبحة فيها

مندوب انكلترا — نعم بلغنا ذلك ومولاي الملكة شكرت لسفيركم لما بلغها الخبر لانها  
مستاءة جداً من هذه الحوادث وانتم مصيبون في قولكم انه لا يحسن بدولة واحدة ان تنفرد  
بالمداخلة اي بارسال جنودها الى تلك البلاد ولكن هل ترون من الحكمة ان ترسل كل  
دولة من الدول المتحابة فرقة من جنودها

ففكر المندوب الروسي هنيهة ونظر في وجه المندوب الانكليزي لعله يقرأ فيه ما يضمهر ثم  
قال له كلاً ولكن لماذا تفضل فرنسا على غيرها اذا فضلنا ان تنفرد دولة واحدة بارسال جنودها  
فقال المندوب الانكليزي نحن لا فرق عندنا فاذا اردتم فنحن نرسل جنودنا او انتم ترسلون  
جنوكم او ترسل جنود نمسوية

فلم يجب المندوب الروسي على هذا الكلام بل بقي صامتا يفكر في ارسال الجنود الروسية  
اذا امكن ولكنه يحسب ذلك ضرباً من المحال

وتكامل الاعضاء حينئذ ودارت المذاكرة بعد ان تليت عليهم تقارير القناصل كلهم  
وكان حاضراً في ذلك المؤتمر معتمد بريطانيا ومعتمد روسيا ومعتمد تركيا ومعتمد فرنسا ومعتمد  
النمسا ومعتمد بروسيا ولم يسع مندوب تركيا ان ينفي شيئاً مما ذكره القناصل

وبعد بحث طويل اقرت الاكثرية على انه لا بد من ارسال جنود اوربية لارجاع  
الامن الى البلاد وتبرعت فرنسا بارسال ستة آلاف من جنودها وكانوا مستعدين للسفر عند  
اول اشارة فشكرها المندوبون على هذه المروءة . وقال مندوب انكلترا يجب ان تقرر ايضاً



ان هذه الجنود ذاهبة باسم اوربا كلها لا باسم فرنسا وحدها. فبهت المندوب الروسي والبروسي من هذه السياسة الرشيدة وقالوا نعم هذا هو الصواب ووافقهما المندوب النمساوي فلم يسع المندوب الفرنسي الا القبول بذلك وقال هذا هو غرض مولاي الامبراطور فان الذي دفعه الى ارسال جنودنا انما هو الشفقة والحنان وليس له اقل ما رب سياسي فباسم اوربا كلها نرسل جنودنا الى سورية

فقال المندوب الانكليزي والمفهوم ايضا ان هذه الجنود ذاهبة لتفرض تخصص وهو توطيد الامن فتى توطد تعود مشكورة كما ذهبت مشكورة. فابرت اسرة مندوب الدولة العلية حينئذ وكان قد اوجس شراً لما طلب مندوب انكلترا ان يكون ارسال الجنود باسم اوربا كلها قائلاً في نفسه ان هذا يدل على اتفاق اوربا كلها علينا فلما سمع القول الثاني وهو ان الجنود تخرج من سورية حالما يتوطد الامن فيها مَرَّي عنه ووافق على ذلك ووافق سائر المندوبين ولم يقل مندوب فرنسا شيئاً لان كلمة توطيد الامن واسعة المعنى تحتمل التعليل الكثير والمطل الطويل

وتذاكر اعضاء المؤتمر في امور شتى تتعلق بهذا الموضوع وعادوا الى معاهدة باريس التي عقدت بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦ والحواعلي مندوب الباب العالي بوجوب العمل بها من حيث المساواة بين كل اصناف الرعية فقال لهم ان الباب العالي قد بذل اقصى جهده للقيام بتلك المعاهدة وسيبقى باذلاً اقصى الجهد للقيام بها

وختم المؤتمر وكان ابتداء اجتماعه في الثالث من اغسطس سنة ١٨٦٠ ووصلت الجنود الفرنسية الى بيروت في السادس عشر منه اي بعد وصول فؤاد باشا بشهر كامل وعسكرت في حرش بيروت نصبت خيامها هناك وانتظرت الاوامر. وحالما وصلت سادت السكنية في كل مكان واطمأنت القلوب وراجت الاعمال لاسيا وان اموال المحسنين من اوربا واميركا كانت تندفق لاعانة المنكوبين. وجعل كثيرون منهم يعيشون من بيع الاطعمة للجنود. وتصرف الجنود تصرف الكرام فكانوا يدفعون كل ما يطلب منهم ويعطون الباعة شيئاً من طعامهم حتى ان الفتراء الذين كانوا لا يأكلون الا الخبز الخاف ولا تصل يدهم الى شيء من الادام صاروا يأكلون اللحم الغريز مما يعطيهم اياه الجنود واكتشى كثيرون من الثياب القديمة التي اعطوهم اياها وظهر كأن البلاد انتعشت بعد ما خيم عليها ظل الموت



## الفصل الثاني والثلاثون

## الخبيبة والفشل

رجع الامير عمر الى مضاربه كاسف البال يكاد يشتعل غيظاً وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فترجّل عن جواده واجتمع حوله شيوخ قبيلته وكان قد اصاب يجرح في ذراعه اليسرى فأتى المتطبيب وغسل الجرح بالماء وحمل اداة من الحديد وكواه بها كأنه يميت ميكروبات الفساد ورش على الجرح رماد خرقة محروقة وربطه والامير رابط الجاش لا يتألم ولا يتكلم . ثم سأل الذين حوله عن عدد القتلى فقالوا له زهاء مئتين وقد ابلينا بلاءاً حسناً فقتلنا أكثر من ذلك . فامر ان يرسل من يهتم بحمل الجرحى ودفن القتلى وان يستريح الرجال ساعين من الزمان ثم ينهضوا ويلحقوا بالعدو حيث بيت تلك الليلة فقال له رجل شيخ من رجاله ليس تبيتهم من صواب الرأي لان الليل حالك الظلام وقد نصيب احداً من اولاد الامير عباس . والرأي عندي ان ترسل نستجد عرب عنزه فانهم استجدونا مرتين في حياة المرحوم والدك فأنجدناهم ونضرب مونداً أنهم في علي بني صخر من جهتين مختلفتين فإما ان يثوبوا الى رشدكم ويردوا الاسرى ويصالحونا واما ان نضرب ديارهم ونغزو آثارهم فقال رجل آخر وهذا ليس من صواب الرأي لان عرب عنزه ارتحلوا الى جهات الجزيرة اوهم على اهبة الارتحال ورأيي ان ترسل الى بني صخر تعرض عليهم اقتداء الاسرى ثم ترتب الفرص للاخذ بالثار . وقال ثالث ان الامير حسناً ان قبل باقتداء اسرانا لا يقبل بتسليمنا الاميرة هند واولادها ولا بدءاً ما يكون قد كتب كتابه الآن على الاميرة سلمى على جاري عاتية ولما سمع الامير عمر هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلاماً فنهض واقفاً وقال من منكم اخوانه يسير ورأيي ويحمي ظهري وعليّ انا وحدي ببني صخر كلهم ولكنه كان خائر القوى لكثرة ما نزف من دمه فارتجفت ركبته وكاد يغى عليه فقال له الطبيب تناول الآن شيئاً من الطعام حتى تسترد قوتك وبعد ذلك تنظر في الامر . وشعر هو بخوران قوته فاتكأ على عمود الخيمة واطرق وهو يكاد يميز غيظاً من نفسه ومن سوء طالع له لأنه لو لم يعثر جواده لردّ الاسرى وقهر الاعداء ولولا اشعة الشمس التي اعمت ابصار رجاله لما دارت الدائرة عليهم فكأن التقادير كلها كانت معاندة له . فالتفت الى الذين حوله وكادت دموع الفيلز تنجم من عينيه وقال لهم لا بدءاً لنا من الراحة على كل حال فعلقوا خيلكم واستريحوا قليلاً



ثم امر خدمه ان يشدوا لهم ما حضر من الطعام ودخل خباءه وانطرح على بساط وحاول جمع افكاره المشتتة فلم يستطع وشعر كان رأسه يكاد يشتعل فزع كوفيته وعقاله واتكأ على مسند وجعل ينمض عينية ليزول من امامه شيخ امه وشيخ الاميرة هند واولادها فزادت تلك الاشباح تجسماً وكأنه كان يسمع اصواتهم ترن في اذنيه وتناديه ليسرع الى نجاتهم . وخيل له انه سمع الاميرة سلى تناديه وتقول له نزلنا عليك ضيوفاً لتسلنا الى هذا الوغد الزنيم ما كذا تفعل العرب الكرام . وسمع الامير حسناً يعرض عليها الزواج به ويهددها بقتل اخويها ان ابت . فارتعدت فرائضه وحاول النهوض ولكنه لم يستطع لان الحمى كانت قد تمكنت منه وجعلت الاخيلة نراى امام عينية وخيل له انه عاد الى ميدان القتال فجعل ينفي رجاله ويحرضهم على الهجوم . وكان صوته يرتفع احياناً حتى يسمعه فيستيقظ وفي اقل من لحظة يعاوده الجحرا

وسمع خدمه هذيانه يخافوا ونادوا الطيب فدخل وجس نبضه وعلى بعض الاعشاب وسقاه غلايتها ونزع جزمته من رجليه وغطاه فغرق غرقاً غزيراً ثم نهض وخلع ثيابه وشرب قليلاً من اللبن فانتعشت قواه ولكنه لم يستطع ان يصرف عن ذهنه التفكير بامه والاميرة هند واولادها لانه كان يخشى عليهم شراً لان العرب لا يسيئون الى اسراهم ولا سيما اذا كانوا من كرام القوم بل يحفظون بهم لياخذوا فكاكهم ولكن لان الكلام الذي سمعه عن الامير حساً كان اوقع في نفسه من ضرب الحسام فجعل يضرب اخماساً لاسداس ويوازن بين الاساليب التي يمكن ان يسترد الاسرى بها ويقرر عدوه من غير ان يقع بهم ضرر فلم ير اسلم عاقبة من افككاكهم ولو بكل ما يمتلكه . وقال في نفسه ان حسناً وان كان زير نساء الا انه يفضل المال على كل شيء فان انا اعطيته مئة جبل او مئتي جبل او خمس مئة جبل فعل ما اريد فاشترى شرفي الآن بالمال القليل ومتى انفرجت هذه الازمة يدبرها الله . ثم استدعى رجاله وقال لهم ما قولكم لو عرضنا الفداء على الامير حساً واجزلنا له العطاء . فاجمعوا على انه من يشترى بانال ولكنهم خافوا ان يصراً على بقاء الاميرة هند واولادها عنده اما رغبة في الاميرة سلى واما طمعاً بان بني شهاب يفتدونها بالاموال الطائلة وبينما هم في الحديث دخلت ام يوسف وهي تصيح وتقول ابن شهامة العرب يا امير عمر اترك ستي واولادها في السبي ارسلي الى بيروت حتى خبر ففضل الانكليز فان الست سلى مخطوبة لامير انكليزي واذا عرف ما اصابها انا كم بالف عسكري انكليزي فكان لكلامها وقع عظيم في قلوبهم فاجلسوها وسكنوا روعها وسألوها عن قصة الامير



الانكليزي فاكنت لم ان في دار فصل الانكليز في بيروت اميراً انكليزياً من اولاد عم ملكة الانكليز وهو خطيب الاميرة سلى وقد سافر ابوها بها على غير علمه وانه لا بد وان يكون آتياً الآن بالعساكر للتفتيش عنها . فطهبوا خاطرها وجعلوا يتداولون في ايصال هذا الخبر الى الامير حسان

اما الامير عمر فصمت ولم يعد يتكلم لانه رأى انه ان كان ذلك يجنيه من خصم يكرهه هو وتكرهه الاميرة سلى ايضاً فهو يوقعه في خصم آخر تحبه الاميرة سلى ولا يمكن نجاتها منه ف رأى ان الآمال التي احيهاها في فؤاده امانى فارقة واضغات احلام فلم يعرف كيف يتقي النبال . فشل وخذلان واسر وزل . ثم هو مضطر ان يحمل الدار لينتد فتاة تكون لغيره ولا يعود يراها في حياته . فوجم ولم يعد يتكلم وظن رجاله انه كان يفكر في طريقة لانتقاذ الاسرى من غير فكك فصمتوا هم ايضاً ثم نظروا اليه يستوضحونه رأيه فقال وهو لا يدري ما يقول ارسلوا اعرضوا عليه الفكك وخذوا من مالي خمس مئة جل او اكثر حسب دواعي الحال واخبروه ان الاميرة سلى مخطوبة لامير انكليزي وانه لا بد وان يكون آتياً الآن بعساكر الانكليز ومدافعهم وهو يعلم ما حل به وبرجاله يوم خربوا عكا . وان فسح الله لي في الاجل اخذت ثاري بيدي والا تركت ثاري لكم لتأخذوه بعدي وقد عاودتني الحى الآن ولا ادري ماذا اقول . ثم انكأ على ذراعه واسند رأسه الى كتفه . وقام رجاله وشاوروا ساعة من الزمان ثم ارسلوا ثلاثة منهم ومعهم رايات بيضاء ليعرضوا الفكك على الامير حسان ويخبروه بقصة الامير الانكليزي

وكان قد وصل الى القبيلة شاعر دمشقي فنظم ابياتاً في واقعة الحال وانشدها الامير عمر يعز به بها عما حل به ومنها قوله

تعز فان الصبر بالحر اجمل	وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغني ان يرى المرء جازعاً	لحادثة او كانت يغني التذلل
اذاً فالتعزي عند كل مصيبة	ونائبة بالحر اولى واجمل
فكيف وكل ليس يعدو حمامه	وما لامرء عما قضى الله مرحل
فان تكن الايام فينا تبدلت	بوؤساً بنعمى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صليبة	ولا ذللتنا للذي ليس يحمل
ولكن رحلتها نفوساً كريمة	تحمل ما لا تستطيع فتحمل

فشكره الامير وامر له بصلوة سنية وفرس كريم



## الفصل الثالث والثلاثون

البطر بعد الظفر

عاد الامير حسان ورجاله وهم لا يصدقون بما نالوه من الفوز المبين فان غاية ما رجوه ان يأخذوا بثار رجالهم من عرب الفضل ويكشفوا عنهم العار ويستردوا ما نهب من قافلتهم ففازوا باكثر مما أملوه قتلوا مئتي رجل او اكثر وامسروا ام الامير عمر وضيوفه واستاقوا قطعاً كبيراً من الماشية وجدوه في طريقهم وانتظروا الفكاك الكبير للاسرى فواصلوا السير بالسرى الى ان ابعدوا مرحلة كبيرة عن منازل عرب الفضل وتزلوا في آخر الليل واستراحوا قليلاً ثم قاموا في الصباح وساروا وتبداً ثلاثة ايام الى ان وصلوا الى محلتهم في البلقاء والامير حسان لا يصدق ما يرى بل يحسب انه في حلم وكانت اخبارهم قد بلغت من بقي في الحملة فخرجت النساء للقائهم بالدفوف والمزاهر والانشيد الحماسية . وذبحت الذبائح في اليوم التالي واولت الولائم وادبرت الخمر وانزل الامير حسان الاميرة هند والاميرة سلمى وام الامير عمر في مضرب كبير قرب مضرب زوجته واقام جاريتين على خدمتهن وانزل ولدي الاميرة هند في مضرب آخر . وكان في بني صخر شاعر من مثالة جبل عامل فنظم له قصيدة يمدحه بها ويذكر منافقه الحسان وبلاءه بالاعداء ويحذره من التادي في عدائهم ومما قاله فيها

تجاف عن الاعداء بقياً فربما كفيت ولم تجرح بناب ولا ظفر  
ولا تبر منهم كل عود تخافه فان الاعادي يبتون مع الدهر  
اذا انت افنت النيه من العدى رمتك الليالي عن يد الخامل الذكر  
وهبك انقيت السهم من حيث نتقي فكيف بمن يرميك من حيث لا تدري

فقطن الامير حسان الى مراده وظن به سوء فلم يصله بشيء بل امر احد اعوانه ان يأخذه الى خيمته ويحفظ به الى ان ينظر في امره . وشرب من معتقة الدنان الى ان امتلأ رأسه بخارها فذهبت بعقله وقام قاصداً مضرب الاميرة هند فالتقت به زوجته ولم يخف عليها امره فقالت له الى اين يا سيي الفعال تريد ان تتركنا عاراً بين قبائل العرب . وامسكت به وردته من حيث اتى وكان يخشى صولتها وقد طلق نساء كثيرات قبلها اما هي فلمكتة وكان يجلس امامها كالعبد الدليل فعاد الى مضربه سكران بخمرتين خمرة الظفر وخمرة العنب فحبل له انه راكب على جواده والفرسان تسابق بين يديه فحمل يضرب بمنه ويسره كأنه يجندل الافران ويصبح مرة بعد اخرى ثم يضحك حتى يستلقي على ظهره ويقوم ويسير مهرولاً



طالباً الخروج من المضرب فيمسك به عبده ويرده الى مكانه واذا اكثر من الجلبة والعريضة انت زوجته اليه وتهددته فيضحك لها اولاً ويحاول القبض عليها ثم يقول لها انا الفارس المغوار انا قاهر عرب الفضل هه هه من انت حتى تقني في طريقي تعالي يا حبيبي هه هه هه ألا تأتبن اذهبي عني يا لكاع اغربي من وجهي لا بد ما اطلقك واخذ الاميرة هند لا بل الاميرة سلمي هه هه هه اين الاميرة سلمي اذهب يا لعين واثنني بها اذهب والا قطعت رأسك بهذا السيف . ثم يلوح بيده كمن يستل سيفاً من غمده

ولم يهتم الخدم بسكرو لانهم كانوا معتادين ان يروه سكران اما زوجته فخافت ان يسمع احد من الاميرات الاسيرات صوته وحاولت وضعه في فراشه فدفعها عنه واراد الخروج لكن المكر كان قد اضعفه فتغلبت عليه هي والعبد واجلساه على فراشه ولم يعد يستطيع القيام لكنه بقي يعربد ويهذي ساعة من الزمان ثم جاشت نفسه فاستفرغ بعض ما في معدته وانطرح في فراشه كاليت الى ان اصبح الصباح

### الفصل الرابع والثلاثون

#### التزلف والنفور

الاميرة هند وابنتها وولداها في خيمة سوداء من الشعر مرفوعة العماد مبطنة بشقق الحرير الدمشقي المخطط بالاصفر والازرق وهي جالسة على اريكة متكئة على مسند عابسة الوجه مقبلة الجبين والسيكارة في يدها والامير حسان واقف امامها بكلمها بصوت منخفض ويسترق العظ الى الاميرة سلمي وهي جالسة الى جانب امها مستندة الى مسند آخر لكنها صامته لا تتكلم وحاول الامير حسان جهده لكي يصلح منطقة حتى يكون بلفة مفهومة لدى الاميرة هند فقال لقد ابنت لحضرتك اننا لم نقصدك انت واولادك بسوء على الاطلاق ولم يكن لنا غرض الا عرب الفضل لاختد الثار وكشف العار وانتم آل شهاب من العرب الكرام الذين يعرفون عادات القبائل ولا يرضون لنا بمذلة اذا امكننا ان نرفعها عنا

الاميرة هند - انا لا اجادلك في ذلك ولا اقول لك ان لا تأخذ بشارك من اعدائك ولكن كان في امكانك ان تجربنا حتى نرحل عن عرب الفضل او ان تجرب رجالك لكي لا يمسونا بمكره ولا يجمعوا اليك بنات شهاب سبايا كما حملونا ما هذا ظني بك يا امير ولا تستطيع ان تعتذر بانك لم تكن تعلم اننا نازلون على الامير عمر لانني ارى انكم تعلمون كل شيء في هذه البلاد فقال لا انكر عليك انني كنت عالماً بنزولكم على عرب الفضل وكنت احسدهم على هذا



الشرف ولكن لم يخطر ببالى اننا نقوز عليهم هذا الفوز المبين وغاية ما كنت اتوقعه ان نأخذ  
بشارنا منهم ونستاق بعض ماشيتهم غنيمة اما الوصول الى مضاربهم وسي من فيها فلم نكن  
لنطعم به والظاهر ان وجودك في مضاربهم غل ايديهم وافسد تدابيرهم ولولا ذلك لناوشونا  
الى ان نبعد عن حمام . واميرهم بطل مجرب ولكن خاتمة الاقدار هذه النوبة لانه ظلمنا هو  
وقومته والله لا ينصر القوم الظالمين

الاميرة هند - والان على اي شيء عوّلت

الامير حسان - على الذي تريدنه فان شئت ان تبقوا عندنا فعلى الرجب والسعة  
ونحن ندافع عنك وعن اولادك بسيوفنا ورماحنا وبذل جهدنا في مرضاتكم ومسرّكم وان  
شئتم ان نرحل بكم الى مكان آخر رحلنا وايضا ذهبنا فكلنا في خدمتك وخدمة اولادك  
وغاية ما نتمناه رضاؤك ورضا الاميرة سلى . قال ذلك ونظر اليها

وكان واقفاً ويده اليسرى على مقبض سيفه ويده اليمنى مطلقة يشير بها حينما يتكلم  
وهو كهل في نحو الاربعين من العمر تصير القامة اسود الشعر اسمر الوجه برّاق العينين  
خفيف اللحية عصبي المزاج

فقات الاميرة هند لماذا تكلمنا وانت واقف مع اننا اسراك ولماذا لا تجلس وتستريح  
فرفع يده الى رأسه وقال العفو يا مولاي بل انا اسيركم ولكن ما دمت قد امرتني  
بالجلوس فانا اجلس اطاعة للامر

ثم جلس مكانه متربعا ووضع سيفه على حضنه ونادى خادمه فاتاه بشبق قصير فنه من  
الكهرباء وما سورتها من الكرز فص منه مصتين واتاهم خادم آخر بالقهوة فقدمها للاميرة  
هند اولاً ثم للاميرة سلى واخوها فتناولتها الاميرة هند منه واما الاميرة سلى فاعذرت عن  
شربها وكذلك اعذرت اخوها

ولما شربت الاميرة هند بعض فنجانها قالت له يا حبذا لو كنت توصلنا الى الشام (دمشق)  
فنظر اليها مستغرباً وقال ألم يبلغكم ما حدث في الشام فقد حدث فيها اكثر مما حدث  
في حاصيا

فلما سمعت هذا الكلام صرخت قائلة ماذا نقول افتلوا نصارى الشام ايضا . وارتجفت يدها  
ووقع الفجآن منها وضربت يدها على المسند وقالت قلت لاحمد ان هذا العمل كله بدسية  
والغرض منه قتل كل النصارى فلم يصدقني  
ثم التفت رأسها على يدها وقالت الله يجازيهم الله يجازي الذي كانت السبب ما هذه



المصيبة ما هذه البليّة ابن اهلي الآن ابن اخوتي واخواتي واولاد عمي واولاد خالي  
وقالت له الاميرة سلمي هل انتم على يقين من صحة هذا الخبر  
فقال نعم وقد سمعته من أكثر من واحد من الذين كانوا هناك وقد ارسل اليها والي  
دمشق لتزحف مع دروز حوران على جبل لبنان فلم اشأ أن افعل ذلك لان الدروز اعداؤنا  
ولا اركن اليهم . ولم افهم ما هو غرض الوالي من ذلك ولا كيف استحلّ قتل الآمنين في دار  
الولاية نفسها . ونحن نشكر الله لاننا في هذا القفر مستغنون عن الشام وعن النزول اليها . وبلادنا  
الآن قاحلة لاننا في فصل الخريف ولكن متى جاء الربيع تجديتها من جنان الخلد وستريتها  
في ذلك الفصل ان شاء الله

قال ذلك موجهاً كلامه الى الاميرة سلمي

فقال له انبقي هنا الى الربيع لا سمح الله . ثم كيف تقيمون في هذه الخيام وقت المطر  
فقال ان المطر لا يخرق الخيام ولا سيما اذا كانت محكمة النسيج مثل هذه الخيمة . وفصل  
الشتاء عندنا من ابدع الفصول وستريته ان شاء الله وقد سمعت انك تجيبين ركوب الخيل  
نفيلي كلها تحت امرك وامر اخويك وعندي مهرة بيضاء نفيلي كالعروس  
ثم صفق بيديه فدخل عبد اسود فقال له هات غزالة ياشيدوب لتراها الاميرة سلمي .  
فذهب وبعد دقائق قليلة عاد يقود مهرة كالريم وقال لها هذه المهرة لا يعلو ظهرها احد غيرك  
وهي ودیعة كالحمل وسریعة كالنعامه

فشكرته وقالت في نفسها لعل له ابنة من عمري اركب معها . وكانت قد رأت نساء  
كثيرات في المضارب وعرفت ان واحدة منهن زوجته ولكنها لم تر له اولاداً وحقيقة  
امرهم انه كان قد تزوج بابنة عمه وولد له منها ولدان ماتا بالجذري ولم يرزق غيرها ثم طلقها  
وتزوج كثيرات غيرها وكان كلما سمع بابنة حسنة يخطبها الى ابيها ثم لا يلبث ان يكرها  
ويطلقها وعرف بهذا الخلق حتى كان العرب يخفون بناتهم عنه . فلما وقعت الاميرة سلمي في  
اسره لم يشك احد في انه يتزوج بها حالاً رضية بذلك او لم ترض . اما هو فهابها في اول  
الامر وخشي ان ينظر اليها كما ينظر الى غيرها من بنات قبيلته ولكنه لما جالسها وسمع حديثها  
سوّلت له نفسه ان يخطبها الى امها وابنت عليه عادات قوميه ان يخطبها في ذلك قبل  
ان يربها ضروب الكرم . وكان له نديم ربي معه وشاركه في كل طرق الفساد فاطلمه على  
مراميه فسمله له قائلاً انها اميرتك وليس لها ملجأ غيرك ويستحيل عليها ان ترفض طلبك .  
وجاء الرسل من قبل الامير عمر الفضل طالبين فك الامرى واخبروا الامير حسناً ان



الاميرة سلى مخطوبة لامير انكليزي . فهاهنا الخبر لكنه لم يصدقهُ وسأل الاميرة هند عن حقيقته فاستغربت ذلك ولم تسأله عن خبره بل قالت له انها غير مخطوبة لاحد . فسرّي عنه واستدعى الرسل وقال لهم انه يريد ام الامير عمر اليه ان هو افتداها بمئة ناقة ومئتي جمل واما الاميرة هند واولادها فليسوا اسرى بل هم ضيوف عليه وقد انزلهم على الرحب والسعة وهو اولى منه بحمايتهم وسيبقون في حماه الى ان يسكن الاضطراب في جبل لبنان ثم يردهم الى بلادهم آمنين . وكان معه رجال من شيوخ قبيلته فاشاروا عليه ان يرد ام الامير عمر اليه حالاً حسيماً لاسباب النزاع وان ما غنوه من الماشية يكفي بدل ما فقدته تجارهم فاستصوب رأيهم ونادى الرسل وقال لهم "هوذا ام الامير عمر تغذوها لا فداء ولا فكك لكي تعملوا اننا اكرم منكم وان ليس غرضنا العداء وانما الاخذ بالثار ورد ما سلبتموه من رجالنا" ثم امر لها بهودج وارسل معها جارية خلدتها . فراءوا ان لا سبيل لهم للاعتراض ولا للدعاء بان الاميرة سلى مخطوبة لانها هي كذبت الخبر فعادوا من حيث اتوا

ومرّت الايام والامير حسان يزيد تودداً الى الاميرة سلى وهي تزيد منه نفوراً . وقد ظلم الحب من سلى مثل هذا حباً لانه ميل شهواني دنس . وضعت سلطة زوجها عليه بازدياد شفقه بالاميرة سلى فصار يتهددها بالطلاق كلما لامته . واسقط في يد الاميرة هند ولم تعلم كيف تنجو من هذه البلية اما ولداهما فلخذلتهما الغيرة والانتفة وعزما على الفتك به ان لم يبرعوا عن غيه . ولازمت الاميرة سلى خيمة امها ولم تعد تخرج منها وقلّ اكلمها فحلت وذبلت ومرّت الايام والشهور وهي تزيد ستماً ونحولاً وذلك الطاغية يزيد جرأة وقحة واخيراً اتفق مع نديمه على ان يبعد الاميرة سلى عن امها وينقلها الى خيمة بعيدة ويحضر الشيخ ويكتب كتاباً عليها غصباً . فاحتمل النديم عليها ذات يوم واحتملها هو وغلامه وساروا بها خلسة الى تلك الخيمة فركضت امها حافية حاسرة الى خيمة ولديها وهي تلطم وتنوح فاختطف احدهما سيفاً والآخر هراوة واسرعا وراء اخنهما فلاقاهما الامير حسان ورجاله وقبضوا عليهما واعتقلوهما وجاء الشيخ ليكتب كتاب الاميرة سلى فسأل من ولي امرها ففطنت الى قوله وقالت انا ولية امر نفسي ولا اريد الاقتران بهذا الرجل مطلقاً قالت ذلك وهي لا تدري كيف انتها القوة لتتطرق بهذا القول لشدة ما حلّ بها من الجزع ولكن النفوس الكبيرة يظهر مضاًوها في المنكاره . فقال الشيخ اذن لا استطيع ان اكتب كتابها . والظاهر ان الامير حساناً لم يكون يتوقع هذا السؤال فوقف مبهوتاً لا يدري ماذا يفعل فاشار اليه نديمه وانفرد به وقال له ليس لك الا ان تذلمها هي وامها حتى تصغر نفسها وتضطر ان تفقدي امها



الولدين بعيدين عنهما

## الاحتفال في الحرش

كلها وعلا صرير الصراصير

شتی تأخذ بالابصار رونقاً و بهاء

والرياحين وامتدت كالمواجر الى ابعاد شاسعة

الملايس والحمل

حذر الموت

الانام بملابسهم الرسمية ثياب مقصبة ونياشين نتألق في الصدور. ووربات الجمال بالحلي والحلل



خصور كالخواتم ووجوه كالبدور وقد افترطن في توسيع اردانهم واذا يلمن فوقفن كالابراج  
المستديرة بتبدى بدائرة لا يقل قطرها عن الباع ثم تستدق رويداً رويداً الى ان تنتهي  
ينحصر يصح فيه قول من قال

نكاد لهنضم الكشح تجعل عقدها نطاقاً كما يستبدل المثل بالمثل

وحولهم الجنود من الفرسان والمشاة ستة آلاف من رجال فرنسا ونجبة شبانها ووراءهم  
جمهور لا يحصى عدده من الرجال والنساء والاولاد يموج كالبحر الزاخر

خشت الابصار واشترأت الاعناق الى ان انتهى الكنه من الصلاة والترتيل فعزفت  
الموسيقى بالسلام السلطاني ثم بالسلام الامبراطوري وعادت المدافع الى الدوي وتلتها الحركات  
الحربية . فسار المشاة صفوفًا وانتظموا قلعة كبيرة المدافع والمهات في وسطها والفرسان  
وراءها وصدرت الاوامر من القواد فاطلقت البنادق طلقات متوالية يتخللها اطلاق المدافع  
وسردق الدخان ثانية فحجب الشمس واستظلت الجماهير بظله

دام الاحتفال ثلاث ساعات كانها ثلاث دقائق والموسيقى تعزف والجنود تهتف والمدافع  
تقصف واهالي بيروت ينظرون مدهوشين يزحم بعضهم بعضاً ولا يتنفسون الهواء الا من  
فوق رؤوسهم

ثلاث ساعات دام الاحتفال سبقتها ثلاث ساعات ازدحمت فيها الجماهير وتلتها ثلاث  
ساعات حتى انجل عقدهم وانفض جمعهم . النهار كله من الضحى الى الاصيل والناس  
مزدحمون لا طعام ولا شراب بل بعضهم جاء قبل الشمس ولم يستطع ان يعود الا بعد  
مغيبها ولولا باعة الكعك وسقاة السوس لضافت النفوس من الجوع والعطش اما كبراء القوم  
فقدم لهم انحر انواع الطعام والشراب

ولكن هل كان الوالي اطيب نفساً من ساقى السوس وهل كانت زوجة الجنرال اطلق  
وجها من بياغة اللبن . هل كان احد من المجمعين في الدائرة الوسطى من الحكام والقواد  
والاحبار والتجار والشرفاء والاغنياء الذين اكلوا حلواء باريس وشربوا خمر شيمانيا هل  
كان احد منهم انعم بالاً من المزدحمين حول تلك الدائرة من اهالي بيروت والقرى المجاورة .  
قال احد الفضلاء ان في كل متر مربع من اكواخ الفقراء فرحاً وسروراً اضعاف اضعاف  
ما في كل متر مربع من قصور الاغنياء . ايطاليا اقتر ممالك اوربا ولكنك لا تجد غناً وطرباً  
في مملكة اخرى كما تجد فيها . واسبانيا ثلواها في الفقر ولكن سكانها يرقصون ويطربون  
اكثر من سكان انكلترا وفرنسا



والذين شاهدوا ذلك الاحتفال من اهالي بيروت وضواحيها حسبوا ان الجنود الفرنسية احنّت سورية ولن تخرج منها فتمت امنية فرنسا التي تمتتها من زمن حروب الصليب وامنية فريق كبير من سكان سورية . وهضت الشهور والجنود تزيد تودداً الى الاهالي والاهالي لا يجدون سبباً للشكوى بل لم يجدوا الا كل ما يستحق الشكر اذ كثرت الاموال وراجت الاعمال وشيدت المباني الفخيمة في بيروت وساعدت المساكن اهالي لبنان في بناء بيوتهم المحروقة كان مارون وقولا التاجران قد اشتريا بساتين كثيرة في سقي بيروت وارضيه فيسمة في المدينة فرجاً رجباً وافرأ بارتفاع اثمانها وبغلاء سعر الحرير ولم يكن نصيب غطوس السمسار وعبد الله الوكيل قليلاً . ورأى الخواجه بخور والخواجه شمعون ان ابتياع الاملاك ارجح من تدبير النقود فعضا اصابهما ندامة على فوات الفرص وبادرا الى مشتري ما يمكن مشراه من الاراضي التي قرب ساحة السمك اذ بلغهما ان المدينة ستمتد من تلك الجهة

واجتمع جماعة من الوجوه في بيت كبير من كبراء بيروت وكان الشيخ درويش ابو فخر معهم اتى من غير دعوة شأن كل فضولي . ودار البحث على الاحوال الحاضرة بعد ما قتل فؤاد باشا والي دمشق وكثيرين من المأمورين والضباط واعتقل والي بيروت . فقال واحد من الحضور ان الافرنج رشوا الوزير حتى فعل هذا الفعل المنكر وقال آخر بل انه فعل ذلك باوامر من اسطنبول لكي يسكت دول اوربا . وكان بين الحضور رجل دمشقي اتى حديثاً من دمشق وشهد ما حدث فيها فقال لم ان الوزير لم يفعل عشر معشار ما يطلب منه فانا قد شاهدت كل ما حدث في الشام ولولا لطف المولى وشهامة الامير عبد القادر ما ابقوا احداً والعملية مدبرة من اسطنبول اعترفنا بذلك او لم نعترف ولا اقول ان القصد قتل هذا المقدار من الاهالي بل ايقاظ الفتنة لكي تشد اخل دول اوربا على ما قال لي احد العارفين بدخائل الامر والظاهر ان اصحابنا لا يهتمهم خربت الدنيا او عمرت اذا كان لهم غرض سياسي

فقال له آخر وما هو هذا الغرض السياسي هل يريدون ان يسلموا البلاد للافرنج قبحهم الله وقبح سياستهم فانها كلها نفاق بنفاق

وقال الشيخ درويش الحق في يد الشيخ مصطفى فاني انا سمعت والي يقول لشيخ الدروز اني يساعدهم ويحميهم . ولما زارني في رمضان الماضي قال لي يا ابا فخر يجب ان تجتهد وتستميل الامير احمد رسلان . فعملت كل واسطة معه والمسألة مدبرة كما قال الشيخ مصطفى ولكن ما عمره خطر بيالي انها تطلع في الآخر من راس والي ويلقي كل اللوم عليه فقال الشيخ مصطفى حبسوه يومين على عيون الناس وبعدها يفرج عنه



فقال الشيخ درويش ولكن والي الشام قتلوه  
فقال الشيخ مصطفى قتلوه لانه كان عنده اوراق فيها اوامر سرية وتهديد بهم فقتلوه حتى  
يخفوا الخبر انا لا احط بذهمتي ولكن الاشاعة مألوفة الدنيا ويقول البعض انهم رأوا الاوامر بعيونهم  
فقال آخر ما قولكم الآن هل تبقى العساكر الفرنسية هنا  
فاجابه ابو نجر لا احد يخرجها الا الانكليز مثل ما اخرجوا بونا بارت من عكا . وقواس  
قنصل الانكليز صاحبي وهو يمشي عني قهوة كل يوم وقال لي من يومين ان العسكر  
الفرنسي دخل على هذا الشرط انه يبقى حتى تصطليح الاحوال ثم يخرج وهو سميع هذا الكلام  
من الترجمان والترجمان صاحبي ايضا من زمان طويل ولو سأله لكان خبرني  
الشيخ مصطفى - الله لا يحكم الاخرنج فينا ولكن الحق اولى ان يقال من حين ما اتوا الى  
هنا راجت الاشغال واصطليحت احوال الحكومة واذا فرضنا بقاء الفرنسية هنا وعفونا من  
العسكرية كما تعفي الدولة النصارى كان ذلك افضل لنا  
فاجابه الشيخ درويش ان الفرنسيين لا يعفون احداً اما رأيت عساكر المغاربة وانا قد  
تصادقت مع كثيرين منهم وزاروني في بيتي فعرفت منهم ان الفرنسية تأخذ العساكر من الجميع  
وبعد اخذ وعطاء على هذا النمط قرّ قرارهم على ان لا يحركوا ساكناً وعلى ان يوصوا  
الجميع بالتزام السكينة الى ان يروا ما يحدث في الاستانة لان بعضهم كانوا يتوقعون حدوث  
امر ذي بال فيها

### الفصل الخامس والثلاثون

#### مؤتمر بيروت

اجتمع معتمدو الدول الست الموقعات على عهدة باريس اجتمعوا في مدينة بيروت للنظر في  
حوادث لبنان وغرضهم البحث عن الجانيات وعقابهم والتعويض على الجاني عليهم وانشاء  
حكومة للجبل يؤمن معها حدوث ما حدث ورأى المؤتمر ان يقدم الالم على المهم فنظروا ولا في  
مسألة التعويض لان الشتاء كان على الابواب واراد ان يعطي اولئك المساكين ما يسدون  
به جوعهم ويكسو عريتهم ويساعدوهم على بناء بيوتهم اذا ارادوا العودة اليها . وانتقل  
بهيتة الى دمشق ورأى ما حل بها من الدمار وقدّر الخسائر بثلاثة ملايين من الجنيهات  
وبعد بحث طويل واعتماد الوزير بتقليل التعويض المطلوب الى اقل ما يمكن الوصول اليه  
عين متداره وقيل انه قيمة المساويات او ما يراد رده منها وكتب التوائم في ذلك ولكنها



كانت مأكلًا لاهل الطمع ولم يصل الى الفقير منها الا شيء لا يذكر. وقد طُبع الناس على الظلم حتى وهم متساوون فيه وراسفون في قيودهم يظلم بعضهم بعضًا. خُلِق في الانسان موروث من الحيوان لا يفلت منه الا قليلون. وكم من مرة وقفت ارملة مسكينة وطفلها على ذراعها امام بيت رجل كبير من اهالي بلدها تطلب منه ان يمنَّ عليها بجزء مما سُمح به لها من مسلوباتها وهو ينتهرها ويقول لها لم اقبض شيئًا او هذا كل ما سمحوا لك به ويعطيا ربيع ما اخذ. ومما زاد الطين بلة ان المسلوبات قُسطت اقساطًا وأُعطيت بها سندات فجعل الصرافون يشترونها من اصحابها باقل من قيمتها فقلَّ ما نال اصحابها منها

ولما انقضى الميث في مسألة التعويض انتقل اعضاء المؤتمر الى الميث في المسألة الاولى اي عقاب المجرمين فطلب فؤاد باشا من رؤساء النصارى ان يكتبوا اسماء كل الذين يعلمون انهم ارتكبوا الجرائم. فارتكبوا الشطط حتى صار اعضاء المؤتمر عليهم بعد ان كانوا معهم فاضطروا ان يعدلوا طلبهم وما زالوا يعدلون واعضاء المؤتمر يطلبون المزيد في التعديل الى ان انحصر الطلب في تفر قليل من اعيان الدروز فقبض عليهم وادعوا السجن وفي جملتهم الامير احمد ارسلان

وعاد المؤتمر الى النظر في الامر الثالث وهو انشاء حكومة منظمة في جبل لبنان يؤمن بها العودة الى مثل ما حدث فيه فيبحث في هذا الموضوع طويلاً وقرَّر اعضاؤه بعد النظر والروية ان يتولى ادارة الجبل متصرف مسيحي تختاره الدولة العلية بالاتفاق مع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا ويساعده مجلس ادارة ينتخب اعضاءه سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية وقرروا سنَّ دستور لادارة الجبل على غاية الدقة وفرضت المساواة التامة بين جميع سكانه وانتهت جلسات المؤتمر في اوائل شهر مارس

## الفصل السابع والثلاثون

### النجاة من السجن

هذا يومك يا مسرور سيدك في السجن واخاف ان يقتلوه لا لانه مجرم مثل غيره بل لانه كان يتردد على فصل الانكليز فلا بد لك من تخليصه وقد عرضنا الامر للقنصل فوعدنا خيراً وهو صادق في وعده ولست خائفة منه بل من اولاد الحرام ان يغدروا باحمد فخذ ما شئت. هذه عشرة آلاف غرش خذها وبرطل بها السجن او برطل من تريد واذا ما كفت فخذ غيرها لخدمته الف غرش وانا اعتمد على الله ولا تخبر احداً على



الاطلاق بل دبّر كل شيء وحده ولكن لا بد من العجلة لاني خائفة جداً ان تضيع الفرصة علينا . آه يا ربي ما هذه المصيبة من اين انتنا هذه البلية . قلت له الف مرة مالك ولهذه الاجتماعات قلت له انزل بنا الى بيروت وخلصنا من اولاد عمك ومن مشايخ العقل قلت له امش مع قنصل الانكليز مثل ما مشى المرحوم والدك فما سمع مني . الله يجازي الذين كانوا السبب الله يخرب بيوتهم مثل ما خربوا بيوت الناس . ثم يا مسرور وخذ ما شئت ولا تدعني ارى وجهك الا واحمد معك ( قالت ام الامير احمد هذا القول والمدح ملء عينها )

فنام مسرور ووضع نصف النقود في كمره ونصفها في كيسه وهي مئة ليرة فرنسوية وركب الى بيت الدين حيث كان امراء الدروز ومشايخهم مسجونين وجعل يتردد على السجان ويشرب معه الدخان ولما استوثق منه اعطاه عشرين ليرة فحفظت عينا الرجل لانه لم ير في حياته نصف هذا المبلغ في يده واتفقا على ان يسكرا الخفراء لانه خاف ان يرشوه فلا يكتموا السر كلهم واشترى مبرداً كبيراً من بيطار واحضره الى السجان فواصله الى الامير احمد لكي يتطعم به القيود من رجليه وانتظروا الى ان كانت ليلة مظلمة من ليالي الخاق تلبدت الغيوم في سماءها وحجبت نجومها فدخل السجان واخرج الامير احمد وسار به الهويينا الى ان وصلا الى الباب الخارجي فوجدا الخفراء قد استيقظوا ووقدوا ناراً اضاءت ما حولهم فعاد به من حيث اتى وجاء مسرور في الصباح فاخبره السجان بما جرى . ووصل الى المأمور السجن في ذلك اليوم كتاب من غير امضاء يقال فيه ان احد الامراء المسجونين عازم على الفرار فتعهد ابواب السجن واقفلها بنفسه وضاعف عدد الخفراء

واجتمع مسرور بالسجان فاخبره السجان بما حدث فعزم ان يذهب الى المأمور ويرشوه ولكنه لم يجد اليه سبيلاً فعاد يفكر في الامر فلم يجد اسلم من ان يقيم مقام الامير احمد فرجع الى الشويفات واحضر عبداً آخر من عبيد مولاه وصباغاً اسود واتى به الى السجان ليعطيه للامير احمد حتى يصبغ به وجهه ويديه

فتمت الحيلة ووضع مسرور القيود في يديه ورجليه بدل مولاه وخرج الامير احمد من السجن وسار مع عبده الآخر وجعل يسريان ليلاً ويخفيان نهراً الى ان وصلا بلاد بشاره واخفيا عند الشيخ نصار احد مشايخها ومرت ثلاثة ايام ومسرور يدعي انه مريض في سجنه لا يخرج منه واخيراً دخل المأمور يفتقد المسجونين فرأى العبد مسروراً بدل الامير احمد وشاع الخبر حالاً في بيت الدين وقامت له البلاد وتعدت وقبض على السجان واودع السجن وتحدث مؤتمر الماعدين بهذا الامر واصر معتمد فرنسا على معاقبة العبد والسجان والتفتيش عن



الامير احمد ومعافته ايضا وكان فؤاد باشا مؤيداً له وخالفهما لورددن معتمد انكثرا لأن الكولونل روزكان يعتقد براءة الامير احمد ولو لم تكن لديه الادلة الكافية على ذلك وقد اعجب بشبهة العبد مسرور كما اعجب بها كل من سمع عنها. وأرسل الرجال للتفتيش عن الامير احمد في كل انحاء الجبل وجهات الولاية ووصل ثلاثة منهم الى قرية الشيخ نصار الذي كان الامير احمد مخفياً فيها وكانوا متكررين فلما وصلوا الى العيف التي يستقي منها نساء القرية جلسوا واخرجوا زادهم وجعلوا يأكلون وطلبوا الماء من النساء ليشربوا فامتنعن لانهن يتنجسن من كل من يشرب من آيتهن من غير المناولة واخيراً اتت امرأة من نساء النصارى بجرتها وسقتهن ووقفت لتحدث معهم ووقف غيرها من النساء معها واجتمع بعض الاولاد ف اشارت عليهم احدى النساء ينزلوا في المنزل في دار الشيخ نصار فقالت اخرى ان عند الشيخ نصار ضيوفاً فقالت الاولى هؤلاء ليسوا ضيوفاً بل هم امير من امراء جبل لبنان وعبد فاسكتتها الثانية قائلة ان هذا الكلام لا اصل له والتفت اليها وعضت على شفتها فادرك الرجال حالاً ان ضالهم المشودة في بيت الشيخ نصار شيخ تلك القرية لكنهم تجاهلوا ذلك وبقوا في مكانهم الى ان انصرف النساء عنهم وقرّ قرارهم على ان يعود واحد منهم الى بيروت يخبر بما سمعوا ويبقى اثنان منهم في القرية او ينزلا ضيفين على الشيخ نصار ليراقبا حركات الامير احمد وسكناته

فعاد احدهم وسار الاثنان الباقيان الى دار الشيخ نصار ونزلا في المنزل الذي ينزل فيه الضيوف وهو غرفة كبيرة فيها فرش كثيرة يزورها الشيخ كل يوم ليري النزول فيها ويسألهم عن راحتهم. ويقدم لهم الطعام في اوقاته الثلاثة من غير ان يسألوا عن غرضهم لكن الشيخ اوجس خيفة لما رآهما فرحب بهما على جاري عادته واخبر الامير احمد بذلك واخرجه في ظلة الليل من باب سري وارسل معه اثنين من خدمه ليوصلاه الى حدود بلاد حوران فيصير في بلاد الامان لان حوران ملجأ الدرود وليس للدولة كلمة نافذة فيها

فسار الامير احمد معها ماشياً على قدميه بزي فلاّح من فلاحى تلك البلاد الذين يذهبون الى حوران للتعيش فيها ولم يأخذ عبده معه لئلا يعرف به بل امره بالعودة الى الشويقات ليخبر امه بسلامته وبأنه صار في بلاد الامان. وقد كان معتاداً المشي مسافات طويلة يخرج الى الصيد في الصباح فلا يعود الا بعد الظهر وقد يقضي النهار كله ماشياً على قدميه يصعد في التلال وينزل الى الاودية ولا يشكو تعباً لا لانه لا يتعب من المشي بل لان خفة روحه كانت تنسيه التعب اما الآن فكان الهم قد انhek قواه واشتد لومه لنفسه



لأنه ما فعل حسب مشورة امه وانتقل الى بيروت وانقطع عن مجارة قومه لا سيما وأنه كان يعتقد انهم مخطئون في عملهم وكانت صورة ابنة خالته الاميرة سلمى لا تزال امام عينيهِ وقد انقطعت اخبارها عنه بعد ان رحل بها ابوها عن حاصبيا ووصله نعيه ولكنه لم يصله من مصدر يوثق به ولا كتبت اليه خالته في هذا الشأن ورأى المستقبل كله مظلماً امام عينيهِ فجلس على عين ماء في ظل صخر وغسل يديه ووجهه وكان التعب قد اخذ منه كل مأخذ فأتكأ على الصخر وران سلطان الكرى على جفنيه وحلم انه وصل الى بلاد حوران فاحلته شيخها على الرحب والسعة وصار يركب مع قومه ويفزو العرب المجاورين لهم فوقع في ايديهم اسيراً ووضعوا القيود في يديه ورجليه وضيقوا خناقهُ ورأى الاميرة سلمى وهو على تلك الحالة فاذا هي مع الجواري تحلب البقر وعليها ثياب اممال وسيدتها تشتمها وتضربها فهب لكي ينقذها منها ونسي قيوده وسلاسله فوقع واصاب جبينه الصخر فشده فنهض من نومه والدم ينزف من جبهته فقال هو حلم ولكن ما اقبله وعاد ينسل جبينه الى ان انقطع الدم

شمعون -- قللوا التعويضات حتى لم يبقَ منها شيء يذكر . قدروا تعويضات الشام بثلاثمئة الف كيس واتزلوها الى مئة وخمسين الفا والان مراد الوزير ان ينزلها الى خمسة وسبعين الفا فما عادت تجرز

بنجور -- ان الدولة لا تدفع نقوداً بل تعطي سندات عليها بالمبالغ التي يلزم دفعها ويمكننا ان نشري هذه السندات باقل من ثمنها الاصلي عشرين او ثلاثين في المئة وهذا باب واسع للربح يجب ان لا نتغاضي عنه

شمعون -- كلاً وليس لنا مناظر الان فيه ولكن بلغني ان مرادهم ان يفتشوا عن المسلوبات كلها ويستردوها فاذا فعل يوسف بالصيني الذي اشتراه وبسائر الامتعة المنهوبة بنجور -- صرف بعضها وارسل البعض الآخر الى مصر وهي مطلوبة هناك

شمعون -- لقد احسن في ما فعل لانه بلغني ان القناصل والمعتمدين يشددون لاسترجاع كل المنهوبات . وهل تظن ان العساكر الفرنسية تبقى هنا

بنجور -- لا اظن ويظهر من المكاتيب التي انتني اول امس انهم يرحلون في اوائل الصيف وكانت فرنسا طلبت ان يعين والي الجبل من بيت شهاب ولكن انكثروا اعترضت على ذلك والدولة معها ولا يبعد ان يعين والي من الخارج وعلى كل حال اله آباءنا معنا وهو يدبر كل الامور لخيرنا



## الفصل الثامن والثلاثون

السلطان عبد العزيز

”ما هذه المدافع يا امي فقد عددت منها اكثر من تسعين مدفعا ولم ابدي من الاول“ هذا ما قالته فتاة جالسة امام منصبين من الطين فيهما نصب قائم عليه قفل من الحرير حسب اتساع الدواليب البلدية التي كان الحرير يعمل ويلف عليها ويدها كوفية تكب عليها حتى يصير اقفاً صغيرة . وهي في نحو العاشرة من عمرها وليس في الغرفة التي كانت فيها غير صندوق عليه فرش ولحف مطوية وبعض آنية الطبخ من كانون وقدر وصحاف - غرفة حقيرة ولكنها نظيفة لا ترى فيها ذرة غبار ولا رائحة خبيثة بل بالضد من ذلك ترى امامها خميلة فيها الرياحين العطرية والازهار الجميلة الالوان من الريحان والافستين والقرنفل والنل والياسمين وقد تصوع ارجها في الغرفة وامتزج بهوائها امتزاج الراح بالماء . وهناك ورد جورجي ولكن ازرارها نقطف قبلما تفتح لكي يخرج منها ماء الورد فان صاحب البيت بناءً واجرنه كافية لمعيشة بيته ولا سيما في ذلك الوقت اذ ارتفعت الاجور لكثرة المياقي التي كانت تبني بمال الاحسان تشغيلاً للناس ولكنه كان يتقاضاها يوم السبت ويسكر بها يوم الاحد ويقضي يوم الاثنين نائماً من اثر السكر وهذا دأبه فتضطر زوجته ان تسلك الحرير وتخرج ماء الورد لمعيشة بيتها وكانت تكتسب هي وابنتها ما يكفيهم

فقال لها امها سمعت المدافع وانا آتية وسمعت الناس يقولون انه مات السلطان عبد المجيد . والتقيت بالخورى عند مدخل البستان فبست يده وسأله عن الخبر فقال انه صحيح وقد سمعته في البطرخانة ولكنه طمن بالي

فنزطت الابنة الى امها مدهوشة وقالت ”مات السلطان“ وحاولت ان تدرك معنى هذا الكلام فلم تدركه فانها تذكرت ايام الخوف الماضية حينما قُتل رجل واحد وكيف انها هربت مع امها واخوتها الى بيت خالها وتأخر ابوها عن الرجوع الى نصف الليل فتلقوا عليه . لكنها فحمت من قول امها ان الخوري طمنها وقال لها انه ليس هناك ما يخشى منه . وهو رجل صالح وكل الناس يقولون يده . ويحترمونه اكبر سنه ولصلاحه فصمتت ولم تقل شيئاً ولكنها بتيت تنظر الى امها من وقت الى آخر ترى ما اذا كانت مطمئنة او مضطربة

وسمع كل اهالي بيروت صوت اطلاق المدافع وكان جرجس يكيل ثوباً من القماش لامرأة اشترت منه عشر اذرع وهو جالس متربعاً في دكانه بسوق البزركان والدكان مرتفعة



عن ارض السوق قدر متر وبابه غلقان احدهما يرفع الى اعلى ويسند بعصوين فيصير مثل مظلة فوق الدكان نقي الواقفين امامه من الشمس والمطر والآخر ينزل الى اسفل فلا يكاد يصل الى الارض وارتفاع الدكان عن ارض السوق متراً يقيه من السيل الذي يجري في اسواق بيروت كلما اشتد وقوع المطر فيها. فلما سمع اصوات المدافع ارتجفت يداؤه وابطل الكيل ورد الثوب الى مكانه وخافت المرأة فسدت مندليها على وجهها وسارت في طريقها مسرعة واتفق ان مرَّ رجل من التجار الكبار في تلك اللحظة وكان جرجس يعرفه فاستوقفه وسأله عن سبب اطلاق المدافع فاسرَّ في اذنه قائلاً مات السلطان عبد المجيد ونصبوا السلطان عبد العزيز. فسأله جرجس هل من خوف علينا فرجع التاجر راحنيه وشار بشفتيه اشارة من يقول لا اعلم ولكن الامر لا يخلو من الخطر. وكانت اعناق اصحاب الدكاكين المجاورة قد تطالت كلها ليسمعوا ما يقوله التاجر ولم يكذب جرجس يرى اشارته حتى نزل من دكانه وزرع الدروندين وانزل الغلق الاعلى ورفع الاسفل واقفل الباب فاقتدى به اكثر اصحاب الدكاكين ولم تكن الا دقائق قليلة حتى لم تعد ترى دكاناً مفتوحاً في تلك السوق واقفل كثيرون دكاكينهم في سائر الاسواق واسرعوا الى بيوتهم وجعل الناس يتكلمون همساً ولا يجترئ احد ان يرفع صوته كأن آثار الجور والظلم رنحت في نفوسهم رسوخ الطبائع وتوارثوها خلفاً عن سلف فلا يحدث حادث حتى تراهم يذعرون ويهربون الى بيوتهم كأنه بفعل عصي منعكس لا دخل للادارة فيه ولا لقوة اخرى من قوى العقل

وكان نساء مسلمات ومسيحيات في مار الياس يقين بنذورهن فذعن لما سمعن اصوات المدافع وجعلن يصرعن الى مار الياس او الخضرة ليلطف بهن ويقي عيالهن وهن في ذلك سواء كنهن من مذهب واحد لا فارق بينهن

وخرج ابو نجر من بيته ليسأل عن سبب اطلاق المدافع فالتقى بالشيخ مصطفى صاعداً من المدينة فاخبره بموت السلطان عبد المجيد وثنصيب السلطان عبد العزيز فقال الحمد لله فقد نجانا الله من احتلال الفرنسية لبلادنا واعطانا سلطاناً لا يفضل الافرنج علينا

فقال له الشيخ مصطفى ومن قال ان السلطان عبد المجيد كان يفضل الافرنج علينا. فاجابه الظاهر انك غائب عن البلد ألا تعلم ان كل هذه الحركات والقلاقل مسببة عن ذلك ولكن هذا سر لا يعرفه غيري اطمني عليه الوالي لما زارني في رمضان الماضي

والتقى مارون بنقولا وقال له لم نستفد فائدة تذكر من محبي الفرنسية ولم نكد نقرح عييتهم حتى خرجوا عن آخرهم واخاف ان تهبط اسعار العقارات التي اشتريناها



فقال نقولا من كان يظن ان سياسة الانكليز تغلب سياسة الفرنسيين  
فأجابه مارون لو عرفت من الاول ان الانكليز غير راضين عن محيى العساكر  
الفرنسوية ما كنت خاطرت بقرش واحد لان سياسة الانكليز دائماً غالبه ألا تذكر ما  
فعلوه بابرهم باشا فان فرنسا كانت معه ولكنهم قوّموا اوربا كلها عليه حتى الزموه ان  
يخرج من البلاد ويرجع الى مصر

فقال نقولا ومع ذلك لا أرى ان الاسعار هبطت ولا هي مائلة الى الهبوط واسعار  
الحرير لا تزال في ارتفاع ولا بدءاً ما تصطحح الاحوال في ايام السلطان الجديد  
وتذاكر بخور وشمعون في الاحوال الحاضرة فقال شمعون كتب الى ابن خالتي من  
استانبول ان السلطان الجديد سيستدين اموالاً كثيرة فتروج الاشغال وتكثر المكاسب في  
زمانه . فقال له بخور متى كتب لك ذلك والسلطان لم يجلس الا امس . فاجابه شمعون انه  
كتب لي مع البوسطة الماضية . ولكن ابن خالتي وكل اصحابنا في فينا وباريس ولندرا  
كانوا عارفين اميال السلطان عبد العزيز من قبل ان يتولى وامور مثل هذه لا تخفى عليهم  
واجتمع وكلاء الدولة والعلماء في دار رشيد افندي وهنا بعضهم بعضاً بانقراج الازمة  
فقد تم كل شيء على ما تمنوا وخرجت الجنود الفرنسية من بلاد الشام وجلس السلطان  
عبد العزيز على كرسي السلطنة بعد ان وعدم المواعيد الوثيقة انه يكف ايدي اوربا ولم  
يتسع نطاق الفتن اكثر مما قدّروا . واعترض احد العلماء على ذلك بان الجنود اسرفت في ما  
فعلت فأجيب انه لم يكن في الامكان ان يفعلوا غير ذلك . واجمعوا على تقديم الشكر لقواد  
باشا لنجاحه التام في العمل الذي انتدب له

وتلي خطاب الملكة في البارلمنت الانكليزي ف اشارت الى وفاة السلطان عبد المجيد  
وتصيب السلطان عبد العزيز وذكرت الاول بفضائله و اشارت الى اسف الامة الانكليزية  
عليه وذكرت الثاني بما يرجى من النفع منه لبلادهم وشكرت فرنسا على ما أبدته من الفيرة  
بارسال جنودها الى سورية والى حفظها لوعودها واخراج جنودها منها حالما استتب الامن  
فيها لئلا تزيد المسألة الشرقية تعقيداً

وأشير الى سورية في مجلس النواب بفرنسا فاعترض زعيم الراديكاليين على خروج  
الجنود من سورية بهذه السرعة ولح الى ارتشاء قائدهم فانتهره رئيس المجلس واشتد الجدل  
حتى كاد يفضي الى الخصام واخيراً طلب الرئيس الاقتراع على الثقة بالوزارة فكانت الاعلبية  
لها . واشير الى هذه المسألة في مجلس الشيوخ فلم تلق من الاهتمام ما لقيته في مجلس النواب



## الفصل التاسع والثلاثون

## زيارة الوالي

جلس الكولونل روز في مكتبته وتطلع من الشباك الشرقي المطل على حديقة المنزل فوقع نظره على اشجار التفاح والخوخ ( الدرائن ) والمان وقد كادت اغصانها تتكسر من ثقل حملها ورأى البستاني يحول بينها يتفقد ما يقع منها ويلتقطه ورفع نظره الى الجبل فرأى الظلال تمر عليه مر السحاب فتذكر العام الماضي حينما كان الدخان مسردقا عليه من احتراق بيوته وشكر الله على انتضاء ايام الشدة

وكان فؤاد باشا قد ارسل اليه في الصباح يقول انه قادم لزيارته عصر ذلك النهار اذا كان مستعدا لاستقباله حينئذ فجلس الآن في انتظاره وبعد هنيهة دخل السر هنري وقال حان الوقت فالتفت الكولونل الى ساعة كبيرة دقاقة قائمة في زاوية الغرفة وقال نعم يصل بعد عشر دقائق وهو يمتاز على غيره من ولاية الاتراك بشدة تديقه في الوقت ثم التفت الى السر هنري وقال على ماذا اجمع رأيك

فقال السر هنري لا بد لي من الذهاب بنفسي فقد اتاني كتاب من الامير احمد ارسلان انه قائم مع الشيخ اسمعيل الاطرش لمعاونة الامير عمر القاعور على بني صخر ولا ادري على من تدور الدائرة فان الامير حسانا امير بني صخر فارس مغوار لا يصطلي له بنار والاميرة سلمي في اسره نتجرع مرارة الدل فاذا رأى ان لا قبل له بمجارية العرب والدروز رحل بقومه جنوبا او شرقا وزاد في اذلالها الى ان ترضى به زوجا لها او تموت حسرة

فقال الكولونل وكيف تذهب بنفسك اذا كانت الحال على ما ذكرت واي فائدة من ذهابك السر هنري - يا حبا لو امكنتي ان آخذ فرقة من الجنود الجبارة الذين في البارجة فاني اقدر كل واحد منهم بثمة من البدو الذين اسلحتهم السيف والرمح او البنادق القديمة ذات الزناد الكولونل روز - ان ذلك غير ميسور لانه لا يجوز لنا ان نرسل جنودا في بلاد الدولة الا بقرار دولي خاص . ولا يزال البارلنت مجتمعاً فاذا سمع الاحرار اننا اخرجنا جنودنا الى البر اقاموا الدنيا واقعدوها متخذين ذلك حجة ضد المحافظين لاسقاطهم من الوزارة . ولكن قد نستطيع ان نطلب من الوالي فيعطينا فرقة من الجنود التركية

السر هنري . وما ادرانا انهم لا يضمنون الى بني صخر فخرج من شروقع في شرين الكولونل - هذا بعيد الاحتمال لانهم اميل الى الدروز منهم الى البدو وليس لهم مصلحة



خصوصية في الانضمام الى هذا الفريق او ذاك ولا بدءاً ما يفعلون بامر الوالي  
فصمت السر هنري وفكر في الامر هنينة ثم قال اظن ان هذا هو الرأي الصواب فنطلب  
من الوالي مئتي فارس وانا اقوم بنفقاتهم

فقال الكولونل ولا اظن انه يمانع اذا ذهب معك عشرة من الجنود البحارة لحمايتك  
ووصل فؤاد باشا في الميعاد وكان راكباً جواداً مطهماً وامامه ووراءه كوكبة من الفرسان  
فلاقاه الكولونل الى باب المنزل وتصافحا وسلم على السر هنري مصافحةً لانه كان قد رآه  
مراراً في المغامرات السابقة وجلس الثلاثة في غرفة الاستقبال يدخنون التبغ الجبيلي ويتجادلون  
اطراف الحديث باللغة الفرنسية فابان فؤاد باشا ان مهمته قد انتهت ولا يبعد ان يعود من  
سورية قريباً وشكر الكولونل روز والسر هنري ما ابدياه من المساعدة له في حكمتهما . واستطرد  
الكولونل روز الحديث الى احوال الدروز في جبل حوران واحوال البدو المجاورين لهم .  
فراه عارفاً بما بينهم من الضغائن وبنشوب الحرب بين عرب الفضل وبني صخر وبانحياز  
الدروز الى عرب الفضل وحاسباً ان هذه الحرب ستضعف الفريقين فيسهل كبح جماحهما  
والتسلط عليهما فاخبره الكولونل ان في اسر بني صخر اناساً بهم السر هنري انقاذهم منهم ويود  
ان يذهب اليهم بجامية من الجنود العثمانية

فاستحسن فؤاد باشا ذلك وعرض عليه خمس مئة فارس يرسلهم مع السر هنري فشكره السر  
هنري على ذلك وانتقلوا الى انكلام على حكومة لبنان وغرض فرنسا من رد ولايته الى الامراء  
الشهابيين واعتراض اللورد دفرن على ذلك فابان فؤاد باشا انه كان يفضل ان يقسم الجبل الى  
قسمين يضاف قسم منهما الى ولاية دمشق وقسم الى ولاية بيروت . فبين له الكولونل ان  
الدول الاوربية لا توافق على ذلك فليس من الحكمة محاولة اما البقاع فلا بأس بضمه الى  
ولاية دمشق لان اكثر سكانه من غير المسيحيين

ولما انتهت الزيارة قام فؤاد باشا فودع بما قبل به من الاكرام

### الفصل الرابع

#### فصل الخطاب

مر على الامير احمد ايام لم ير اشد منها الى ان خرج من حدود الشام ودخل بلاد حوران  
ولم يكد يصل الى تلك البلاد حتى التقى بجماة من دروز لبنان فعرفوه وساروا به الى الشيخ  
اسماعيل الاطرش فرحب به واكرم وفادته وانزله في انجر بيوتيه واقام جماعة من رجاله على



خدمته والتف حوله كثير من دروز الجبل ومشايخهم الذين هربوا من لبنان وكانت عيون الشيخ اسمعيل تسقط الاخبار وتأتيه بها من كل ناحية فلا يجري شيء في دمشق ولا في لبنان ولا في بيروت ولا في بلاد الجولان كلها الا ويأتيه خبره وكان له اصدقاؤه في بيروت يرسلون اليه بما يبلغهم من اخبار الاستانة واخبار البلدان الاوربية فيقف على اهم الاخبار السياسية وقد بلغه كل ما حدث في مؤتمر بيروت وما قرأ عليه قرار اعضائه من اختيار وال مسيحي للجبل من غير طوائفه فاخذ يتداول مع الامير احمد في طريقة لارجاع دروز الجبل الى بيوتهم فقرر رأيهما على ان الامير احمد يكتب الى قنصل الانكليز الجنرال في بيروت يطلب منه ان يتوسط امرهم عند ولاية الامور فكتب اليه واخبره عن احوال بلاد حوران وما جاورها

ولما بلغ الامير احمد ما حل بخالته واولادها بعث رسلاً الى الامير حسان امير بني صخر يتودد اليه ويخبره ان الاميرة هند خالته ويطلب منه ان يطلق سبيلها وسبيل اولادها وارسل مع الرسل هدايا فاخرة من منسوجات دمشق واسلحتها وكان الامير حسان غائباً في بعض مغازيه فانتظره الرسل الى ان عاد وقدموا اليه الهدايا وسلموه كتاب الامير احمد فلم يحفل به ولا قبل الهدايا لان الاميرة هند واولادها كانوا يسمعونهم من الكلام فاضطر الرسل ان يعودوا فارغين ثم اوعز الى بعض اعوانه فاقتفوا اثرهم وقتلوا واحداً منهم وسلبوا ما معهم فعادوا واخبروا بما جرى لهم فارغى الشيخ اسمعيل وازبد وكتب الى الامير عمر امير عرب الفضل انه ينفذه بخمس مئة من فرسان حوران اذا قام لمحاربة بني صخر ودارت المراسلة بينهما ثم اجتمع الاثنان واجتمع الامير احمد معهما وقرروا خطة الهجوم

وفي الوقت المعين خرج فرسان الدروز من حوران وواصلوا السير الى ان بلغوا جبل عجلون فالتقاهم الامير عمر واتزلم على الركب والسعة واوالم لهم الولا ثم ثلاثة ايام حسب عادة الضيافة عند العرب وقاموا في اليوم الرابع وساروا اربعة آلاف فارس ومعهم الجمال تحمل الزاد والماء وقصدوا اللقاء وكانت اخبارهم قد وصلت الى الامير حسان فجمع رجاله واحلافه وخرج للقاءهم في سهل فسيح بعد عن الجبل الذي كان ممتنعاً فيه نصف مرحلة

ونام الفريقان تلك الليلة في السهل يفصل بينهما غدير صغير وخرائب مدينة قديمة ، نام الخليون واما الشحيون فاحبوا الليل بين احلام مرعبة وهو اجس مزعجة - الامير حسان متطير من تلك الواقعة لان غراباً مر عن يساره حالما خرج من مضربه وزجره فلم يزدجر والشاعر الذي غناه بالاسم ابتداً نشيده بقوله " يا دار غيرك البلى " واليوم الذي اضطر ان يخرج فيه



يوم الثلاثاء وهو من نجوسه وقال في نفسه ان دارت الدائرة على رجالي عدت الى المضارب وقتلت سلمي وامها واخويها ولو عيرني العرب ابد الدهر لانهم سبب هذه البلية . ثم اغمض جفنيه وكانت يده على مقبض سيفه فارتحلت اصابعها ووقعت فلم ان جواده عثر به في حومة الوغى فسقط عنه ونهض مذعوراً . ثم عادت به الهواجس الى فيافي الخيال ففكر بالاميرة سلمي كما رآها آخر مرة تحلب النياق والدمع قد قرّح جفنيها فادارت وجبها عنه خجلاً منه او غيظاً فشمت بها كما يفعل اللثام اذا رآوا الضعيف ذليلاً بين ايديهم وفكر باخويها وقد صارت ثيابهما اخلاقاً فلم تأخذه شفقة عليها ولا رثى لحال امهما بل احندم غيظاً على زوجته لانه كان يعلم انها ترسل اليهم من طعامها وبات الامير عمر لا يفكر الا باخذ الثار وكشف العار وتخطر بباله الاميرة سلمي فيردد في نفسه قول من قال

هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاءً جميلاً  
فلن تستطيع اليها صعوداً ولن تستطيع اليك نزولاً

فان الطالبين لها اقرب منه اليها ابن خالتها وذلك الامير الانكليزي الذي اخبرته عنه ام يوسف . وهو يلوم طالعه لانه اوقعه في حب فتاة لا يستطيع الوصول اليها وعزم ان يستدعي طبيب الجزيرة فيسقيه دواء السلوان<sup>(١)</sup>

وكاد فؤاد الامير احمد يطير فرحاً لان التقادير يسرت له ان ينقذ خالته واولادها من الاسر وقال في نفسه ان ذلك لا بد وان يلين قلب سلمي ويزيل منه كل اثر من حب ذلك الرجل الانكليزي الذي تحلّى عنها وقت الشدة مع انه من اقدر الناس على نجاتها كيف لا واساطيل الانكليز ماثلة البحر وكفة واحدة منه للوالي تقيم البلاد وتقدمها ولا بد لي من ان ابين ذلك لسلمي ان كانت تجهله

اما الشيخ اسمعيل فلم يكن يفكر الا بتحالف رجاله مع عرب الفضل حاسباً ان ذلك يعزز مقامه لدى الدولة ويمنعها من تشديد الوطأة في طلب المتأخرين الاموال الاميرية . وكان قد بلغه انها اكتفت بقصاص نقر قليل من رجال الجبل وعفت عن الباقيين فلم يبق له هم الا ان تفيقه من الاموال الاميرية وودّ ان تنتهي هذه الواقعة باسرع ما يكون حتى يعود رجاله الى حصد زروعهم

(١) تزعم العرب انه من يسقاه العاشق فيموت حياً



ولم يكذب السرحان يعلو فوق الافق حتى ماج المعسكران وعلا صهيل الجياد وهدير  
الجمال واشتدت الضوضاء وجعل الفريقان يتأهبان للهجوم فانقسم كل فريق الى اقسام وكان  
كشافة الامير عمر والشيخ اسمعيل قد طافوا في البقاع التي حولهم وعادوا فاخبروا بما رأوا  
ففتح القائدان خطة الهجوم . اما الامير حسان فان رجاله كانوا يعرفون كل شعبة من تلك  
الشعب وكل بقعة ومنهل فاستدعى مشايخهم وكرّر عليهم بيان الخطة التي يقابلون بها عدوهم  
وموضع الكمين الذي اقامه لهم ولم تكذب الشمس تبزغ من وراء الافق حتى اصطف الجيشان  
وابتدأ إطلاق البنادق واخذوا في انكر والفر والاتحام والانفصال وعلا العشير فسدّ منافس  
الفضاء وصاح الابطال واصطدم الشجعان وثبت البيض الصفاح وتكسرت عوالي الرماح  
وحلقت العتبان والقشاع ووقفت الضباع في اوجارها تستروح رائحة الملاحم وقام ملاك النعمة  
على راية متهلل الجبين وهو يقول لا تطهر المائم الا بالدماء ما دامت القلوب مباءة للشجاء .  
وعلت الشمس واشتدّ الهجير والحرب سجال والفريقان ككفي ميزان تعبت بهما الرياح .  
وهربت الاصلال من وقع سنابك الخيل وتعذّر عليها الانسياب على الرمضاء ففارت في  
نوافق البرابيع . وبينما الجياد تكاد تسبح في عرقها هبت ريح صرصر فجففت ابدانها ويبست  
جلودها ولم تكذب الشمس تميل عن الهاجرة حتى ظهر الوهن في رجال الامير حسان فصاروا  
يتقدمون خطوة ويتأخرون خطوة كمد البحر اذا ابتدأ جزره وعرب الفضل والحوارة  
يضرّبون في وجوعهم وفي اتقيتهم الى ان ارضلهم الى محلّتهم وابعدوهم عنها فملت جلبة النساء  
والاولاد . وكان الامير احمد اسرع الجميع الى محلة بني صخر يحتمي ظهره مئة فارس من  
فرسان حوران فجعل يفتش عن خالته واولادها - تي وصل الى المضرب الذي كانوا محروسين  
فيه ولم يكذب يصل اليهم حتى علت الصيحات وراءه وهب رجال الامير حسان في وجهه لان  
الكمين ثار من مكنته في تلك اللحظة واندفع وراء عرب الفضل والحوارة فصاروا بين جيشين  
جيش الامير حسان المتظاهر بالانكسار امامهم والكمين الذي كمن لهم فارتبكوا في امرهم  
ولم يروا الا الصبر في ذلك المأزق الحرج فانقسموا فريقين فريقاً وقف في وجه الكمين وفريقاً  
في وجه الامير حسان ورجالهم . ويا لها من ساعة تكسرت فيها البيض الصفاح ويبت الارواح  
بيع السماح وتطارت الجمالجم عن الابدان وانتشرت الجثث على الصصحاح وبينما القوم  
يجرّعون الموت الزؤام ويحسبون ان لامناص لهم من شرب كأس الحمام وقد زرّت الرمي  
عليهم جيوبها وادارت المنون عليهم خطوبها علا الغبار من الشمال فظنوه اعصاراً وماج  
السهم بالفرسان نغالوه تياراً . وقال كل لسان الدولة الدولة جنود النظام يبيارقها وفرسان



الحكومة بينادقها غار الفريقان في من المعني بهذه الغارة ورأوا فرصة للكف عن القتال فكفوا الى ان تبجلي واقعة الحال ولم يكن الا دقائق قليلة حتى وصلت الفرسان وقد عقد لواها لسليم باشا من امراء الجيش العثماني ومعه السر هنري بدمونت ونفر من الجنود البحارة فوقعت مهابة الحكومة على الخصمين فانقصلا ووقفا منتظرين الاوامر ولما تم انقصالها نادى سليم باشا الامير عمر والامير احمد والشيخ اسمعيل فاقربوا منه وترجلوا في حضرته فامرهم بالركوب ثانية ثم نادى الامير حسانا فلم يكن مجيب واخذ رجاله يفتشون عنه فوجده ملقى بين صخرين جريحا استدلوا عليه من جواده الواقف امامه . فانه اصاب برصاصة في صدره فصرعته ولكنها لم تخطف انقاسه فحملوه الى امام سليم باشا معفى عليه لكثرة ما نزل من دمه وبادر الطبيب الى قطع النزف ومواساة الجرح وعادوا به الى مضرته فاسلم الروح وهم في الطريق واحضر سليم باشا ابن عم الامير عباس فنصبه اميرا على قبيلته

### الحاتمة

ازدانت دار الامير عباس بالرياحين وازهار الخريف وانتظم فيها عقد جمهور منتخب من القناصل الجنرالية والامراء الشهابيين والارسلانيين ثم حضر والي بيروت ومتصرف لبنان والقاصد الرسولي وجماعة من فسوس اللاتين واقتصرا الاحفال على هؤلاء بسبب الحداد وكانت الاميرة صفا قد جرت معيشة الدير فلم تحملها فعادت الى بيت ابياها وخرجت الاميرة سلمى من خدرها متكئة على ذراع عمها واتت امها وابنة عمها وراءها والدموع تنساقط من اعينهما وتقدم السر هنري ووضع يده في يدها فكللها القاصد الرسولي واهدت اليهما الهدايا وفي جلستها الاسلحة التي وجدها الامير احمد في المغارة

وكتب السر هنري الى امه تلك الليلة يصف لها حفلة اكليله وقال انه وجد اسلحة جده كونت بدمونت ووجد فيها الوثيقة وعليها ختم الملك ركاردرس قلب الاسد فلا شبهة في لقبه وهو الوارث الوحيد له وطلب اليها ان تعرض ذلك على جلالة الملكة وتطلب منها ان تلقبه بكونت لبنان او امير لبنان



17512  
C



